ميخائيل بولغاكوف

@ketab_n
Follow Me
31.3.2015

حياة السيّد موليير

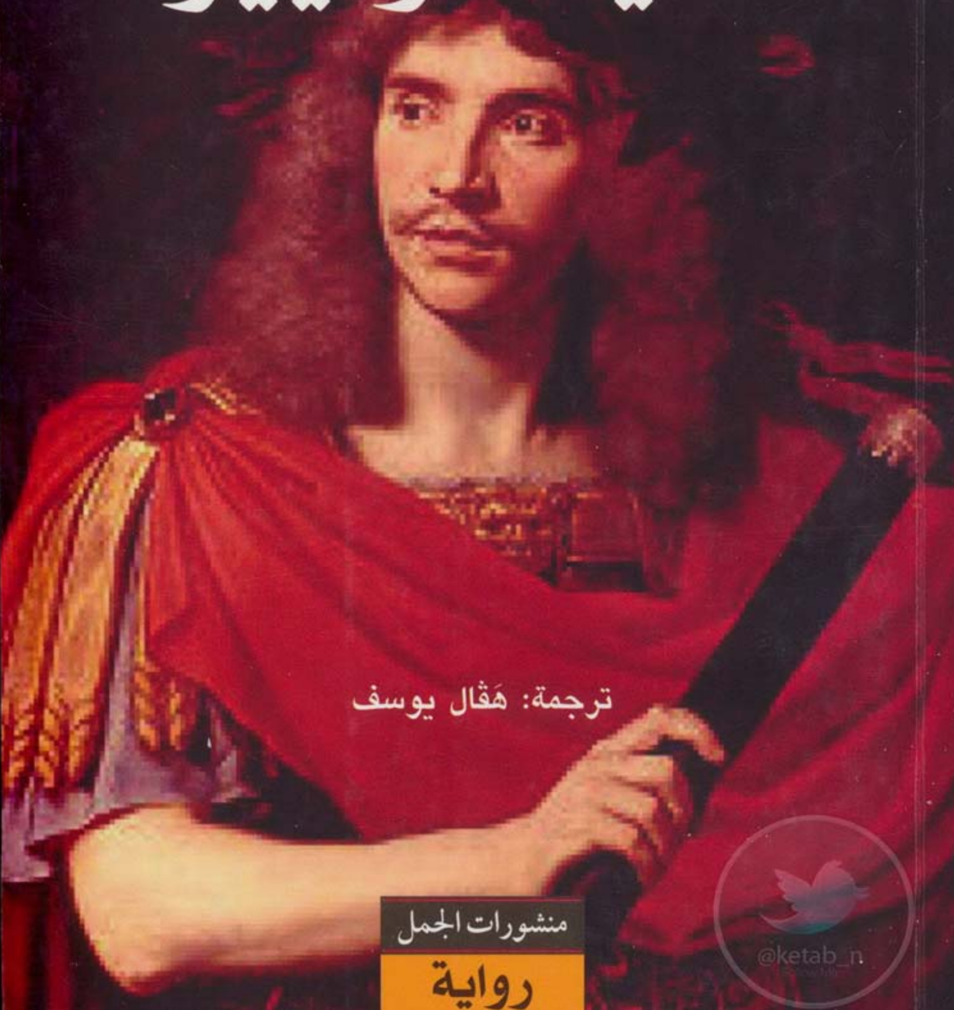

ترجمة: هَڤال يوسف

منشورات الجمل

رواية

@ketab_n

ميخائيل بولغاكوف

حياة

السيّد موليير

رواية

ترجمة: هَڤال يوسف

منشورات الجمل

@ketab_n

Twitter: @ketab_n

ميخائيل بولغاكوف: حياة السيّد موليير

Twitter: @ketab_n

ميخائيل بولغاكوف: حياة السيّد موليير، رواية، ترجمة: هَفّال يوسف
الطبعة الأولى ٢٠١٤
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2014*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

استهلال

حديثي إلى قابلة

«ما الذي يمنعني عن قول الحقّ وأنا أضحك؟»

هوراس

«كان موليير كاتباً رائعاً للكوميديات الفرنسية في عهد لوي الرابع عشر»

أنطيوخ كاتيمير

إحدى القابلات، ممّن تعلّمن فنهنّ في دار التوليد المدعو «بيت الرّبّ» بباريس تحت إشراف لويز بورجوا الذائعة الصيت، قامت، في ١٣ كانون الثاني ١٦٢٢، بتوليد السيّدة البالغة اللطف بوكلِن ـ نسبتها قبل الزواج كريسّييه ـ التي أنجبت طفلها الأوّل: صبيّاً صغيراً مخدّجاً.

يمكنني القول بثقة إنّني لو أتيح لي لكنت شرحت للقابلة المحترمة مَنْ الذي ولّدته بالتحديد حتى لا تُلحِق أيّ أذى بالوليد، وبفرنسا معه، من جرّاء اضطرابها.

وها أنذا مرتدياً قفطاناً ذا جيوب هائلة الحجم، وبيدي ريشة إوّز،

Twitter: @ketab_n

لا ريشة فولاذية، وأمامي شموع مشتعلة، ودماغي مضطرم، أقول:

- اقلبي الطفل بحذرٍ أكثر يا سيّدتي! لا تنسي أنّه قد وُلِد قبل أوانه؛ فإنّ موت هذا الطفل سيكون خسارة كبرى لبلادك!

- يا إلهي! يمكن للسيّدة بوكلِن أن تنجب طفلاً آخر.

- لن تنجب السيّدة بوكلِن طفلاً مثله أبداً، ولن تنجب أيّ سيّدة أخرى طفلاً على شاكلته طوال عدّة قرون.

- إنّك تثير ذهولي يا سيّدي!

- أنا نفسي أشعر بالذهول. افهمي أنّي، بعد مرور ثلاثة قرون، وفي بلادٍ بعيدة، سوف أذكرك فقط لأنّك حملت ابن السيّد بوكلِن على يديك.

- لقد حملت على يديّ أطفالاً أكثر نبلاً.

- ما الذي تفهمينه أنت من معنى كلمة «نبيل» إنّ هذا الطفل سيصبح أشهر من ملككم لويس الثالث عشر، الملك الحاكم اليوم، بل سيغدو أكثر شهرةً حتى من الملك الذي سيليه، وذاك الملك، يا سيّدتي، سيُدعى لويس العظيم، أو ملك الشمس. يا سيّدتي الطيّبة! هناك بلد لا تعرفينه، يُدعى موسكوفيا، يقطنه أناسٌ يتكلمون لغةً غريبةً على مسامعك، وعمّا قريب سوف تنتشر أقوال هذا الذي ولّدتِه في ذاك البلد؛ إذ سيقوم أحد البولونيّين، هو مُهرّج القيصر بطرس الأكبر، بترجمتها عن اللغة الألمانيّة، وليس عن لغتكم، إلى لغة البرابرة.

المهرّج، الملقب بالملك الساخر من نفسه، سوف يكتب، مقلّداً إيّاه، وهو يصرّ بالريشة، السطور البشعة التالية:

Twitter: @ketab_n

«غورجيبيوس: يوجد يجب إعطاء مبلغاً هائلةٍ من المال لأجل وجوهكم الحسنة. أخبروني ما الشيء الذي فعلتمينه لذالك السادة اللذين بدا يرينكم، واللذين أريتُ خارجين م عزبتي بـ هذا الخجلة العظيم...».

إنّ مترجم القيصر الروسيّ كان يروم، من خلال هذه الكلمات الغريبة، أن ينقل كلمات صغيرك من مسرحيّته «النفيسات المضحكات»:

«غورجيبيوس: بالفعل صار لا بدّ من إنفاق المال لكي يدهن المرء وجهه[1]، من الأفضل أن تخبروني ما الذي فعلتموه لهؤلاء السادة حتى خرجوا من عندكم بهذه السحنة الباردة...».

في «توصيف المسرحيّات الكوميديّة المتضمَّنة في قرار سفير الحكومة بتاريخ ٣ أيار ١٧٠٩» تمّت الإشارة، في عداد المسرحيّات الأخرى، إلى المسرحيّات التالية: المسرحيّة الهزليّة «عن الدكتور المضروب» (في حين أنّها «طبيب رغماً عنه»)، وأخرى هي «سلالة هرقل» (الشخصِيّة الأولى فيها هي جوبيتر). فلنتعرّف إليها؛ الأولى هي «طبيب رغماً عنه»، وهي مسرحيّة كوميديّة من تأليف صغيرك هذا نفسه، والثانية هي «أمفيتريون» من تأليفه أيضاً، وهي نفس مسرحيّة «أمفيتريون» التي سيمثّلها السيّد موليير وممثّلوه عام ١٦٦٨ في باريس، بحضور بيوتر إيفانوفيج بوتيومكين، رسول القيصر ألكسي ميخائيلوفيج.

بالتالي، ترين أنّ الروس سيتعرّفون إلى هذا الشخص، الذي ولّدتِه، حتى في هذا القرن. يا لرابطة الأزمنة! يا لتيّارات التنوير! إذ ستُترجم

---

(١) «يدهن وجهه» تعبير بالفرنسية يعني «دفع الرشوة»، والمعنى: «بالفعل صار لا بدّ من دفع الرشوة... إلخ».

Twitter: @ketab_n

أقوال هذا الطفل إلى اللغة الألمانيّة، كما ستُترجم إلى الإنكليزيّة، وإلى الإيطاليّة، وإلى الإسبانيّة، وإلى الهولنديّة، وإلى الدنماركيّة والبرتغاليّة والبولونيّة والتركيّة والروسيّة...

- هل هذا ممكن يا سيّدي؟

- لا تقاطعيني يا سيّدتي! وإلى اليونانيّة! أقصد اليونانيّة الحديثة، بل وإلى اليونانيّة القديمة كذلك، وإلى الهنغاريّة والرومانيّة والتشيكيّة والسويديّة والأرمنيّة والعربيّة...

- إنّك تذهلني يا سيّدي!

- أوه، بل هذا غيضٌ من فيض، إذ يمكنني أن أسمّي لك عشرات الكتّاب ممّن تُرجمتْ مؤلّفاتهم إلى اللغات الأجنبيّة في حين أنّها ليست جديرة بأن تُطبع حتى بلغاتها الأمّ. لكن هذا، لن تُترجم مؤلّفاته فحسب بل وسيبدأون بتأليف مسرحيّات عنه، هو ذاته، وفقط أبناء جلدتك سيكتبون عنه العشرات. الإيطاليّون أيضاً سيكتبون مسرحيّات - من هذا القبيل، ومن بينهم كارلو غولدوني الذي هو ذاته وُلِد - كما قيل مصحوباً بتصفيق آلهة الإلهام. والروس سيكتبون عنه كذلك.

كما سيتم تقليد مسرحيّاته، والكتابة على منوالها، في بلدانٍ أخرى أيضاً، لا في بلدك فحسب. وسيكتب علماء من بلدان مختلفة أبحاثاً مفصّلة عن مؤلّفاته، محاولين تقصّي أسرار حياته خطوة فخطوة، وسيثبتون لك أنّ هذا الإنسان، الذي يبدو الآن بين يديك بالكاد على قيد الحياة، سوف يؤثّر في كثيرين من كتّاب القرن القادم، بمن فيهم غير المعروفين من قِبَلك، لكنّي أنا أعرفهم، مثل مواطنيّ غريبَييدَف وبوشكين وغوغَل.

Twitter: @ketab_n

أنت محقّ: سيخرج من النار سالماً
من يتمكّن من البقاء معك يوماً واحداً،
ويتنفّس الهواء ذاته؛
فيغدو سليم العقل.
وها أنا ذا من موسكو! لن آتي إلى هنا بعد الآن
سأهرب لا ألوي على شيء، لأبحث، في الدنيا،
عن ركنٍ فيه عطفٌ نحو المهان!

هذه السطور من خاتمة مؤلَّف مواطني غريبَييدَف «ذو العقل يشقى».

وأنا الذي كنت ضحية الغدر والخيانة
سأهجر هذه الجدران المهلكة إلى الأبد؛
هذه الهاوية الجهنميّة، حيث يهيمن الفسق؛
حَيث القريب عدوٌّ لدود لقريبه، وليس أخاً!
سأذهب للبحث عن ركنٍ في بلدٍ ناءٍ
حيث يمكن للمرء، بطريقة ما، أن يكون شريفاً.

وهذه السطور من خاتمة مسرحيّة بوكلن هذا «مُبغض البشر» بترجمة الكاتب الروسيّ فيودور كوكوشكين (عام ١٨١٦).

هل هناك تشابه بين الخاتمتين؟ آخ، يا إلهي، أنا لست ضليعاً! فليعالج العلماء هذا الأمر، وهم سيخبرونك بمدى التشابه بين جاتسكي بطل غريبَييدَف وألتسيست في «مُبغض البشر»، وسيخبرونك لماذا يعدّ كارلو غولدوني تلميذاً لبوكلن هذا، وكيف أنّ الفتى بوشكين قد قلّد

Twitter: @ketab_n

بوكلن هذا، وأشياء أخرى ذكيّة وممتعة. أنا لا أفهم هذه الأمور جيّداً؛ فهذا لا يعنيني مطلقاً.

يشغلني أمرٌ آخر: سوف تُعرَض مسرحيّات بطلي، طوال ثلاثة قرون، في كافّة مسارح العالم، وليس معلوماً متى سيتوقّفون عن عرضها. هذا ما يهمّني! هاكِ أيّ إنسان سيكونه هذا الطفل!

أجل! أردت التحدّث عن المسرحيّات. إنّ سيّدة بالغة الوقار، هي السيّدة أورور ديوديفان المعروفة أكثر باسم جورج صاند، ستكون من بين الذين سيكتبون مسرحيّات عن بطلي.

في خاتمة مسرحيتها سيقول موليير وهو ينهض واقفاً:

ـ أجل! أريد أن أموت في بيتي. . . أريد أن أبارك ابنتي.

وسيردّ الأمير دي كونديه، وهو يتّجه نحوه:

ـ اتّكئ عليّ يا موليير.

الممثّل دو بارك، الذي سيكون، بالمناسبة، قد فارق الحياة أثناء وفاة موليير، سيقول ناشجاً:

ـ أوه، أن أفقد الإنسان الوحيد الذي أحببت يوماً!

النساء يكتبن بصورة عاطفيّة، ولا يمكن فعل شيء بهذا الصدد، لكنك ـ يا معلّمي المسكين المُدمّى ـ لم تكن راغباً في الموت قط، سواء في بيتك أم خارجه، ولست أظنّ أنك، عندما كان نهر الدم يتدفّق من فمك، أعلنت عن رغبتك في مباركة ابنتك مادلين التي بالكاد يهتمّ لشأنها أحد.

من يكتب بصورة أكثر عاطفيّة من النساء؟ ترى هل الرجال

Twitter: @ketab_n

مختلفون؛ فالكاتب الروسيّ فلاديمير رافائيلوفيج زوتوف يقدّم خاتمة ليست أقلّ عاطفيّةً:

ـ الملك قادم. يريد أن يرى موليير. موليير! ما به؟

ـ لقد مات.

يهرع الأمير لاستقبال لويس، ويهتف بصوتٍ عالٍ:

ـ مات موليير يا سيّدي!

يقول لويس الرابع عشر، وهو يخلع قبّعته:

ـ موليير خالد!

ما الذي يمكن قوله ردّاً على هذه الكلمات الأخيرة؟ أجل، بالفعل، فالإنسان الذي لا يزال حياً لأربعة قرون إنسان خالد دون شك لكن السؤال بمجمله هو: هل أقرّ الملك بذلك؟

في أوبرا «أريتوز»، التي ألّفها السيّد كامبرييه، يُعلَن ما يلي:

ـ الآلهة تحكُم السماء، ولويس يحكم الأرض!

ذاك الذي كان يحكم الأرض لم يخلع قبّعته أمام أحد قط، ما عدا النساء، وما كان له أن يزور موليير المحتضر. وهو لم يأتِ حقّاً، كما لم يأتِ أيٌّ من الأمراء؛ فالذي كان يحكم الأرض كان يعتبر أنّه هو الخالد، لكنّي أظنّ أنّه كان مخطئاً في هذا، إذ كان فانياً كالجميع، وبالتالي: أعمى. فلو لم يكن أعمى؛ فربّما كان سيزور المحتضر لأنّه كان سيرى أشياء رائعة في المستقبل، وربّما كانت ستراوده الرغبة في الارتباط بالخلود الحقّ..

كان سيرى في ذلك المكان من باريس الحاليّة، حيث تتقاطع

Twitter: @ketab_n

شوارع ريشيليو وتيريز وموليير بزاويةٍ حادّة، إنساناً جالساً دون حراك بين الأعمدة، دونه امرأتان من الرخام الفاتح اللون في أيديهما لفافتان، وأدنى منهنّ رؤوس أسودٍ، وإلى الأسفل منها حوض نافورةٍ جافّ.

ها هو الغاليّ الماكر والمغوي، الممثّل والدراماتورغ الملكي! هاهو بباروكةٍ برونزيّة، وبرباطَي حذاء برونزيَّين! ها هو ملك الدراماتورغيّة الفرنسيّة!

آخ.. يا سيّدتي! ما لك تحدّثينني عن أطفال نبلاء ممّن حملتِهم يوماً على ذراعيك! افهمي أنّ هذا الطفل، الذي ولّدتِه في دار آل بوكلن، ليس سوى السيّد موليير! آها! هل فهمتِني؟ لذا، كوني حذرة أرجوك! أخبريني، هل بكى؟ هل يتنفّس؟ هل هو على قيد الحياة؟

Twitter: @ketab_n

الفصل ١

في منزل القرود

وهكذا، في ١٣ كانون الثاني ١٦٢٢، في باريس، وُلد للسيد جان باتيست بوكلِن وقرينته ماري بوكلِن ـ كريسّييه ابن بكر ضئيل الحجم. وفي ١٥ كانون الثاني تمّ تعميده في كنيسة «سان أوستاش»، وسمّي على شرف الأب جان باتيست. هنّأ الجيران بوكلِن، وفي ورشة المنجّدين عُلِم أنّ منجداً وبائع مفروشات آخر قد جاء إلى الدنيا.

لكلّ معماريٍّ خياله الخاصّ. عند زوايا البيت اللطيف المظهر المؤلّف من ثلاثة طوابق بسقفه الهرميّ الشديد الانحدار، القائم عند تقاطع شارع «سان أونوريه» وشارع «الحمّامات القديمة»، حشر بنّاء القرن الخامس عشر منحوتات خشبيّة تمثّل أشجار برتقال مقطوعة الأغصان بإتقان، عُلّقت عليها قرود صغيرة على شكل سلسلة، وهي تقطف الثمار. بطبيعة الحال، أطلق الباريسيّون على هذا البيت لقب «منزل القرود». وقد كلّفت هذه السعادين الممثّل دو موليير غالياً فيما بعد! فكثيراً ما قال فاعلو خير إنّ مستقبل الابن الأكبر لبوكلن الموقّر، الابن الذي أصبح مُهرِّجاً، سيكون عاديّاً تماماً. إذ ما الذي يمكن توقّعه من شخصٍ ترعرع بين السعادين القبيحة؟ غير أنّ الممثّل لن يتبرّأ من

Twitter: @ketab_n

قروده، وفي خريف عمره، عندما قام بتصميم شعاره، الذي لا يُعرف لِمَ كان يحتاجه، صوّر فيه أصدقاءه ذوي الذيول، الذين كانوا يحرسون البيت الأبويّ.

كان هذا البيت يقع في أكثر الأحياء التجاريّة صخباً في مركز باريس، غير بعيد عن «الجسر الجديد». وكان يملكه المنجّد ومُصلّح الأثاث جان باتيست الأب، الذي كان من حاشية الملك، حيث كان يسكنه ويمارس تجارته أيضاً فيه.

بمرور الزمن حصل المنجّد على لقب جديد آخر: فرّاش فخامة ملك فرنسا. وهو لم يحمل هذا اللقب باعتزاز فحسب بل وورّثه لابنه الأكبر جان باتيست كذلك.

وقد سرت شائعة تقول إنّ جان باتيست الأب، إلى جانب تجارة الأرائك وورق الجدران، كان يُقرض المال بنسب عالية للفائدة. ولست أرى أيَّ مذمّة في هذا الأمر بالنسبة لتاجر، لكنّ الألسن الخبيثة كانت تؤكّد أنّ بوكلن الأب كان يبالغ في نسبة الفائدة، وأنّ الدراماتورغ موليير، عندما وصف هارباغون البخيل والمثير للاشمئزاز، إنّما أظهر فيه نموذج والده. وهارباغون هو ذلك الرجل الذي حاول أن يحتال على أحد زبائنه ويُحمّله، مقابل ماله، كلّ ما لديه من سقط متاع، والذي، حسب زعمه، يمكن تزيين السقف به.

لا أريد أن أصدّق هذه الأقاويل الفارغة؛ فالدراماتورغ موليير لم يُشوّه ذكرى أبيه، وليست لديّ نية لتشويهها.

كان بوكلن الأب تاجراً حقيقياً، وممثّلاً بارزاً ومحترماً لورشته المحترمة؛ فقد كان يمارس التجارة، وفوق مدخل حانوت السعادين كان يرفرف علمٌ شريف عليه صورة ذلك السعدان نفسه.

Twitter: @ketab_n

كانت تفوح في الطابق الأوّل المعتم، في الحانوت، رائحة الأصبغة والصوف. كانت النقود تصلصل في الصندوق، وطوال النهار كان الناس يتجهون إلى هناك لاختيار السجاجيد وورق الجدران؛ وحتى البرجوازيّون والأرستقراطيّون كانوا يأتون إلى بوكلن الأب. أمّا في الورشة، التي كانت نوافذها تطلّ على الفناء، فكانت ترتفع أعمدة غبار دهنيّ، والكراسي مكدّسة فوق بعضها، وقد تناثرت قطع خشب الأثاث وقطع الجلد والنسيج ووسط هذه الفوضى كان المعلّمون والشغّيلة البوكلِنيون يكدّون في العمل، فيطرقون بمطارقهم ويُفصّلون بسكاكينهم.

وفي غرف الطابق الثاني، أعلى العَلم، كانت الأمّ هي الآمر الناهي. هناك كان يُسمع صوت سعالها الدائم وحفيف تنانيرها المصنوعة من قماش مدينة نابولي الإيطالية، إذ إنّ ماريا بوكلن كانت امرأة ميسورة الحال؛ ففي خزاناتها كانت هناك أثواب غالية الثمن وقطع من القماش الفلورنسي وبيّاضات من أرقّ أنواع الكتّان، وفي الأَضْوِنة كانت تختزن قلائد وأساور مزيّنة بالماسّ ولآلئ وخواتم بحجارة من زمرّد وساعات ذهبيّة وفضّيات سُفرة ثمينة. وكانت ماريا تُسبّح بمسبحة من الصَّدَف، إذ كانت قد قرأت الكتاب المقدّس، وكذلك مؤلّفات الكاتب الإغريقي بلوتارخ بترجمتها المختصرة، وهو ما لا أصدّقه كثيراً. وكانت سيدة هادئة ولطيفة ومتعلّمة.

كان معظم أسلافها منجّدين، لكن صادف بينهم وجود أناس امتهنوا مِهناً أخرى كالموسيقى والمحاماة، على سبيل المثال.

وهكذا؛ في الغرف العُلويّة لمنزل القرود كان يتبختر ولدٌ أشقر

Twitter: @ketab_n

غليظ الشفتين، هو الابن الأكبر جان باتيست. وكان ينزل أحياناً إلى الحانوت والورشات فيعيق الشغيلة عن العمل سائلاً إيّاهم عن مختلف الفروق. وكان المعلّمون يضحكون من ثأثأته لكنّهم كانوا يحبّونه. أحياناً كان يجلس قرب النافذة وينظر، سانداً خدَّيه بيدَيه، إلى الشارع القذر المكتظّ بالناس.

وقد مرّت أمّه بجواره مرّة؛ فربّتت على ظهره، وقالت:

ـ يا لكَ، أيها المتأمّل..!

في أحد الأيّام أُدخل المتأمّل مدرسة الأبرشية. حيث تعلّم في تلك المدرسة كلّ ما يمكن تعلّمه في مدرسة كهذه بالتحديد، أي إنّه ألمَّ بالقواعد الأربع الأولى للحساب، وبات يقرأ بسهولة، وهضم مبادئ اللغة اللاتينيّة، وتعرّف إلى الكثير من الوقائع الممتعة المسرودة في كتاب «حياة القدّيسين».

على هذا النحو جرت الأمور، بسلام وبشكل جيّد، فقد أثرى بوكلن الأب، وولد له أربعة أبناء، عندما ألمّت فجأةً... مصيبة بمنزل القرود.

في ربيع عام ١٦٣٢ مرضت الأمّ الحنون، وصارت عيناها لامعتَين وحزينتَين، وهزلت خلال شهر واحد إلى درجة بات من العسير فيها التعرّف إليها، وعلى خدَّيها الشاحبتَين ظهرت بقع خبيثة. بعد ذلك صارت تبصق الدم مع سعالها، فبدأ يتوافد إلى منزل القرود أطبّاء على البغال بقلنسواتهم المشؤومة. وفي ١٥ أيار بكى المتأمّل السمين بكاءً مرّاً، ماسحاً دموعه بيدَيه المتّسختَين، وأجهش البيت كلّه معه. كانت ماري بوكلن مستلقيةً دون حراك، ويداها مصالبتان على صدرها.

Twitter: @ketab_n

بعد أن وُريت الثرى خيّم على البيت كدرٌ مقيم، حيث بات الأب كئيباً شارد الذهن، وقد رأى ابنه البكر عدّة مرّات كيف أنّه، في المساءات الصيفيّة، كان يجلس وحيداً في العتمة، ويبكي. كان هذا الأمر يُحزن المتأمّل، فكان يطوف في الشقّة غير عارفٍ بِمَ يشغل نفسه. لكنّ الأب كفّ عن البكاء فيما بعد، وصار يتردّد على عائلة فلورِتّ. وحينذاك أخبروا جان باتيست، ذا الأحد عشر عاماً، أنّه ستصبح لديه أمٌّ جديدة، وسرعان ما ظهرت كاترين فلورتّ، الأمّ الجديدة، في منزل القرود. وعلى أيّ حال، فقد هجرت الأسرة منزل القرود آنذاك لأنّ الأب اشترى منزلاً آخر.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢
حكاية هاويَي مسرح

كان المنزل الجديد يقع وسط السوق، في الحيّ الذي يُقام فيه معرض سان جيرمان الشهير. وفي الموقع الجديد، قام بوكلن المتمرّس بعرض جميع مغريات حانوته بصورة أكثر تألّقاً. كانت ماري كريسّبيه هي ربّة البيت السابق، وهي التي تنجب الأبناء، وفي البيت الجديد حلّت كاترين فلورتّ محلّها؛ فما الذي يمكن قوله عن هذه المرأة؟ في رأيي، لا شيء، سواء كان صالحاً أم طالحاً، ولكن، بما أنّها دخلت هذه الأسرة بلقب زوجة الأب فإنّ الكثيرين ممّن كانوا يهتمّون بحياة بطلي راحوا يؤكّدون أنّ جان باتيست الصغير عاش حياةً بائسة في كنف كاترين فلورتّ، وأنّها كانت زوجة أبٍ شريرة، وأنّ موليير إنّما صوّرها هي بالتحديد في مسرحيّته الكوميديّة «المريض بالوهم» باسم بيلين، الزوجة الخائنة. هذا كلّه غير صحيح في رأيي؛ إذ لا توجد أيّ دلائل على أنّ كاترين قد أساءت إلى جان باتيست، بل لا توجد أيّ دلائل على أنّها بيلين. لم تكن كاترين فلورتّ زوجة ثانية شريرة، وقد قامت بواجبها على الأرض، حيث أنجبت لبوكلِن ابنتهما كاترين بعد عام على زواجهما، وبعد عامين أنجبت مارغريت.

Twitter: @ketab_n

وهكذا؛ اجتاز جان باتيست صفوف مدرسة الأبرشية، ثم أنهاها أخيراً؛ فقدّر بوكلن الأب أنّ ابنه البكر قد وسّع من آفاقه بصورة كافية، وطلب إليه أن يُشرف على العمل في الحانوت. وهنا صار جان باتيست يقيس القماش أو يثبّت شيئاً ما بالمسامير أو يثرثر مع العمّال، وفي أوقات الفراغ كان يقرأ كُتَيِّب بلوتارخ الملطّخ بالزيت، والمتبقي عن ماري كريسّييه.

وها هنا، على ضوء شموعي، يظهر أمامي على عتبة الباب في قفطانٍ متواضع لكنْ رزين، بباروكةٍ، وعصا بيده، سيّدٌ شديد الحيويّة بالنسبة إلى سنّه، برجوازيّ المظهر، ذو عينَين حيويّتَين وملامح لائقة. اسمه لويس، وكنيته كريسّييه. إنّه والد الراحلة ماري، وبالتالي جدّ جان الصغير.

كان كريسّييه، كصهره، منجدّاً من حيث المهنة، لكنّه لم يكن منجدّاً ملكيّاً بل كان يعمل لحسابه الخاصّ، وكان يمارس تجارته في سوق سان جيرمان. وكان يعيش في «سان وان» بضواحي باريس، حيث كان يملك منزلاً رائعاً كامل المرتفقات. وكانت عائلة بوكلن تذهب في أيّام الأحد إلى «سان وان» لتحلّ ضيفاً على الجدّ، وقد احتفظ أبناء عائلة بوكلن بذكريات سارّة عن هذه الزيارات.

وهكذا، ربطت بين الجدّ كريسّييه وجان باتيست الصغير أواصر صداقة مذهلة؛ فما الذي جمع بين الشيخ والصبيّ؟ أهو. . .؟ أجل. . . إنّه هو بالضبط! الشغف المشترك، لكنّ الأمر لم يبقَ سرّاً على بوكلن الأب لفترة طويلة، وسرعان ما أثار ذلك لديه دهشةً متجهّمة؛ فقد تبيّن

Twitter: @ketab_n

أنّ الجدّ والحفيد شغوفان بالمسرح! وفي أمسيات الفراغ، عندما يكون الجدّ في باريس، كان كلا المنجّدين ـ الشيخ والصغير ـ يغادران البيت بعد أن يتبادلا النظرات في تواطؤ، ولم يكن اقتفاء أثرهما أمراً صعباً؛ فعادةً ما كانا يتوجّهان إلى تقاطع شارع «موكونسيل» والشارع «الفرنسيّ»، حيث كانت فرقة الممثلين الملكيّة تُمثّل في صالة «أوتيل بورغون» المعتمة الواطئة السقف.

كانت للجدّ الموقّر كريسّييه علاقات متينة برئيس إحدى الطوائف التي تجمع فيما بينها غايات دينيّة وتجاريّة. كانت هذه الطائف تدعى «أخويّة الآلام»، وكانت تتمتّع بامتياز عرض المسرحيّات الدينيّة في باريس، وهذه الأخويّة بالذات هي التي أنشأت «أوتيل بورغون»، ولكن، عندما كان جان باتيست صبيّاً لم تعد الأخويّة تعرض المسرحيّات الدينيّة، وإنّما كانت تؤجّر «الأوتيل» لمختلف الفرق المسرحيّة.

وهكذا لجأ الجدّ كريسّييه إلى رئيس الطائفة، وتمّ منح المنجّد المحترم وحفيده أماكن مجانيّة في إحدى المقصورات الشاغرة.

في مسرح «أوتيل بورغون»، حيث كان الممثّل الأشهر آنذاك بِلروز هو الممثّل الرئيس، كانت تُعرَض المسرحيّات التراجيديّة والكوميديّة والرعويّة والهزليّة، وكان جان دي روترو ـ المغرم بالنماذج الدراماتورغيّة الإسبانيّة ـ يُعدّ الدراماتورغ الأبرز في «الأوتيل»، لكن الحفيد أُعجب، أكثر بكثير من التراجيديّات التي كان بيلروز يمثّل فيها، بالمسرحيات الهزليّة البورغونية، تلك المسرحيات الهزليّة الفجّة الخفيفة

Twitter: @ketab_n

المُقتبَسة معظمها عن الإيطاليّين، والتي وجدت في باريس مؤدّين رائعين لها راحوا يُدخلون، ببهلوانيّةٍ ودون تكلّف، نصوصاً حيويّة في أدوارهم المضحكة.

أجل! لقد دلّ الجدّ كريسّبيه ـ لسوء حظّ بوكلن الأب ـ حفيده إلى طريق «أوتيل بورغون»! وقد تمكّن جان باتيست، برفقة جدّه عندما كان صبياً وبعد ذلك مع رفاقه عندما صار شاباً، من مشاهدة أمور رائعة في «الأوتيل».

غرو غيليوم المعروف، الذي كان يمثّل في المسرحيات الهزليّة، كذلك أذهل جان باتيستٍ بقبّعته المستديرة المسطّحة ومعطفه الأبيض الذي يغلّف بطنه العجيب. والشخصيّة المشهورة الأخرى، الممثّل الهزليّ غوتيه غارغيل الذي كان يرتدي صديرية سوداء اللون ذات كمّين حمراوين، والمدجَّج بنظّارات ضخمة، وبيده عصا، لم يكن أقلّ إبهاراً للجمهور البورغوني من غرو غيليوم. كما أذهل تورلوبين، الذي لا ينفد مخزونه من الحيل، جان باتيست، وكذلك أليزون الذي كان يلعب دور العجائز المضحكات.

أمام عينيّ جان باتيست، خلال بضع سنين، مرّ بسرعة، كما لو في أرجوحة دوّارة، أطبّاء متحذلقون، وقد صُبغت وجوههم بالطحين والصّباغ أو يرتدون أقنعة، وعجائز بخلاء وقباطنة جبناء متبجّحون. وبالترافق مع ضحك الجمهور، كانت الزوجات الطائشات يخدعن أزواجهنّ الحمقى المتبرّمين؛ والخدم الماكرون، الخِفاف كالريش، وهم يضلّلون أمثال غورجيبيوس العجوز، أو وهم يضربون كبار السنّ

Twitter: @ketab_n

بالعصي ثم يحشرونهم في أكياس، وكانت جدران «أوتيل بورغون» ترتجّ من ضحكات الفرنسيّين.

بعد أن شاهدا كلّ ما يمكن مشاهدته، انتقل المنجّدان الشغوفان إلى مسرح آخر كبير هو مسرح «عند المستنقع» (لو ماري). وهنا كانت السيادة للتراجيّديا التي تميّز فيها الممثّل المعروف موندوري، والكوميديا الراقية التي كانت أفضل نماذجها ما قدّمه للمسرح الدراماتورغ المشهور آنذاك بيير كورنيل.

وكأنّ حفيد لوي كريسّييه قد غُطِّس في مياهٍ مختلفة؛ فالبورغوني المبهَرج كديكٍ روميّ بيلروز كان لطيفاً ذلق اللسان، وكان يرفع بصره إلى الأعلى ثم يرنو إلى أفقٍ بعيدٍ مجهول، ويلوّح بقبّعته بسلاسة، ثمّ يقرأ المونولوجات بصوتٍ خافتٍ ممطوط بحيث يستحيل تمييز ما إن كان يتحدّث أو يغنّي. وهناك، «عند المستنقع»، كان موندوري يرجّ الصالة بصوته الراعد، ويموت في المسرحيّة التراجيّديّة وهو يحشرج.

كان الصبيّ يعود إلى بيت أبيه وبريق محموم في عينَيه، وفي الليالي كان يحلم بالأليزونات المهرجين والجاكمانات ـ جادو والفيليبات وبجودلييه الشهير بوجهه المصبوغ بالأبيض.

لكن هيهات! «فأوتيل بورغون» و«المستنقع» أعجز عن استنفاد كافّة الاحتمالات لمصابٍ بولعٍ لا براء منه تجاه المسرح.

كانت التجارة تجري على قدمٍ وساق عند «الجسر الجديد» (لو بون نوف)، وفي منطقة السوق، فاكتنزت باريس من جرّاء ذلك وغدت أجمل، وتوسّعت في كافّة الاتّجاهات. كانت الحياة تغلي في الحوانيت

Twitter: @ketab_n

وأمامها إلى درجة أنّها كانت تصمّ الآذان وتغشي العيون. وهناك، حيث انتشرت سرادق سوق «سان جيرمان»، كانت تجري بلبلة حقيقيّة: لغط! ضجيج! وأمّا القذارة... يا للقذارة!

ـ يا للهول! يا للهول! ـ قال يوماً عن هذا السوق الشاعر الكسيح سكارّون ـ ما أكثر القذارة التي تطرحها في كلّ مكان هذه المؤخّرات المجهولة ذات «الكَلاسين!».

طوال اليوم والبرجوازيّون الصغار والبرجوازيّات الحسناوات يروحون ويجيئون ويتدافعون! وفي صالونات الحلاقة كانت تجري الحلاقة و«الصَّوبنة» وقلع الأسنان. وكان يُرى الخيّالة بين الراجلين في الحشد، وعلى البغال كان يتنقّل الأطباء المهمّون الذين يشبهون الغربان، ويتخطّر الفرسان الملكيّون بشعار السهم الذهبيّ على عباءاتهم العسكريّة القصيرة. إنّها عاصمة العالم: كُلْ، اشرب، تاجر، انمُ! هيه.. أنتِ، أيتها المؤخّرات المجهولة ذات «الكلاسين»، إلى هنا، إلى «الجسر الجديد»، فهاهي الخيام تُنصب، وتُعلّق عليها الطنافس. من الذي يصأصئ هنا كالمزمار؟ إنّه المُنادي: لا تتأخّروا يا سادة، المسرحيّة ستبدأ الآن؛ فلا تفوّتوا الفرصة! ستجدون عندنا ما لن تجدوه في أيّ مكان آخر؛ فسوف تشاهدون دمى السيّد بريوشيه الرائعة. ها هي ذي تتهادى على الخشبة، معلّقة بخيوط. كما ستشاهدون القرد العبقريّ المُدرَّب فاغوتين.

كان يقيم في الخيام القائمة عند «الجسر الجديد» أطبّاء جوّالون ومقتلعو أسنان وجرّاحو بثور وأطباء دجّالون. وكانوا يبيعون للناس أدويةً

Twitter: @ketab_n

عامّة: أدوية لعلاج جميع الأمراض، ولكي تستلفت حوانيتهم الانتباه قاموا بابتكار طريقة مذهلة، حيث اتفقوا مع ممثّلي الشارع الجوّالين، وأحياناً مع ممثّلين مثبّتين في مسارح، وهؤلاء كانوا يقدّمون عروضاً كاملة يمدحون فيها أدوية الدجل ذات التأثير العجائبيّ.

كانت تجري مواكب احتفاليّة، إذ كان الممثّلون المبهرَجون، المرتدون ثياباً فاخرة، والمزدانون، بكثرة، بمجوهرات مستأجَرة مشكوك في أمرها، يهتفون بالإعلانات وينادون على الناس. وكان الأوّلاد يلحقون بهم أسراباً؛ فيُصفِّرون وينحشرون بين الأرجل، وبهذا كانت الجلبة تتصاعد.

اهدر أيّها «الجسر الجديد»؛ فإنّني أسمع كيف تُولَد في ضجيجك، من أبٍ دجّال وأمٍّ ممثّلة، الكوميديا الفرنسيّة، وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ، ووجهها الفظّ مذرورٌ بالطحين.

وهاهو رجلٌ غامض ورائع، اسمه كريستوف كونتوجي، يملأ باريس صخباً، حيث استأجر فرقةً كاملة، وصار يعرض المسرحيّات في خيمة مرفقاً إيّاها بعروض كره ـ كوز، وبوساطتها راح يتاجر بعصيدة كدواء لكلّ الأمراض، أسماها «أورفيتان»:

جُلْ في كافّة أرجاء المملكة

ولن تجد دواءً أفضل

أورفيتان.. أورفيتان

اشتروا الأورفيتان!

وكان المهرّجون المُقنّعون يُقسمون، بأصواتهم المبحوحة وسط

Twitter: @ketab_n

الضجيج، بأنّه ما من مرض في الدنيا يعجز الأورفيتان السحريّ عن شفائه؛ فهو يُشفي من السلّ الرئويّ، ومن الطاعون والجرَب!

يمرّ فارس ما بجوار الخيمة، وحصانه الأصيل ينظر حوله بعينَيه الحمراوين، والزبد يسيل من لجامه. كان هؤلاء المجهولون ذوو «الكلاسين»، بمسدّساتهم، يقطعون الشارع متشبّثين بالسروج. وفي الخيمة، عند كونتوجي، كانت الأصوات تنادي:

يا سيّدي الكابيتان

اشترِ الأورفيتان!

فيصرخ فيهم ضابط الحرس:

ـ فليأخذكم الطاعون! أفسحوا الطريق!

ـ اسمح لي بعلبة أورفيتان ـ يقول شخص مخدوع اسمه سغاناريل ـ كم ثمنها؟

فيردّ الدجّال:

ـ الأورفيتان لا يُقدَّر بثمن يا سيّدي! وإنّي أستحي أن آخذ منك مالاً يا سيّدي!

فيجيب سغاناريل:

ـ أوه يا سيّدي! أعلمُ أنّ ذهب باريس كلّه لا يكفي لدفع ثمن هذه العلبة لكنّي أخجل من أخذ شيء بالمجّان، لذا تفضّل، هاكَ ثلاثين قرشاً، وردّ لي الباقي من فضلك.

يخيّم على باريس مساء أزرق غامق، فيتمّ إشعال الأضواء. وفي الخيام يتمّ إشعال ثريّا كبيرة دخّانية صليبيّة الشكل، تذوب فيها الشموع،

Twitter: @ketab_n

والمشاعل تجعّد أذيال لهبها.

يهرع سغاناريل إلى منزله الواقع في شارع «سان ديني»؛ فيتشبّثون بذيل ثوبه بشدّة، ويدعونه لشراء ترياق مضادّ لجميع السموم في الدنيا.

اهدر أيها الجسر!

وها هما شخصان يخترقان حشد الناس: الجدّ الموقّر مع صديقه المراهق بياقته المثنيّة. لا أحد يعلم، والممثّلون الذين على خشبة المسرح لا يرتابون في الشخص الذي انحشر بين الحشد عند خيمة الدجّال، وكذلك جودلييه في «أوتيل بورغون» لا يعلم أنّه سيأتي يوم يُمثّل فيه في فرقة هذا الصبيّ. وبيير كورنيل لا يعلم أنّه، في خريف عمره، سيكون سعيداً عندما يقوم الصبيّ بتمثيل مسرحياته، وأنّه سيدفع له، هو الدراماتورغ الذي سيغدو فقيراً شيئاً فشيئاً، مالاً لقاء مسرحياته.

ـ هلاّ شاهدنا المسرحيّة الهزليّة التالية أيضاً؟ يسأل الحفيد برقّة ولطف؛ فيتردّد الجدّ: لقد تأخّر الوقت. إلا أنّه لا يتمالك نفسه:

ـ فليكن! لنذهب.

في الخيمة التالية كان أحد الممثّلين يقدّم عروض سحر مستخدماً قبّعة؛ فكان يدوّرها، ويطويها بطريقة غريبة، ويلوّح بها ثم يقذفها في الهواء. . .

وإذا بالأضواء تغمر الجسر، وفي المدينة كلّها كانت تطوف القناديل بأيدي السّابلة، والصراخ الحادّ لا يزال يصِلُ الآذان: أورفيتان!

من المحتمل جدّاً أن يتمّ تمثيل خاتمة إحدى كوميديّات موليير المستقبليّة، مساءً، في شارع سان ديني. فبينما كان سغاناريل هذا، أو غورجيبيوس، ذاهباً لشراء الأورفيتان الذي كان يأمل أن يشفي ابنته

Twitter: @ketab_n

لوسيند من حبّها لكليتاندر، أو كليونت، هربت لوسيند، بطبيعة الحال، مع كليتاندر هذا لتتزوّج!

هاج غورجيبيوس وماج؛ فقد خُدع! لُجم كطائر البكاشين! فراح يحشر الأورفيتان اللعين في فم الخادمة! وهو يهدِّد.

لكن الكمنجات المرحة ستظهر، وسيرقص الخادم شابمان، وسيتصالح سغاناريل مع ما حصل، وسيكتب موليير خاتمة مسائيّة سعيدة على ضوء القناديل.

اهدر أيّها الجسر!

Twitter: @ketab_n

الفصل ٣

هل نعطي الجدّ أورفيتان؟

في أحد المساءات عاد كريسّييه وحفيده إلى البيت مضطربَين، وغامضَين بعض الشيء كالعادة. كان الأب بوكلِن يرتاح على الكرسيّ بعد يوم عمل، وسأل إلى أين يأخذ الجدّ محبوبه؟ طبعاً؛ كانا في المسرح، في «أوتيل بورغون».

ـ ما بكما تتردّدان على المسرح كثيراً ـ سأل بوكلن ـ هل تنوي أن تجعل منه ممثّلاً؟

خلع الجدّ قبّعته، وأسند عصاه إلى الركن، صمت ثمّ قال:

ـ يا ليته يصبح ممثّلاً بمستوى بيلروز.

فتح المنجّد الملكيّ فمه. صمت، ثم سأل ما إن كان الجدّ جادّاً في كلامه؟ ولكن، بما أنّ كريسّييه ظلّ صامتاً فإنّ بوكلن صعّد الموضوع، لكن بنبرةٍ ساخرة.

إن كان من الممكن للمرء ـ حسب رأي لويس كريسّييه ـ أن يتمنّى أن يصبح على شاكلة الممثّل الكوميديّ بيلروز؛ فلِمَ عدم الذهاب أبعد؟ إذ يمكنه أن يحذو حذو أليزون الذي يُصعّر خدّه على الخشبة مقلّداً البائعات العجائز المضحكات لتسلية الأهالي، أو لِمَ لا يدهن وجهه

Twitter: @ketab_n

بنفاية بيضاء ما، ويعلّق شاربَين عجيبَين، كما يفعل جودلييه؟ وعموماً يمكن للمرء البدء بالتحامق بدلاً من العمل. لِمَ لا! فالأهالي يدفعون خمسة عشر قرشاً عن الشخص الواحد!

إنّه حقاً مستقبل مذهل للابن الأكبر للمنجّد الملكيّ الذي، والحمد لله، تعرفه باريس كلّها! كم سيفرح الجيران إذا ما ظهر باتيست الأصغر، السيّد بوكلن الذي يحمل لقب فرّاش الملك، على خشبات المسارح! وفي الورشة سينفجر المنجّدون بالضحك حتى تؤلمهم خواصرهم.

ـ اسمح لي. ـ قال كريسييه بلطف ـ هذا يعني، حسب رأيك، أنّ المسرح لا ينبغي له أن يوجد؟

لكن تبيّن أنّ بوكلن لا يقصد ذلك بكلامه؛ فلا بدّ من وجود المسرح، بل حتى فخامته ـ أطال الله عمره ـ يقرّ بذلك، وقد أنعم على الفرقة البورغونية بلقب الفرقة الملكيّة. هذا كلّه جيّد جدّاً، وهو ـ بوكلن نفسه ـ سيذهب إلى المسرح يوم الأحد بكلّ سرور، لكنّه أراد أن يقول ما يلي: «المسرح موجود لأجل جان باتيست بوكلن، وليس العكس بأيّ حال من الأحوال».

كان بوكلن يمضغ خبزاً محمّصاً، ويُلقمه بالنبيذ، ويوبّخ الجدّ.

كما يمكن الذهاب أبعد من ذلك؛ فإن تعذّر الانضمام إلى فرقة فخامته ـ إذ ليس كلّ شخص، يا سادة، هو بِلروز، الذي يُقال إنّ ثيابه وحدها تُقدَّر بعشرين ألف ليرة ـ فما المانع من الذهاب للتمثيل في المهرجان، حيث يمكن إطلاق النكات البذيئة، والقيام بتلميحات

Twitter: @ketab_n

مزدوجة المعنى؟ ما المانع، ما المانع؟!.. الشارع كلّه سيشير إليه بالأصابع مشنّعاً.

ـ أعتذر، أنا أمزح ـ قال بوكلن ـ لكن أنت أيضاً كنت تمزح بالطبع؟

لكن ليس معلوماً ما إن كان الجدّ يمزح، كما أنّ من غير المعلوم فيمَ كان يفكِّر جان باتيست الصغير أثناء مونولوجات الأب.

«أناس غريبو الأطوار آل كريسييه هؤلاء ـ فكّر منجّد البلاط، وهو يتقلّب في السرير في العتمة ـ من المُحرِج فحسب قول شيء كهذا أمام الصبيّ، وكان لا بدّ من الردّ على الجدّ بأنّ هذا مزاح غبيّ!».

النوم يجافيه. يرنو المنجّد والفرّاش الملكي إلى العتمة. آخ، جميع آل كريسييه هكذا! وزوجتي الأولى، الراحلة، كانت لها نزواتها؛ فهي أيضاً كانت تعشق المسرح، لكنّ هذا الشيطان العجوز له من العمر ستون سنة. بشرفي هذا مضحك! لا بدّ له من تناول الأورفيتان إذ إنّه سيعود طفلاً قريباً.

هَمّ.. حانوت.. أرق...

Twitter: @ketab_n

الفصل ٤

لا يروق لكلّ الناس أن يكونوا مُنجدّين

إنّني، رغم ذلك، أشفق على بوكلِن المسكين؛ فيا لها من مصيبة حقاً! فقد توفيت زوجته الثانية كذلك في تشرين الثاني عام ١٦٣٦.

يجلس الأب ثانيةً في العتمة ضجراً؛ فقد أصبح وحيداً تماماً الآن. عنده الآن ستّة أبناء، وعليه العناية بالحانوت ورعاية هذا السرب كلّه. إنّه وحيد، دائماً وحيد. أيتزوج للمرّة الثالثة..؟

وكأنّ من باب النّكاية، عندما توفّيت كاترين فلورت حدث شيء ما للابن البكر جان باتيست؛ فقد ذوى الصغير ذو الأربعة عشر عاماً، حيث إنّه واصل العمل في الحانوت: التذمّر ممنوع، وهو لم يتكاسل، لكنّه أصبح ـ سامحني يا ربّ ـ مثل الدمية التي عند «الجسر الجديد»! فقد هزل، وصار يجلس عند النافذة، ناظراً إلى الشارع رغم خلوّه؛ إذ ما من جديد، وما من شيء ممتع. وبات يتناول طعامه دون شهيّة على الإطلاق.

في النهاية، بات الكلام ملحّاً.

ـ أخبرني، ما بك؟ قال الأب، ثم أضاف بصوتٍ خافت: هل أنت مريض؟

Twitter: @ketab_n

ثبّت باتيست نظره على الحافّتَين العريضتَين لخفّيه بعناد، وظلّ صامتاً.

ـ أشعر بالحسرة عليكم ـ قال الأرمل المسكين ـ ماذا أفعل بكم يا أولاد؟ لا تتعبني. . أخبرني.

وهنا حوّل باتيست عينَيه إلى أبيه ثمّ إلى النافذة، وقال:

ـ لا أريد أن أصبح منجداً.

ثم فكّر، وأضاف بوضوح، عازماً على حلّ هذه العقدة فوراً:

ـ إنّني أشعر بنفورٍ شديد. ثمّ فكّر ثانيةً، وأضاف:

ـ أنا أكره الحانوت.

ولكي يُجهز على والده نهائيّاً، أضاف:

ـ بكلّ جوارحي.

وبعد ذلك، صمت.

في هذه الأثناء أصبحت سحنته بليدة. وفي الحقيقة، لم يكن يعرف ما الذي سيلي ذلك. ربّما يتلقّى صفعة من أبيه طبعاً، لكنّه لم يتلقّ الصفعة.

مرّت فترة صمت طويلة. ما الذي قد يساعد في هذا الأمر المعقّد؟ صفعة؟ كلا، فلا فائدة من الصفع هنا. ماذا أقول لابني؟ أأقول إنّه أحمق؟ هاهو يقف مثل «اللوح» وسيماء الغباء على وجهه في هذه اللحظة، لكنّ عينَيه تبدوان ذكيتَين ولامعتَين مثل عينَيّ ماري كريسييه.

لا يعجبه الحانوت؟ ربّما هذا ما يتراءى له فحسب؟ ما زال حدثاً، وفي سنّه لا ينبغي مناقشة ما يعجبه وما لا يعجبه، فربّما يكون ـ ببساطة ـ قد تعب

Twitter: @ketab_n

بعض الشيء؟ لكنّه، هو الأب، قد تعب أكثر، وهو لا يتلقّى أيّ مساعدة، وقد شاب شعره من الهموم.

ـ فما الذي تريده إذاً؟ سأل الأب.

ـ أن أدرس. أجاب باتيست.

وفي هذه اللحظة قرع أحدهم الباب بعصاه برفق، ودخل لويس كريسبيه إلى العتمة.

ـ أرجو أن ترى ـ قال الأب مشيراً إلى الياقة المثنية ـ إنّه لا يرغب في مساعدتي في الحانوت، وإنّما ينوي الدراسة.

تحدّث الجدّ باقتضاب ورقّة، وقال إنّ كل شيء ستتم تسويته بالحسنى؛ فإذا كان الفتى يشعر بالملل فلا بدّ من اتّخاذ إجراءات طبعاً.

ـ أيّ إجراءات؟ سأل الأب.

ـ في الواقع، السماح له بالدراسة. قال الجدّ بوضوح.

ـ لكن اسمح لي، فقد درس في مدرسة الأبرشية!

ـ وما مدرسة الأبرشية؟! قال الجدّ. ـ الصبيّ يتمتّع بمواهب هائلة...

ـ اخرج من الغرفة يا جان باتيست؛ فإنّي أريد التحدّث إلى جدّك.

خرج جان باتيست، وجرى حديث جادّ بين كريسبيه وبوكلن.

لن أنقله إليكم، بل فقط سأهتف: طيّب الله ثراك يا لويس كريسبيه.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٥

لأجل المجد الإلهيّ العظيم

بالفعل، لم تكن مدرسة «كليرمون» الباريسيّة الشهيرة، ثانويّة لويس العظيم الحكوميّة، تشبه مدرسة الأبرشية على الإطلاق.

كانت المدرسة تُدار من قبل أعضاء «أخويّة يسوع» القويّة، ولا بدّ من القول إنّ الآباء الجزويت كانوا يديرون شؤونها بصورة رائعة - لأجل المجد الإلهيّ العظيم - كأيّ شيء آخر يقومون به.

في المدرسة، التي كان يديرها الأب جاك دينيه، كان يدرس قرابة ألفي ولد وفتى من أبناء النبلاء والبرجوازيّين. وكان ثلاثمائة منهم تلاميذَ مقيمين، بينما البقية كانوا انتقاليّين - كانت «أخويّة يسوع» تدرّس نخبة فرنسا.

كان الآباء الأساتذة يقرأون للكليرمونيين كتباً في التاريخ والأدب القديم والحقوق والكيمياء والفيزياء واللاهوت والفلسفة، كما كانوا يعلّمونهم اللغة اليونانيّة. وما من داعٍ لذكر اللغة اللاتينيّة؛ فلم يكن طلاب ثانويّة كليرمون يقرأون المؤلِّفينَ اللاتين ويدرسونهم فحسب، بل كانوا مُلزَمين بالتحدّث باللغة اللاتينيّة في ساعات الاستراحة بين الدروس. وإنّكم تدركون بأنفسكم أنّ من الممكن للمرء - في ظلّ هذه الظروف - إتقان هذه اللغة الأساسيّة للبشريّة.

Twitter: @ketab_n

كما كانت هناك ساعات خاصة لدروس الرقص، وفي ساعاتٍ أخرى كان يُسمع صليل السيوف، حيث كان الفتيان الفرنسيّون يتعلّمون استخدام السلاح للدفاع عن شرف ملك فرنسا في ميادين القتال في المعارك الجماعيّة، وعن الشرف الشخصيّ في المعارك الفرديّة. وفي الاحتفالات، كان التلاميذ الكليرمونيون المقيمون يمثّلون مسرحيّات المؤلّفين الرومان القدماء، وبصورة خاصّة بوبليوس وتيرينس وسينيكا.

هاكم إلى أيّ مؤسَّسة تعليميّة أدخل لويس كريسّييه حفيده، ولم يكن في مقدور بوكلن الأب أن يشكو مطلقاً من أنّ ابنه، الفرّاش الملكيّ، قد انوجد في مجتمع سيّء؛ ففي قائمة أسماء الطلاب الكليرمونيين كانت هناك مجموعة كبيرة من الأسماء المشهورة، إذ إنّ أفضل عائلات النبلاء كانت ترسل أبناءها إلى ثانويّة «كليرمون» الحكوميّة. ففي الوقت الذي كان فيه بوكلن ـ كطالب غير مقيم ـ يدرس في صفّ العلوم، كان يدرس في مدرسة «كليرمون» ثلاثة أمراء، وأحدهم لم يكن سوى أرمان دي بوربون، الأمير دي كونتي، الأخ الشقيق للبوربوني الآخر لويس دي كوندييه، دوق دي إنغيين، الذي لُقِّب فيما بعد بالعظيم. وهو كوندييه نفسه الذي قاد الجيوش الفرنسيّة وهو في الثانية والعشرين من عمره، حيث هزم الإسبان شرّ هزيمة، مطوّباً نفسه قائداً حربيّاً من الدرجة الأولى، وقد رُشِّح فيما بعد لتسلّم العرش البولوني. بمعنى آخر، لقد درس بوكلن مع شخصيّة ذات دمٍ ملكيّ، ومن هذا وحده يمكن رؤية أنّ التعليم في مدرسة كليرمون كان منظّماً بصورة جيّدة.

ينبغي ملاحظة أنّ الفتيان ذوي الدمّ الأزرق كانوا معزولين عن أبناء البرجوازيّين الأغنياء الذين كان جان باتيست في عدادهم. كان الأمراء

Twitter: @ketab_n

والمراكزة[1] يسكنون المدرسة الحكوميّة (ليسييه)، وكانوا يتمتّعون بخدماتٍ خاصّة وأساتذة خاصّين وساعات دراسة مستقلّة، وكذلك بقاعات مستقلّة.

وعدا عن ذلك لا بدّ من القول إنّ الأمير كونديه ـ الذي سيلعب دوراً بارزاً فيما بعد في مغامرات بطلنا المضطرم ـ كان يصغره بسبع سنين، وقد دخل المدرسة صغيراً جدّاً، ولم يحتكّ ببطلنا قطّ بطبيعة الحال.

وهكذا، انهمك بطلنا بدراسة أفلاطون وتيرينس ولوكريشيو، وقد أرخى شعره حتى الكتفين ـ حسب القوانين ـ وأبلى بنطاله الواسع على مقعد الدراسة، متخماً رأسه باللغة اللاتينيّة؛ فصار يرى اللاتينيّة في أحلامه، وبدأ يفكّر باللاتينيّة، وبدا له أحياناً أنّه لم يعد جان باتيست وإنّما جيغانُس بابتيسوس. لقد تلبّد الحانوت بالضباب، واستقبل بطلَنا عالمٌ مختلف.

ـ واضح أنّ هذا قدره. ـ غمغم بوكلن الأب ناعساً ـ وماذا إذاً، سوف أسلّم العمل لابني الثاني. أمّا هذا؛ فقد يصبح محامياً أو كاتب عقود أو أيّ شيءٍ آخر.

من المثير للاهتمام معرفة ما إن كان الولع بالمسرح قد خمد لدى تلميذ المدرسة الدينية باتيست؟ هيهات، على الإطلاق، فقد كان ـ مُفلِتاً من قبضة اللغة اللاتينيّة في ساعات الفراغ ـ يذهب إلى المسرح عند «الجسر الجديد» كسابق عهده، ولكن، ليس برفقة جدّه، وإنّما مع ثلّة

(١) جمع «مَركيز»، على وزن مطارنة وكرادلة وبطارقة.

Twitter: @ketab_n

من أصدقائه الكليرمونيين؛ حيث تعرّف باتيست، أثناء سنوات دراسته، بعمق، إلى «ريبرتوار» مسرح «المستنقع» و«أوتيل بورغون» أيضاً، حيث شاهد مسرحيّات بيير كورنيل «الأرملة» و«الساحة الملكيّة» و«رواق القصر»، ومسرحيّته الشهيرة «سِيد» التي حققت للمؤلّف مجداً صارخاً، وجلبت عليه حسد زملاء القلم.

لكنّ هذا ليس كلّ شيء؛ فهناك اعتقاد بأنّ جان باتيست، في الفترة الأخيرة من دراسته في الثانويّة، تعلّم التسلّل ليس إلى صالة المسرح ومقصوراته فحسب بل كذلك إلى خلف الكواليس حيث إنّه هناك، على ما يبدو، أقام أهمّ تعارف في حياته، فقد تعرّف إلى امرأة.

كان اسمها مادلين بيجار، وهي ممثّلة، وقد عملت لبعض الوقت في مسرح عند «المستنقع». كانت مادلين ذات شعر أحمر، جذّابة الحديث، وتتمتع بموهبة حقيقيّة كبيرة باعتراف الجميع.

مادلين، الملتهبة حبّاً بالدراماتورغ روترو، كانت ذكيّة، وتتمتّع بذوقٍ رفيع، ناهيكم عن أنّها كانت ملمّة بالأدب وتكتب الشعر، وهو ما يُعدّ أمراً نادراً بالطبع.

لذا لم يكن من المستغرب أن تلقى مادلين حظوة كبيرة لدى الرجال. وتبيّن أنّ مادلين بيجار، الفتاة ذات العشرين عاماً بحسب الوثائق، قد أنجبت ابنة، في تموز ١٦٣٨، أسمتها فرانسواز. ومعروف بدقّة من كان والد فرانسواز: إنّه الرجل المشهور بمغامراته الغراميّة، الفارس المتزوّج إسبري رايمون دي مورموارون، كونت دي مودين، حاجب الأمير غاستون، الأخ الوحيد للملك لويس الثالث عشر.

ولم تكن الممثّلة بيجار لا تخفي علاقتها مع دي مودين فحسب

Twitter: @ketab_n

بل، على العكس، كانت تعلنها على الملأ، ويمكن إدراك ذلك من خلال تعميد فرانسواز؛ حيث كانت والدة مادلين بيجار هي عرّابة فرانسواز، وكان العرّاب ابن الكونت دي مودين الصغير السنّ.

ينبغي للقارئ أن يتذكّر جيّداً قرينة أنّ مادلين بيجار كانت على علاقة مع دي مودين، وكذلك حقيقة ولادة ابنتها فرانسواز.

إذاً؛ فقد كان جان باتيست يتسلّل إلى كواليس المسارح، ولا توجد أيّ غرابة في أنّ الممثّلة الباريسيّة الفاتنة، الناريّة الشعر، قد أسرت الكليرموني، الذي كان يصغرها بأربعة أعوام، كلّيّاً. والمُثير للاهتمام هو أنّ مادلين كانت تبادل جان باتيست المشاعر.

وهكذا؛ فقد استمرّت الدراسة في المدرسة خمسة أعوام، واختُتمت وتُوّجت ـ كما يُقال ـ بالفلسفة. وقد درس جان باتيست خلال هذه السنوات الخمس بتفانٍ، مختطفاً بعض الوقت لارتياد المسرح.

هل أصبح بطلي شخصاً متعلّماً في هذه المدرسة؟ أعتقد أنّ من المستحيل على الإنسان أن يغدو شخصاً متعلّماً في أيّ مؤسّسة تعليميّة كانت، لكن في مؤسّسة تعليميّة مُنظّمة بشكل جيّد يمكن للمرء أن يغدو منضبطاً، وأن يكتسب الخبرة التي تنفعه في المستقبل، وذلك عندما يبدأ بتعليم نفسه بنفسه خارج جدران المؤسّسة التعليميّة.

أجل! لقد جعلوا من جان باتيست في مدرسة «كليرمون» شخصاً منضبطاً، وعلّموه احترام العلوم، وأرشدوه إلى مسالكها؛ فعندما أنهى الثانويّة ـ وقد أنهاها عام ١٦٣٩ ـ لم يكن في رأسه سوى خليط من مواد مدرسة الأبرشية، إذ كان عقله مربوطاً إلى جزمة إسبانيّة، كما يقول مفيستوفيليس.

Twitter: @ketab_n

أثناء دراسته في المدرسة، صادق بوكلن شخصاً اسمه شابيل، وهو ابن غير شرعيّ للموظَّف المصرفيّ المهمّ، والرجل الثريّ لويليه، وصار يرتاد منزله.

في السنة التي أنهى فيها كليرمونينا الدراسة، ظهر في بيت لويليه، وانتقل إليه كضيف عزيز، إنسان رائع اسمه بيير غاسّيندي.

كان البروفسور غاسيندي، البروفنسالي الأصل، شخصاً مثقّفاً بحقّ؛ إذ كانت معارفه تكفي عشرة أشخاص، فقد كان مدرّساً للبلاغة ومؤرّخاً رائعاً وعارفاً بالفلسفة وفيزيائياً ورياضيّاً. وكان واسع المعرفة إلى درجة أنّه عُرض عليه أن يرأس قسم الرياضيات في الكليّة الملكيّة، على سبيل المثال. لكن ـ نعيد القول ـ سعة اطلاع بيير غاسيندي لم تكن وقفاً على الرياضيات فقط.

بدأ هذا الإنسان الحادّ الذكاء، المنشغل العقل، دراساته بدراسة الفيلسوف الأشهر في الأزمنة القديمة، المشّاء أرسطو، وقد درسه بعمق إلى درجة أنّه كرهه أشدّ الكره. وبعد ذلك، عندما تعرّف إلى الهرطقة العظيمة للبولوني نيكولاس كوبرنيكوس الذي أعلن للعالم أجمع أنّ القدماء كانوا مخطئين عندما اعتقدوا أنّ الأرض ثابتة، وأنّها مركز الكون، أحبّ غاسيندي كوبرنيكوس بكلّ جوارحه.

كما افتتن غاسيندي بالمفكّر العظيم جوردانو برونو الذي أُحرِق عام ١٦٠٠ لأنّه أكّد أنّ الكون غير متناهٍ، وأنّه يحتوي على عوالم كثيرة.

ووقف غاسيندي، من كلّ قلبه، إلى جانب الفيزيائيّ العبقريّ غاليليه الذي أُرغم، واضعاً يده على الإنجيل، على التبرّؤ من اعتقاده بأنّ الأرض متحرّكة.

Twitter: @ketab_n

كل الذين وجدوا في أنفسهم الشجاعة على مهاجمة تعاليم أرسطو، أو الفلاسفة السكولاستيين اللاحقين، وجدوا في غاسيندي شريكاً شديد الإخلاص؛ فقد تعرّف، بطريقة بالغة الروعة، إلى تعاليم الفرنسيّ بيير دي لا راميه الذي هاجم أرسطو وقُتل في ليلة القديس بارثولومي. وكان يفهم جيّداً الإسبانيّ خوان لويس فيفيس الذي سحق الفلسفة السكولاستية، والإنكليزيّ فرنسيس بيكون، بارون فيرولام، الذي عارض أرسطو في مؤلّفه «الانبعاث العظيم».

ليس بالإمكان إحصاء الجميع!

كان البروفسور غاسيندي مُجدِّداً بطبيعته، وكان يجلّ وضوح الفكر وبساطته، ويؤمن بالخبرة، ويحترم التجربة بلا حدود.

وقد أقام فوق هذا كلّه الأساس الغرانيتي لتعليمه الفلسفيّ، إذ إنّ غاسيندي قد حصّل هذا التعليم من ذلك الزمن السحيق نفسه، من الفيلسوف أبيقور الذي عاش قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة عام تقريباً.

ولو سُئل الفيلسوف أبيقور:

- ما هي صيغة تعاليمك؟ فيجب الافتراض أنّ الفيلسوف كان سيجيب:

- إلامَ يصبو كلّ كائن حيّ؟ إنّ أيّ كائن حيّ يصبو إلى اللذّة. ولماذا؟ لأنّ اللذّة هي الخير الأسمى. عيشوا بحكمة إذن: اطمحوا إلى اللذّة.

لقد وقعت صيغة أبيقور في نفس بيير غاسيندي موقع القبول إلى حدٍّ كبير، وبمرور الوقت أنشأ صيغته الخاصّة؛ فقد كان غاسّيندي يقول لتلامذته، وهو ينتف لحية العالِم المدبّبة:

Twitter: @ketab_n

ـ البشر مفطورون، بطبيعة الحال، على حبّ الذات. وغاية حياة كلّ إنسان هي السعادة! فما هي العناصر التي تتشكّل منها السعادة؟ ـ كان الفيلسوف يتساءل وعيناه تلمعان ـ تتشكّل السعادة من عنصرَين فقط يا سادة، فقط من عنصرين: نفس مُطْمَئِنَّة وجسد سليم. سيخبركم أيّ طبيب جيّد عن كيفيّة الحفاظ على الصحّة، أمّا عن كيفيّة بلوغ طمأنينة النفس فسأخبركم أنا: لا تُجرموا يا أبنائي، ولن تشعروا بالندم أو الأسف؛ إذ هما فقط يجعلان البشر أشقياء.

بدأ الأبيقوري غاسيندي مسيرته العلميّة بإصدار مؤلَّف ضخم برهن فيه اللاجدوى الكليّة لعلم الفلك الأرسطيّ وفيزيائه، ودافع عن نظرية كوبرنيكوس الذي حدّثتكم عنه. غير أنّ هذا المؤلّف البالغ الأهميّة ظلّ غير مكتمل، ولو سُئِل البروفسور عن سبب ذلك فإنّي أعتقد بشدّة أنّه كان سيردّ كما ردّ كريزال، بطل إحدى كوميديّات موليير اللاحقة، على امرأة مفرطة التعليم، هي فيلامينتييه:

ماذا؟ أجسادنا نفاية؟

إنّك شديدة القسوة.

كلا؛ فهذه النفاية: حليلتي

عزيزة عندي بلا نهاية!

كان غاسيندي ليقول:

ـ لا أريد دخول السجن، يا سادتي الكرام، بسبب أرسطو.

وفي الواقع عندما تدخل هذه النفاية ـ أجسادكم ـ السجن، كيف ستصبح حال روحكم الفلسفيّة هناك يا تُرى؟

Twitter: @ketab_n

جملة القول، توقّف غاسيندي في الوقت المناسب، دون أن يكمل مؤلَّفه عن أرسطو، وانشغل بأعمال أخرى؛ فهذا الأبيقوري كان يحبّ الحياة كثيراً، وكان قرار برلمان باريس لا يزال طازجاً تماماً. ويكمن الأمر في أنّ أرسطو، بالنسبة إلى كافّة الأقسام العلميّة، كان مقونناً ـ إن صحّ التعبير ـ حينذاك؛ حيث ورد في قرار البرلمان، بصريح العبارة، أنّ كل من سيجرؤ على مهاجمة أرسطو وتابعيه سيُعدم.

وهكذا؛ مجنّباً نفسه مشكلاتٍ هائلة، ومترحّلاً عبر بلجيكا وهولندة، وبعد أن كتب جملة من الأعمال القيّمة، ظهر غاسيندي ـ كما سبق أن قلت ـ في باريس، عند صديقه القديم لويليه.

كان لويليه شخصاً ذكيّاً؛ فتوجّه إلى البروفسور برجاء أن يعطي دروساً خصوصيّة في العلوم لابنه شابيل. وحيث إنّ لويليه لم يكن ذكيّاً فقط بل وذو صدرٍ رحب كذلك فقد سمح لشابيل بتشكيل مجموعة من الشباب الذين راحوا يستمعون معه إلى غاسيندي.

وقد ضمّت المجموعة: شابيل، وجان باتيستنا، وفيما بعد شخصاً اسمه بيرنييه، وهو شاب شديد الميل نحو العلوم الطبيعيّة، وأصبح لاحقاً رحّالة شهيراً عبر الشرق ولُقّب في باريس بالمغوليّ العظيم «إينو»، وأخيراً شخصاً شاذّاً جدّاً عن هذه المجموعة، وهذا الأخير كان أكبر سنّاً من الآخرين، كما أنّه لم يكن كليرمونياً بل ضابط حرس، أُصيب بجرح في الحرب منذ عهدٍ قريب، وكان سكّيراً ومبارِزاً وصاحب نكتة ودونجواناً ودراماتورغاً مبتدئاً لا بأس به. بل إنّه، حتى عندما كان يدرس في صفّ البلاغة في كليّة «بوفيه»، ألّف مسرحيّة هامّة عنوانها «المتحذلق المخدوع» التي صوّر فيها مديره جان غرانجيه. كان هذا الشاب يُدعى سيرانو دي بيرجيراك.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، كانت هذه المجموعة كلّها ترتشف خُطب بيير غاسيندي النارية، مسترخية في مخادع لويليه الفاخرة.

هاكم من الذي صقل بطلي: إنّه هذا البروفنسالي الذي خدّدت الأهوال وجهه! حيث ورث عنه جان باتيست فلسفة أبيقور البهيجة، والكثير من المعارف العميقة في العلوم الطبيعيّة. وعلى ضوء الشموع الخلاّب، غرس فيه غاسيندي حبَّ المناقشة الواضحة والدقيقة، وكُرْهَ «السكولاستيك»، واحترام الخبرة، واحتقار الرّياء والتفاصح.

ثمّ حانت اللحظة التي انتهت فيها محاضرات غاسيندي؛ فقد أصبح بطلي راشداً.

قال بوكلن الأب لخرّيج «كليرمون»:

- اِعمل على التوجّه إلى أورليان، واجتز امتحان كليّة الحقوق، واحصل على الشهادة. لا ترسب من فضلك؛ فقد أنفقت عليك الكثير من المال.

وسافر جان باتيست إلى أورليان للحصول على دبلوم الحقوق.

لست أدري بدقّة ما إذا كان قد قضى الكثير من الوقت في أورليان، ومتى بالتحديد. يبدو أنّ هذا قد حدث مطلع عام ١٦٤١.

أحد الحقودين الكثر ممّن يكرهون بطلي، والذي أصبحت كراهيته له بلا حدود فيما بعد، أكّد، منذ زمن طويل، أنّ في مقدور أيّ حمار الحصول على شهادة في أورليان إذا كان يملك المال. لكنَّ هذا غير صحيح؛ فالحمار لن ينال الشهادة، ناهيكم عن أنّ بطلي لم يكن يشبه الحمار على الإطلاق. صحيح أنّ بعض الشباب المرحين، بعد سفرهم إلى أورليان لتقديم الامتحانات، قالوا إنّهم وصلوا الجامعة مساءً،

Twitter: @ketab_n

فأيقظوا الأساتذة، وأولئك راحوا يرتدون طراطيرهم العلميّة فوق قلنسوات النوم الملطّخة بالزيت وهم يتثاءبون، وعلى الفور امتحنوهم ومنحوهم الشهادات. بالمناسبة، ربّما كان هؤلاء الشباب يكذبون.

* * *

أيّاً كان الوضع في أورليان؛ فمن المؤكّد أنّ جان باتيست قد حصل على إجازة في الحقوق.

وهكذا لم يعد للصبيّ ذي الياقة وجود، ولا للسكولاستي بشعره الطويل؛ فأمامي، على ضوء الشموع يقف رجلٌ في ريعان شبابه، وعلى رأسه «باروكة» ذات جدائل، على رأسه شعر مستعار أشقر.

أُمعن النظر إلى هذا الإنسان بلهفة: إنّه متوسّط الطول، مقوّس الظهر، غائر الصدر. في وجهه الأسمر النحيل توضّعت عينان متباعدتان وحنكٌ حادّ وأنفٌ واسع أفطس. باختصار، كان دميماً إلى أبعد حدّ، إلا أنّ عينَيه تلفتان الانتباه. إنّي أقرأ فيهما سخريةً غريبةً لاذعةً ودائمة، وفي الوقت نفسه دهشةً أبديّةً ما تجاه الوسط المحيط؛ ففي هاتَين العينَين هناك شيء شهوانيّ ما، كأنّما أنثويّ، وفي قعرهما علّة مكنونة. هناك «سوسة» تقبع داخل هذا الشخص العشرينيّ، وهي تنخره الآن.

هذا الشخص يُثأثئ، ويتنفّس بصورة غير سليمة، أثناء كلامه.

وأرى أنّه حادّ الطبع، وتحدث له تقلّبات حادّة في المزاج؛ فهذا الشاب ينتقل بسهولة من لحظات المرح إلى لحظات تأمّل عميق. إنّه يعثر على الجوانب المضحكة في الناس، ويحب «التنكيت» بهذا الصدد.

Twitter: @ketab_n

أحياناً يستغرق في الصراحة دونما حذر، وفي لحظات أخرى يحاول أن يكون غامضاً فيراوغ، وأحياناً يكون جريئاً بتهوّر لكنّه قابلٌ للوقوع في التردّد والجبن في اللحظة نفسها. آه.. صدّقوني، ستكون حياته صعبة في ظلّ هذه الشروط، وسيخلق لنفسه الكثير من الأعداء.

لكن فليعش! وإنّي أسدل الستار على مدرسة «كليرمون»، وعلى المحاضرات، وعلى أرسطو وغيره من العارفين.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٦

أحداث ضعيفة الاحتمال

الفترة التي نتحدّث عنها كانت فترة مضطربة بالنسبة إلى فرنسا، وفقط في مدرسة «كليرمون»، أو في حانوت الأب، كانت الحياة تبدو هادئة؛ إذ كانت تعصف بفرنسا الحروب الخارجيّة والحروب الإقطاعيّة الداخليّة التي استمرّت سنوات كثيرة.

في مطلع عام ١٦٤٢، توجّه الملك لويس الثالث عشر، يرافقه حاكم فرنسا الفعليّ، المُطلق السلطة، الكاردينال والدوق أرمان ريشيليو، إلى الجنوب لاستعادة إقليم «روسيلون» من الإسبان.

كان المنجّدون الملكيّون (وكانوا عدّة أشخاص) يتعاقبون على خدمة الملك، حيث كانت شهور الربيع (نيسان وأيّار وحزيران) من نصيب بوكلن الأب، وبما أنّ أعمالاً تجاريّة أعاقته في باريس عام ١٦٤٢؛ فقد أرسل ابنه الأكبر نيابةً عنه للعمل في شقّة الملك. ممّا لا شكّ فيه أنّ بوكلن خطر له أن يجعل جان باتيست يعتاد حياة البلاط.

انصاع الابن لأمر أبيه، وتوجّه إلى جنوب البلاد في بداية الربيع. لكن سرعان ما استولت كآبة غامضة على بطلي، ولا يعلم أحد، بدقّة،

Twitter: @ketab_n

ما الذي جرى له في الجنوب، إلا أنّه سرت شائعة بأنّ جان باتيست قد شارك في مغامرة غير عادية.

الكاردينال ريشيليو، الذي كان يتحكّم كليّاً بالملك لويس الثالث عشر الضعيف الإرادة والقليل الموهبة، كان مكروهاً من قِبل كثيرين من ممثّلي الأرستقراطية الفرنسيّة.

في عام ١٦٤٢ تمّ تدبير مؤامرّة ضدّ الكاردينال ريشيليو، وكان في قلب هذه المؤامرة المركيز الشاب سانك مارس. لكنّ السياسيّ العبقريّ والمخضرم ريشيليو علم بالمؤامرة، وعلى الرغم من أنّ الملك كان حامي سانك مارس إلا أنّه تقرّر اعتقاله بتهمة الخيانة العظمى (له ارتباطات مع إسبانيا).

يُقال إنّ شابّاً مجهولاً دنا من سانك مارس في إحدى مدن الجنوب، في ليلة ١٢/ ١٣ تموز، ووضع ملحوظة في يد الفارس؛ فابتعد سانك مارس عن بقيّة أفراد الحاشية، وعلى الضوء المترجرِج للمشعل قرأ الرسالة القصيرة، ثمّ انطلق ناجياً بنفسه. كان في الورقة الكلمات التالية: «حياتك في خطر!»، وكانت مغفلة التوقيع.

يُقال إنّ فرّاش البلاط الشابّ بوكلن، راجياً بشهامة إنقاذ سانك مارس من موتٍ محقّق، هو الذي كتب تلك الملاحظة، وأعطاه إيّاها.

لكنّ الملاحظة أجّلت فحسب مقتل سانك مارس الذي بحث دون جدوى عن ملاذ، وعبثاً اختبأ في فراش عشيقته، السيّدة دي سيوزاك، إذ اعتُقل في اليوم التالي مباشرةً، وعلى عجلٍ تمّ إعدام الفارس المسكين. بعد مائة وأربعة وثمانين عاماً خلّد الكاتب الروائيّ ألفرد دي

Twitter: @ketab_n

فيني ذكراه، وبعد دي فيني بإحدى وخمسين سنة خلّده، في أوبرا، الموسيقار غونو، مؤلّف «فاوست» المشهور.

لكنّ بعضهم يؤكّد أنّ حادثة الملحوظة لم تحدث قط، وأنْ لا علاقة لجان باتيست بقضية سانك مارس، وأنّه مارس عمل الفرّاش الملكيّ بهدوء وإتقان دون أن يتدخّل في ما لا ينبغي له. لكن حينها من غير المفهوم بعض الشيء من الذي اختلق قصّة الملحوظة هذه، ولماذا؟

في نهاية تموز، كان الملك على مبعدة بضع «ليوات»(١) عن نيم، في مونفرينيه، وهنا جرت الحادثة الثانية التي ـ كما سترى أيّها القارئ ـ ستلعب دوراً أكبر بكثير، في حياة بطلنا، من حادثة سانك مارس المسكين؛ ففي مونفرينيه بالتحديد، في منطقة المياه المعدنيّة، التقى الفرّاش الملكي، الذي أنهى، أو كاد ينهي، مدّة خدمته هذا العام، وبعد فراقٍ قصير، برفيقته مادلين بيجار، حيث كانت الممثّلة تترحّل وهي ممثّلةً مع فرقة جوّالة. من غير المعلوم بدقّة متى انفصل الفرّاش عن الحاشية الملكيّة، لكن يمكن قول شيء واحد، وهو أنّه لم يعد لفوره، أي في تموز ١٦٤٢، إلى باريس، بل تجوّل بعض الوقت في الجنوب، وعلى مقربة مريبة من السيّدة بيجار، حسبما أكّد أناس من أولئك الذين ينشغلون بشؤون الآخرين.

عموماً، ذلك الصيف مغطّى بخِمارٍ بالغ السُّمك، ولن نحاول رفعه لبعض الوقت. بطريقة أو بأخرى، عاد بوكلن إلى العاصمة في ربيع عام ١٦٤٢، وأخبر والده أنّه قد أنجز مهمّته.

---

(١) ليو: وحدة فرنسية قديمة لقياس المسافة، تساوي ٤,٥ كيلومتر تقريباً.

Twitter: @ketab_n

سأله والده ما إن كان ينوي أن يغدو وريثه لاحقاً؟ فأجاب جان باتيست بأنّه ينوي أن يكمل دراسة القانون. وبقدر ما هو معلوم لي هنا، استقلّ عن والده، وفي المدينة راج الحديث عن أنّ الابن الأكبر لبوكلن لم يصبح محامياً، وأنّه لا يرغب في ذلك.

كان أيّ شخص سيشعر بدهشةٍ هائلة لو خطر له أن ينظر إلى كيفيّة تدرّب بوكلن الشاب على ممارسة المحاماة؛ فلم يسمع أحد أنّ دجّالي «الجسر الجديد» كانوا يدرّبون المحامين! فقد كان جان باتيست يترك كتب القانون في شقته، ويذهب إلى إحدى فرق الدَّجَل، خفيةً عن أبيه، يطلب لنفسه أيّ دورٍ فيها. وقيل إنّه نجح في الانضمام إليها بصفة منادٍ يدعو الناس إلى العرض الهزليّ في الخيمة.

هاكم أيّ دراسة للقانون كانت تجري.

فيما بعد، كان أعداء جان باتيست، وكانوا من الكثرة بمكان، يضحكون بخبث قائلين إنّ بطلي، مثل ممثّلٍ هزليٍّ مشرّدٍ قذر، كان يصعّر خدّه في الحيّ التجاريّ، في الشارع. وزعموا أنّه كان حتى يبتلع الأفاعي لتسلية العامّة.

لا يمكنني القول بدقّة ما إن كان قد ابتلع أفاعٍ أم لا لكنّني أعلم أنّه، في ذلك الوقت، أصبح يقرأ التراجيّديا بنهم، وبدأ يمثّل في مسرحيّات الهواة قليلاً.

إنّ قراءة كورنيل، الذي كان يستولي على دماغ بطلي في الليالي، والمشاعر التي لا تُنسى أثناء التمثيل في الشارع، والرائحة الخانقة للقناع الذي إذا وضعه أحد مرّة واحدة فلن يخلعه أبداً، كلّ ذلك

Twitter: @ketab_n

سمّم، أخيراً، المحامي الفاشل. وفي أحد الصباحات، وبعد أن أُسدل الستار على «سِيْد» قرَّر أنّ وقته قد حان لكي يُذهل العالم. وقد أذهل العالم حقّاً، وكان بوكلن الأب، الكثير الآلام، الضحيّة الأولى لهذا الإذهال.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٧

العُصبة المتألقّة

في الأيّام الأولى من كانون الثاني عام ١٦٤٣، جاء جان باتيست الابن، المشحون بأحداث العام الماضي، إلى أبيه، وأخبره أنّ جميع هذه المشاريع المتعلّقة بتعيينه في نقابة المحاميين إنّما هي، ببساطة، مجرّد هراء، وأنّه لن يصبح كاتب عقود أبداً، كما أنّه غير عازم على أن يغدو عالِماً، وأكثر من أيّ شيء آخر لا رغبة لديه في أن تكون له علاقة بحانوت التنجيّد؛ فهو سيذهب إلى حيث يجذبه نداء الطفولة: إلى التمثيل.

تأبى ريشتي التعبير عمّا جرى في البيت.

عندما ثاب الأب إلى رشده حاول، رغم ذلك، ثني ابنه عمّا عزم عليه، وقال له كلّ ما يسمح له الواجب الأبويّ بقوله؛ قال إنّ مهنة الممثّل مُحتقَرة من قبل المجتمع، وإنّ الكنيسة المقدّسة تطرد كافّة الممثّلين من أحضانها؛ وإنّ المُعدَم أو المتشرّد فقط يمكنه القيام بأمر كهذا.

هدّد الأب.. توسّل الأب!

ـ اذهب أرجوك.. اذهب وفكّر، وبعد ذلك تعال إليّ.

Twitter: @ketab_n

لكنّ الابن، كما لو أنّ شيطاناً استقرّ فيه، رفض التفكير في أيّ شيء رفضاً قاطعاً، وعندها هرع الأب إلى القسّ، وتوسّل إليه بأن يأتي ليقنع جان باتيست.

وقد تصرّف رجل الدين تبعاً لرجاء تابع أبرشيته المحترم؛ فباشر بالمفاوضات، غير أنّ نتائج هذه المفاوضات كانت مذهلة إلى درجة أنّ من الغريب التحدّث عنها؛ ففي باريس بالتحديد قيل إنّ خادم الكنيسة، بعد ساعتين من الحديث مع جان باتيست «المتجنّن»، خلع هو نفسه ثوب الكهنوت، وانضمّ إلى ذات الفرقة التي كان جان باتيست يريد الانضمام إليها.

أُعلِن فوراً أنّ هذا ضعيف الاحتمال؛ فحسبما أذكر لم يلتحق أيّ قسّ بالمسرح، لكن بالمقابل هناك شخص اسمه جورج بينيل تصرّف تصرّفاً عجيباً مع بوكلن الأب. وبينيل كان قد اهتمّ مرّة بجان باتيست، بناءً على طلب بوكلن الأب، معلّماً إيّاه المحاسبة التجاريّة، بالإضافة إلى وجود شؤون ماليّة بين بوكلن وبينيل كانت تتمثّل في أنّ بينيل كان يقترض المال من بوكلن بين الحين والآخر.

توجّه بوكلن الأب إلى بينيل، يائساً ولا يعلم ماذا يفعل، سائلاً إيّاه أن يقنع تلميذه السابق؛ فتحدّث بينيل الوديع حقّاً إلى جان باتيست، ثمّ جاء ليخبر بوكلن الأب بنتائج محادثته. وتبيّن، حسب كلام بينيل، أنّ جان باتيست قد أقنعه تماماً، وأنّه ـ هو بينيل ـ سيترك عمل المحاسبة إلى الأبد، وسيلتحق بالمسرح مع جان باتيست.

ـ لعنة الله ثلاثاً على هذا العاطل بينيل الذي، بالإضافة إلى ذلك،

Twitter: @ketab_n

أقرضته مائة وأربعين ليرة! ـ قال الوالد المسكين عند خروج بينيل، ثمّ استدعى ابنه ثانيةً.

كان السادس من كانون الثاني يوماً مشهوداً حقّاً في حياة الأب.

ـ وماذا إذن، هل أنت مصرّ على موقفك؟ سأل بوكلن.

ـ أجل، قراري ثابت. أجاب الابن الذي من الواضح أنّ دماء كريسّيه كانت تجري في عروقه، لا دماء بوكلن. فقال الأب:

ـ ضع نصب عينيك أنّني سوف أحرمك من لقب الفرّاش الملكيّ. أعده إليّ. إنّي نادم على أنّي استمعت إلى جدّك المختلّ العقل، وجعلتك تتعلّم.

أجاب جان باتيست، المجنون وغير النادم، بأنّه سيتخلّى عن اللقب بطيب خاطر، وأنّه لن يكون ضدّ إعطاء اللقب لمن يريد من أبنائه.

طلب الأب تنازلاً خطّيّاً؛ فوقّع جان باتيست دون أن يتردّد، ولو للحظة واحدة، على هذا التنازل الذي تبيّن، فيما بعد، أنّه لم يكن ذا قيمة، ولم يكن له أيّ دور يُذكر.

ثمّ راحوا يتقاسمون التّركة؛ فكان نصيب جان باتيست من تركة الأمّ خمسة آلاف ليرة. كان الأب يساوم كما يفعل في حانوته؛ فلم يكن يريد أن يتسرّب المال إلى المَحافظ المثقوبة للممثّلين المشرّدين، وكان محقّاً. قصارى القول: أعطى لابنه ستمائة وثلاثين ليرة، ومع هذا المال هجر الابن المنزل الأبويّ.

توجّه مباشرةً إلى الساحة الملكيّة؛ إلى إحدى الأُسر المحبَّبة إلى قلبه دون حدود: آل بيجار.

Twitter: @ketab_n

وجوزيف بيجار هو سيور دي بيلفيل، وهو موظّف صغير في مديريّة المياه والغابات، وكان يعيش في باريس مع زوجته، التي كان اسمها قبل الزواج ماري إيرفيه، وكان له أربعة أبناء.

كانت هذه الأسرة رائعة لكون جميع أفرادها، بدءاً من سيور دي بيلفيل نفسه، كانوا متّقدي الشغف تجاه المسرح؛ فالابنة مادلين بيجار، التي بتنا نعرفها، كانت ممثّلة محترفة ورائعة، والابن الأكبر، المدعو جوزيف كوالده، والابنة ذات التسعة عشر عاماً، والتي كانت تلي مادلين من حيث العمر، جينوفييف، لم يكونا يمثّلان في مسرحيّات الهواة فحسب بل كانا يحلمان بتشييد مسرح، وأصغر الجميع لويس كان يتطلّع إلى المسرح بطبيعة الحال، ولم ينضمّ إليه فقط لصغر سنّه؛ فقد كان في الثالثة عشر تقريباً. كان بيجار ـ بيلفيل يتعامل مع اهتمام أبنائه بتشجيع تامّ لأنّه ـ هو نفسه ـ حاول التفرّغ للمسرح، ولم يكن لدى الأمّ المُحبّة أيّ اعتراض على شغف أبنائها.

كان من العسير انتقاء مجموعة أكثر ملاءمة لجان باتيست بوكلن من هذه لكن ليس حبّ المسرح وحده هو ما ربط بين بوكلن وآل بيجار؛ إذ ليس هناك أدنى شكّ بأنّ مادلين وبوكلن كانا متحابّين، وأنّهما كانا متعلّقين ببعضهما. (لا تنسوا صيف عام ١٦٤٢ والمياه المعدنيّة في مونفرينيه!)

يجب هنا ملاحظة أنّ عائلة بيجار كانت تسوح خارج باريس منذ أواخر عام ١٦٤١، وأنّها عادت إلى باريس تقريباً عندما عاد بطلنا إليها، أي بداية عام ١٦٤٣. ومن الجائز الاعتقاد بأنّ مادلين قد عادت أيضاً إلا أنّي لست متأكّداً تماماً، رغم أنّ مسألة عودة مادلين تقلقني كثيراً. لكن لماذا؟ فسوف يتّضح هذا الأمر فيما بعد.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، جاء بوكلن إلى آل بيجار في كانون الثاني عام ١٦٤٣ ومعه مال التركة، لكنّ الأحداث المسرحيّة اللاحقة لم تجرِ فوراً لأنّ إخفاقات غامضة ما توالت على حياة عائلة بيجار. . . آخ، من الواضح أنّ أحداثاً غامضةً كثيرة كانت تجري في حياة آل بيجار، وكذلك ـ بالمناسبة ـ في حياة بطلي!

كان غموض سلوك آل بيجار يتجلّى في أنّ هذه العائلة، في كانون الثاني/ شباط تقريباً، غادرت المدينة فجأةً ـ في منتصف الشتاء ـ ولسببٍ ما سافرت إلى عزبة في ضواحي باريس. يبدو لي هذا الأمر مستغرباً!

أقول إنّ عائلة بيجار سافرت إلى العزبة لكنّي لست متأكّداً ما إذا كانت مادلين وجينوفييف قد سافرتا كذلك، رغم أنّي سأبذل الغالي والنفيس لمعرفة ذلك بدقّة.

على أيّ حال، إنّ سيد بيلفيل وزوجته الوفية ماري إيرفيه سافرا. وفيما بعد، في آذار، عُلِم أنّ سيد بيلفيل قد توفي في هذه العزبة بالذات، الواقعة في منطقة سان أنطوان دي شان، وأنّ العائلة عادت إلى باريس.

بالتالي؛ ما من شكٍّ لديّ بأنّ الجميع، باستثناء بيلفيل المتوفّى، قد أصبحوا في باريس. وحينذاك بدأ عمل غير عادي يجري على قدمٍ وساق في المنزل القائم في «الساحة الملكيّة»، حيث بدأ يهرع إلى منزل آل بيجار شبّان يثيرون الريبة، بالمعنى المسرحيّ، ثمّ لحق بهم ممثّلون مخضرمون ومحترفون.

شعر بينيل بنفسه مثل سمكة في الماء، وتجلّى بمنتهى التألّق وسط الفنّانين الصعاليك. وأنا واثق تماماً من أنّ أحداً لم يقم بما قام به بينيل؛

Twitter: @ketab_n

فقد ذهب إلى بوكلن الأب، وتحايل عليه للحصول على مائتي ليرة أخرى لابنه الذي حدّث عنه منجّد القصر أموراً لا تصدّق. ويُقال إنّه تصرّف معه كما فعل سكابين مع جيرونت في مسرحيّة موليير الكوميديّة. كلّ شيء جائز.

واختمر الأمر في صيف ١٦٤٣.

في ٣٠ حزيران، في منزل الأرملة ماري إيرفيه، أُبرم اتفاق احتفاليّ بوجود السيّد النبيل ماريشال، محامي برلمان فرنسا، حيث ورد في الوثيقة أنّ مجموعة مؤلّفة من عشرة أشخاص سوف ينشئون مسرحاً جديداً.

هاكم أين ذهبت الستمائة والثلاثون ليرة، وكذلك المائتان اللاحقتان، ناهيكم عن أنّ مادلين، التي كانت تتميّز بحسن التدبير بحيث تمكّنت من توفير مبلغٍ لا بأس به خلال عملها في التمثيل، هي التي قدّمت المال لتأسيس المسرح. وكذلك ماري إيرفيه، الشّغفة بأبنائها، جهدت لجمع قروشها الأخيرة، وجازفت برأسمالها في هذه الشركة. أمّا البقية، كما يمكن لنا أن نفهم، فكانوا لا يملكون شروى نقير، وكان في مقدورهم المساهمة في الشركة بطاقتهم ومواهبهم، وأمّا بينيل فبخبرته في الحياة.

أطلقت المجموعة على المسرح الجديد، ودون أدنى تواضع، اسم «المسرح المتألّق»، والذين انضموا إليه دعوا أنفسهم «أطفال العائلة»، ومن هنا يمكن استنتاج أنّ بين العباد الجدد لآلهة الإلهام ساد ذلك التوافق الذي هو وحده ـ حسب قول أرسطو ـ يحفظ تماسك الكون برمّته.

Twitter: @ketab_n

ضمّ «أطفال العائلة» البيجاريين الثلاثة ـ جوزيف ومادلين وجينوفييف ـ وفتاتين هما مالينغر وديسُورلي، وشخص اسمه جيرمان كليرين، والكاتب الشاب بونانفان، والممثّل المحترف والمخضرم ديني باريس، وجورج بينيل السابق الذكر، وأخيراً القائد الملتهب حماساً للمجموعة كلّها، صاحبنا جان باتيست بوكلن بالذات.

لكن لم يعد لجان باتيست بوكلن وجود منذ لحظة تأسيس «المسرح المتألق»، فقد ظهر إلى العالم، مكانه، جان باتيست موليير. أمّا من أين ظهرت هذه الكنية الجديدة؟ فهذا ليس معلوماً. يقول بعضهم إنّه استقى هذا اللقب من شخص كان يتردّد على الأوساط المسرحيّة والموسيقيّة، ويقول آخرون إنّ جان باتيست اتّخذ اسم موليير من اسم منطقة ما، وهناك من يقول إنّه أخذ هذه الكنية عن كاتب توفي عام ١٦٢٣ . . . قصارى القول، صار اسمه موليير. وعندما سمع والده بذلك لوّح بيدَيه يائساً فحسب، أمّا جورج بينيل، ولكي لا يتخلّف عن صديقه المضطرم، فقد اتّخذ لنفسه اسم جورج كوتُور.

كان لتشكيل الفرقة الجديدة تأثير بالغ في باريس، وسرعان ما أطلق ممثّلو «أوتيل بورغون» على «أطفال العائلة» اسم «عصبة الصعاليك».

لم تُعِرْ العصبة هذه الإساءة أدنى اهتمام، وانخرطت في العمل بمنتهى النشاط بقيادة موليير وبايس، بينما كانت مادلين تدير الشؤون الماليّة. وقبل أيّ شيء آخر، توجّهوا إلى سيّد اسمه غاللوا دو ميتاييه الذي أجّر العصبة صالة للعب كرة المضرب كان يملكها، وكانت مهملة إلى أقصى الحدود، وتقع في «رفي»، قرب «برج دونيل». وقد أبرموا مع غاللوا اتفاقاً يُلزِمه، بالتعاون مع أصحاب ورشة حدادة، بإصلاح الصالة وبناء خشبة فيها.

Twitter: @ketab_n

كما أنهم عثروا على أربعة موسيقيّين هم السادة غودار وتيسّ وليفيفر وغابورييه، وعرضوا على كلّ منهم عشرين «سولاً»(١) في اليوم، وبعد ذلك باشروا «البروفات». بعد تحضير بضع مسرحيّات، وحتى لا يهدروا الوقت الذهبيّ، ركب «أطفال العائلة» شاحنةً، وتوجّهوا إلى مهرجان مدينة «روان»، ليقوموا بعرض المسرحيّات التراجيديّة.

كانوا يكتبون رسائل إلى غاللوا من «روان» يحثّونه فيها على التعجيل بالإصلاحات. وبعد أن مثّلوا، بنجاح متوسّط، في «روان» أمام جمهور المهرجان المُتساهِل، عادوا إلى باريس، واتّفقوا مع شخص ذي طبيعة آسرة جدّاً، هو معلّم في بناء القناطر من حيث المهنة، اسمه ليونار أوبري، والذي باشر ببناء رصيف حجريّ رائع أمام المسرح.

ـ إنّك تدرك، يا سيّد أوبري، أنّ عربات خيل سوف تأتي. قال السيّد موليير وهو يفرك يدَيه بقلق.

وقد نقلوا قلقهم حتى إلى السيّد أوبري الذي نجح في تحقيق هدفه، حيث خرج الرصيف الحجريّ جميلاً ومتيناً.

أخيراً، وفي الليلة السابقة لعيد الميلاد عام ١٦٤٤، تمّ افتتاح المسرح بمسرحيّة تراجيديّة.

من المرعب فحسب الحديث عمّا جرى لاحقاً؛ فلست أذكر ما إذا كان أيّ مسرح في العالم قد عانى فشلاً ذريعاً كهذا.

خلال العروض الأولى للمسرحيّة كان ممثّلو المسارح الأخرى

---

(١) Sol بالإسبانية: وهي العملة النقدية للبيرو حالياً

Twitter: @ketab_n

يقولون بفرح إنّ في الخندق الواقع عند «برج دونيل»، في «المسرح المتألّق»، فيما عدا آباء الممثّلين مع بطاقات الدعوة المجانيّة، لا وجود لأيّ كلب حيّ. ويا للهول! كان هذا أقرب إلى الحقيقة؛ فقد ذهبت جهود السيّد أوبري كلّها أدراج الرياح، وحرفيّاً: لم تعبر أيّ عربة رصيفه.

بدأ الأمر مع وصول واعظ إلى أبرشية «سان سُولبيس» المجاورة، والذي، بالتزامن مع العروض المسرحيّة، راح يُلقي خطباً ملتهبة عن أنّ الشيطان لن يختطف بمخالبه الممثّلين الملعونين فقط بل والذين يحضرون كوميديّاتهم.

في الليالي، كانت تخطر لجان باتيست موليير فكرة وحشيّة مفادها أنّه سيكون أمراً جيّداً لو تمّ، ببساطة، ذبح هذا الواعظ.

دفاعاً عن الواعظ أقول، هنا، إنّه ربّما لم تكن له يد في الأمر. تُرى أكان ذنب الواعظ أنّ الطبيب لم يستطع أن يعالج جوزيف بيجار من التهتهة، في حين أنّ جوزيف كان يلعب أدوار العشّاق؟ تُرى أكان ذنب الواعظ أنّ موليير نفسه كان يتلعثم، أم أنّ الشيطان، الذي وقع موليير بين براثنه حقّاً، هو الذي أوحى إليه أن يلعب أدواراً تراجيّديّة ما إن خالط الممثّلين؟

كانت شموع عائمة موضوعة في ثريّات صفيحيّة قذرة تضيء الصالة الرطبة المعتمة. ولم تكن صأصأة الكمنجات الأربع للسيّد غودار ورفاقه تشبه مطلقاً هدير أوركسترا كبيرة. لم ينظر الدراماتورغيّون المتألّقون إلى «خندق دونيل»، ولو أنّهم نظروا لتساءلوا كيف يمكن للكاتب بونانفان أن يوصل المونولوجات الرنّانة إلى الجمهور؟

Twitter: @ketab_n

كانت الأمور تسوء يوماً بعد يوم؛ وكان الحضور يتصرّف بقلّة أدب، حيث كان يسمح لنفسه بنزواتٍ كريهة كأن يشتم جهراً أثناء العرض على سبيل المثال...

أجل! كانت مادلين ممثّلة رائعة في الفرقة لكن لم يكن بمقدورها وحدها تمثيل المسرحيّة التراجيديّة كلّها! يا لصديقة جان باتيست موليير اللطيفة؛ فقد بذلت كلّ ما في وسعها لكي تُنقِذ «المسرح المتألّق»؛ فحين حضر إلى باريس عشيقها القديم الكونت دي مودين، بعد تجوال ومغامرات رائعة، لجأت مادلين إليه، وهو سمح لأخويّة التعساء بأن يُطلقوا على الفرقة اسم فخامته الملكيّة الأمير غاستون الأورلياني.

وعلى الفور اكتشف جان باتيست الماكر في نفسه مواهب مديرٍ حقيقيٍّ للمسرح، حيث استدعى الراقصين دون إبطاء، وأخرج جملةً من عروض الباليه لفرسان الأمير، لكنّ الفرسان ظلّوا حياديّين تجاه هذه الباليهات.

عندها، وفي أحد المساءات، أخبر جان باتيست المثابر مادلين بأنّ القيمة الحقيقيّة كلّها تكمن في «الريبرتوار»[1]، ودعا الممثّل والدراماتورغ نيكولا ديفونتين للانضمام إلى الفرقة.

ـ نحتاج إلى «ريبرتوار» رائع. قال له موليير.

صرّح ديفونتين بأنّه قد أدرك مراد موليير، وبسرعة يُحسد عليها قدّم للمسرح مسرحيّاته. كانت إحداها تسمّى «برسيد، أو حاشية باسّا

---

(١) عُرّبت هذه الكلمة «الذخيرة المسرحيّة»، وهي تشير إلى برنامج عروض شهري أو سنوي، لكننا آثرنا استخدام الكلمة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

الرائعة»، والأخرى «القديس ألكسيي، أو الأوّلمب الرائع»، والثالثة «الممثّل المتألّق، أو استشهاد القدّيس جيني». لكن من الواضح أنّ الجمهور الباريسيّ، المسحور من قِبل الواعظ، لم تكن لديه رغبة في مشاهدة، لا «الأولمب الرائع» ولا «باسّا الرائعة».

جلبت بعض الراحة مسرحيّة الكاتب تريستان ليرميت التراجيديّة «المصائب العائليّة لقسطنطين العظيم» التي لعبت فيها مادلين دور إبيخاريس بصورة مذهلة، لكنّ هذا لم يدم طويلاً.

عندما نفدت مدّخرات مادلين جاء «أطفال العائلة» إلى ماري إيرفيه التي بكت، لأوّل مرّة، عند رؤية الأطفال، وأعطتهم آخر ما لديها من مال. بعد ذلك توجّهوا إلى جان باتيست بوكلن الأب في السوق.

كان المشهد الذي جرى في الحانوت مضنياً جداً، ففي ردّه على طلب المال لم يستطع بوكلن، في البداية، أن ينبس بكلمة واحدة، و. . . تصوّروا! لقد أعطاهم مالاً! وأنا على يقين من أنّهم قد أرسلوا إليه بينيل.

بعد ذلك جاء غاللوا إلى الممثّلين، وسأل ما إن كانوا سيدفعون الأجرة أم لا، طالباً أن يعطوه جواباً قاطعاً، لكنّه لم يحصل على جواب قاطع، وإنّما قدّموا له ردّاً مبهماً مليئاً بالأيمان والوعود. فقال غاللوا:

ـ انقلعوا إذاً، مع كمنجاتكم وممثّلاتكم الصهباوات!

كانت العبارة الأخيرة زائدة لأنّ مادلين كانت الصهباء الوحيدة في الفرقة.

ـ أنا نفسي كنت أنوي أن أهجر هذا الخندق التافه. صرخ موليير.
ودون أن تلاحظ الأخويّة حتى كيف مرّت سريعاً تلك السنة المريعة

Twitter: @ketab_n

اندفعت وراء قائدها إلى «بوابة القديس بولس» (بور سان بول)، إلى صالة تشبه صالة السيّد غاللوا. كانت هذه الصالة تدعى «الصليب الأسود»، وقد تحقّقت هذه التسمية بمنتهى السرعة.

بعد أن مثّلت الفرقة المتألّقة «أرتاكسيرس» للكاتب مانيون، السيّد دو موليير، الذي كان يُنظر إليه في باريس كلّها كقائد للفرقة المسرحيّة ـ وهو أمر مبرَّر تماماً ـ تمّ اقتياده إلى السجن، يتبعه مرابٍ وبائع بيّاضات وبائع شموع اسمه أنطوان فوسّييه. إنّها شموعه تلك التي كانت معلّقة في الثريّات عند السيّد موليير في «المسرح المتألّق». وهرع بينيل إلى بوكلن الأب.

ـ كيف؟.. أنت؟...، ـ قال جان باتيست بوكلن مختنقاً،ـ أنت.. أنت أتيت؟ مرّة أخرى إليّ؟.. ما هذا؟

ـ إنّه في السجن، ـ أجاب بينيل،ـ لن أقول المزيد يا سيد بوكلن! إنّه في السجن!

وبوكلن الأب.. أعطاه مالاً.

لكن حينها انقضّ الدائنون، من جميع الجهات، على جان باتيست موليير، وما كان ليخرج من السجن حتى نهاية حياته لو لم يكفل ديون «المسرح المتألّق» ليونار أوبري، الذي بنى الرصيف الحجريّ الرائع وغير المفيد أمام مدخل المسرح الموليريّ الأوّل.

لست أدري بأيّ عقار سمّم جورج بينيل ليونار أوبري لكن اسم ليونار أوبري سوف تتناقله الأجيال!

فرقة «المسرح المتألّق» برمّتها، بعد أن خرج قائدها من قلعة السجن، قدّمت وعداً مهيباً للسيد أوبري بأنّها، مع الوقت، سوف تسدّد الديون التي كفلها.

Twitter: @ketab_n

مع عودة موليير استؤنفت العروض. وقد نجح موليير في نيل حماية هنري دي غيز، دوق دي لوران، والأمير، برحابة صدر، أهدى للفرقة صِوان ملابسه الغنيّ جدّاً. ارتدت الأخويّة بزّات فاخرة، وأمّا المَخيطة منها بخيوط ذهبيّة فقد رهنوها عند المُرابين، لكنّ الخيوط لم تساعد! فتزلزلت الأخويّة هلعاً، وبدأت تظهر أولى علائم الفزع. وتوجّب عليهم مغادرة «بوّابة القديس بولس» و«الصليب الأسود» الضريحيّ، والانتقال إلى صالة جديدة. كان لهذه الصالة اسم مضيء هو «الصليب الأبيض».

للأسف! تبيّن أنّه لم يكن أفضل من «الصليب الأسود» في أيّ شيء.

كان بينيل وبونانفان، ومن ثم بايس، أوّل الفارّين، إذ لم يحتملوا الفاقة. واستمرّ الاحتضار العسير للمسرح المتألّق لبعض الوقت، وفي بداية عام ١٦٤٥ أصبح كلّ شيء واضحاً؛ فباعوا كلّ ما يمكن بيعه: الملابس، الديكور...

وفي خريف عام ١٦٤٥ كفّ «المسرح المتألّق» عن الوجود إلى الأبد.

حدث هذا في الخريف. في شقّة صغيرة، في شارع «جاردن سان بول»، مساءً، وعلى ضوء شمعة، كانت تجلس امرأة، وأمامها يقف رجل.

ثلاث سنوات عجاف، الديون، المرابون، السجن والإذلال: كلّ ذلك غيّره تغييراً حاسماً. وعند زوايا شفتيه خطّت «الغمّازات» الساخرة للخبرة، لكن كان لا بدّ للمرء من أن ينظر إلى وجهه ليدرك أنّ النكبات، أيّاً كانت، لن توقفه. لم يكن في مقدور هذا الإنسان أن

Twitter: @ketab_n

يصبح محامياً أو كاتب عقود أو تاجر أثاث؛ فأمام مادلين الصهباء كان يقف ممثّل مضطرم ومحترف، في الرابعة والعشرين، وقد حنّكته الدهور. على كتفيه كانت تتدلّى بقايا قفطان غيزوي، وفي جيوبه كانت تخشخش القروش الأخيرة أثناء سيره في الغرفة.

دنا رئيس «المسرح المتألّق»، المفلس تماماً، من النافذة، وبعبارات حاذقة لعن باريس مع ضواحيها، مع «الصليب الأسود» و«الصليب الأبيض»، ومع الخندق عند برج دو نيل، وشتم الجمهور الباريسيّ الذي لا يفقه شيئاً في الفنّ، وأضاف إلى ذلك بأنّ في باريس هناك إنسان محترم واحد، وهذا الإنسان هو البنّاء الملكيّ ليونار أوبري.

ظلّ يثرثر طويلاً دون أن يتلقّى جواباً، وفي النهاية سأل بيأس:

ـ الآن، طبعاً، حتى أنت ستهجرينني؟ وماذا إذن، يمكنك محاولة الانضمام إلى «أوتيل بورغون».

ثم أضاف: البورغونيون أنذال.

أصغت مادلين الصهباء إلى هذا الهراء كلّه بصمت، وبعد ذلك راح العاشقان يتهامسان، وتهامسا حتى الصباح. ولكن: ما الذي توصّلا إليه؟ لسنا ندري.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٨
الممثّل الجوّال

إنّه لأمر سيّء أنّنا نجهل كليّاً أين اختفى بطلي بعد ذلك؛ فكأنّ الأرض قد انشقّت وابتلعته، حيث اختفى من باريس؛ فلم يُسمع له صوت، ولم يُرَ له طيف، طوال عام، لكن فيما بعد أكّد شهود غير موثوقين، في صيف عام ١٦٤٧، أنّهم شاهدوا شخصاً يشبه، كقطرَتي ماء، المدير الفاشل موليير في إيطاليا، في شارع من شوارع روما. وزعموا أنّه كان، واقفاً تحت الشمس الحارقة، يتحدّث بوقار إلى السفير الفرنسيّ، السيّد دي فوتينيه مارييل.

وفي خريف ذلك العام نفسه، ١٦٤٧، في إيطاليا بالذات، جرت أحداث كبيرة في نابولي. فقد حرّض صياد سمك شجاع، اسمه تومازو أنييللو، انتفاضة شعبيّة ضدّ دوق دي أركوس، ممثّل الملك الإسبانيّ، الذي كان حاكم نابولي آنذاك. كانت طلقات الرصاص تئزّ في شوارع نابولي، وتضرّجت الشوارع بالدماء. تمّ إعدام تومازو، وعُلّق رأسه على رمح، لكنّ شعب نابولي قام بدفنه بصورة مهيبة، واضعاً في التابوت سيفاً وصولجان الماريشال.

بعد ذلك تدخّل الفرنسيّون في النزاع النابوليتاني، وظهر الدوق دي غيز وهنري الثاني دي لُوران، ترافقهما القوّات، في نابولي.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، يبدو أنّ المدير السابق للمسرح المتألّق البائس، السيّد موليير، قد أُلحق بحاشية غيز. لماذا تواجد ضمن هذه الحاشية، وما الذي كان يفعله في نابولي؟ لم يستطع أحد تفسير ذلك بدقّة. بل وُجد حتى من يؤكّد أنّ جان باتيست لم يتواجد في روما، ولا في نابولي، في حياته، وأنّه تمّ الخلط بينه وبين شاب ذي طبع مغامر.

وهناك شهود صرّحوا بما هو مختلف، إذ زعموا أنّ قافلة فقيرة خرجت من باريس عبر ضاحية «سان جيرمان»، في صيف عام ١٦٤٦، متوجّهة إلى جنوب فرنسا، وأنّ ثيراناً هزيلةً كانت تجرّ العربات المحمّلة بأمتعة ما، حيث جلست في مقدّمتها امرأة صهباء ملتفعة بمعطف لاتّقاء الغبار، وقيل إنّها لم تكن سوى مادلين بيجار. إذا كان هذا صحيحاً؛ فلا بدّ من التذكير باسم مادلين بيجار؛ فالممثّلة الفاتنة لم تهجر مديرها وحبيبها، الذي هُزم في معركته الأولى في باريس، في لحظة الشدّة؛ إذ لم تحاول الذهاب إلى مسرح «المستنقع» أو إلى «أوتيل بورغون»، ولم تُعِدّ خططاً خبيثة لجذب عشيقها القديم، الكونت دي مودين، إلى شبّاكها، والزواج به. لقد كانت امرأة مخلصة وقويّة، والكلّ يعلم ذلك!

بجوار العربة كان يسير، وهو يعرج، فتى في السادسة عشر من عمره، وفي القرى التي على الطريق كان الأوّلاد يشاكسونه، فيُصفّرون ويصيحون:

ـ شيطانٌ أعرج!

وبعد أن يتفرّسوا فيه مليّاً، كانوا يضيفون:

ـ وأحول! وأحول!

Twitter: @ketab_n

كان ذلك الأعرج والأحول هو لويس بيجار بالذات.

عند تبدّد غيوم الغبار كان بالإمكان رؤية آخرين فوق الأمتعة، وكانت معظم الوجوه مألوفة؛ فها هو العاشق التراجيديّ الألْكَن جوزيف بيجار، وها هي أخته المشاكسة جينوفييف. وكان يقود القافلة، كما يسهل التخمين، جان باتيست موليير.

باختصار، بعد أن مات «المسرح المتألّق» أخرج موليير من تحت أنقاضه بقايا الحرس الأخويّ المخلص، ورحل بهم.

لم يكن هذا الإنسان قادراً على البقاء خارج المسرح لثانية واحدة، وكانت لديه قدرة كافية، بعد ثلاث سنوات من العمل في باريس، للانتقال إلى وضع الممثّل المتشرّد. إلا أنّ هذا غيضٌ من فيض؛ فمن خلال أقواله الملتهبة حماساً، كما ترون، جرّ وراءه عائلة بيجار. وجميع البيجاريّين تعفّروا بالغبار على طرقات فرنسا بفضله. وقد تبيّن أنّه، بالإضافة إلى البيجاريّين، كانت هناك وجوه جديدة في الفرقة، من بينها الممثّل التراجيْديّ المحترف شارل دُوفرِن، وهو مهندس ديكور ومخرج وكانت لديه فرقته الخاصّة في أحد الأيّام، والممثّل الكوميديّ الرائع والمحترف أيضاً رينيه بارتلو، وهو دُوبارك نفسه الذي سرعان ما سيحصل على لقب مسرحيّ، وسيحتفظ به طوال حياته، هو غرو رينيه لأنّه كان يؤدّي أدوار الخدم البدناء المضحكين.

كما حمل قائد الفرقة، معه في العربة، رُزماً من مسرحيّات تريستان ومانيون وكورنيل.

كان الوضع، في البداية، بالغ الصعوبة بالنسبة للمسافرين. ومرّت أوقات توجّب عليهم فيها أن يناموا في مخازن العلف، وأن يمثّلوا في القرى، وفي العنابر كانوا يعلّقون خرقاً وسخة بدلاً من الستارة.

Twitter: @ketab_n

غير أنّهم كانوا يجدون أنفسهم في قصور غنيّة أحياناً، وإذا عبّر المالك الوجيه، بسبب الضجر، عن رغبته في مشاهدة الممثّلين فإنّ ممثّلي موليير المتّسخين، الذين كانت تفوح منهم رائحة عرق الطريق، كانوا يمثّلون في غرف استقبال.

وعند وصولهم إلى أمكنة جديدة كان الممثّلون، الذين يعرفون قدر أنفسهم، قبل كلّ شيء، يخلعون قبّعاتهم الرثّة، ويذهبون إلى السلطات المحليّة طالبين السماح لهم بالتمثيل لأجل الشعب.

وكانت السلطات المحليّة، كما ينبغي لها، تعامل الممثّلين معاملةً سيّئة ووقحة، وتخلق لهم عوائق سخيفة.

كان الممثّلون يعلنون أنّهم يريدون تقديم مسرحيّات السيّد كورنيل الموقّر التراجيديّة شعراً...

أعتقد أنّ السلطات المحليّة لم تكن تفقه شيئاً من شعر كورنيل، بيد أنّها كانت تطلب معاينة هذه الأشعار مسبقاً. وكان يحدث أحياناً أن تمنعها بعد معاينتها. وزد على ذلك أنّ حجج المنع كانت متنوّعة، وكان معظمها على النحو التالي:

ـ شعبنا فقير، ولا ينبغي له تبذير نقوده على عروضكم!

وكانت هناك ردود مبهمة أحياناً:

ـ نخشى أن يحدث شيء ما بسبب عروضكم.

كما كانت هناك ردود معزّية أيضاً. كان هناك كلّ شيء في حياة التشرّد هذه.

وكان رجال الدين يقابلون الممثّلين، في كلّ مكان، بنفس القدر من

Twitter: @ketab_n

العداء. وحينذاك كان يتوجّب اللجوء إلى حيلٍ ماكرة، كتقديم الغلّة الأولى لصالح الدير أو لأعمال البرّ. وبهذه الطريقة، غالباً جدّاً، كان من الممكن إنقاذ المسرحيّة.

عند وصولهم إلى بلدة ما كانوا يبحثون، قبل أيّ شيء آخر، عن نادٍ للقمار أو عنبرٍ للعب الكرة، اللعبة المحبوبة جدّاً لدى الفرنسيّين. وبعد الحديث إلى المالك كانوا يهيّئون الخشبة، ثمّ يرتدون بزّاتهم المهلهلة ويمثّلون.

كانوا يبيتون في خاناتٍ صغيرة، وكان كل اثنين ينامان في سريرٍ واحد أحياناً.

هكذا ساروا طائفين بفرنسا. وسرت شائعة بأنّ الممثّلين الموليريّين قد شوهدوا في «لو مان»، في بداية حياة التجوال.

في عام ١٦٤٧ وصل الممثّلون إلى مدينة «بوردو»، في إقليم «غيّين». وهنا، في موطن نبيذ بوردو الرائع، ابتسمت الشمس للممثّلين الضامرين لأوّل مرّة.

كان بيرنار دي نوغارييه، دوق دي إبيرنون، المتعجرف والفاسد والجائر، يُعَدُّ حاكم «غيين» لكن الكلّ كان يعلم أنّ الحاكم الفعليّ لهذه المقاطعة كان سيّدة اسمها نانون دي لارتيغ، ويبدو أنّ الأوضاع كانت بالغة السوء في ظلّ حكم هذه المرأة.

قال أحد مفكّري القرن السابع عشر إنّ الممثّلين يحبّون الحكم الملكيّ أكثر من أيّ شيء آخر في الدنيا. وأعتقد أنّه قد قال ذلك لأنّه لم يمعن التفكير بما فيه الكفاية في المسألة، إذ لعلّ الأصحّ القول إنّ الممثّلين يحبّون أيّ سلطة، بشكل عامّ، إلى حدّ الولع. بل لا يجوز

Twitter: @ketab_n

لهم ألا يحبّوها! ففقط في ظلّ سلطة قويّة ومتينة وغنيّة يمكن للفنّ المسرحيّ أن يزدهر، وفي مقدوري إيراد جملة من الأمثلة بهذا الصدد لكنّي لن أفعل ذلك فقط لأن هذا الأمر واضح حتى دون ذلك.

عندما شعرت السيّدة دي لارتيغ، المتعبة من إدارة المقاطعة، بالملل قرر دوق ديبيرنون أن يسلّي عشيقته مقيماً لها سلسلة من الأعياد والمسرحيّات على نهر «غارون». وبالمناسبة، لقد ساق القدر موليير، بأحسن ما يكون، إلى «غيين»! حيث استقبل الدوق الممثّلين بترحاب، وهنا سُمِع رنين الذهب العذب في جيوبهم لأوّل مرّة.

قام موليير مع فرقته بتمثيل تراجيديا مانون «يوشافاط» ومسرحيّات أخرى لأجل الدوق وصديقته، ويُقال إنّه قدّم في «بوردو»، فيما عداها، أحد الأعمال الفنيّة الذي ينبغي حقّاً الإشارة إليه، وهو مسرحيّة «تيبائيد» التراجيديّة التي يبدو أنّ موليير نفسه قام بتأليفها أثناء تجواله، ويبدو أنّ هذه المسرحيّة التراجيديّة كانت عبارة عن نتاج أخرق إلى أقصى حدّ.

في ربيع عام ١٦٤٨، وجد ممثّلونا المتشرّدون أنفسهم في مكان آخر، في مدينة «نانت» بالتحديد، حيث تركوا آثاراً على أوراق رسميّة تُظهر أنّ شخصاً اسمه «موليير» طلب السماح له بتقديم عروض مسرحيّة، وأنّه نال الإذن بذلك. ومن المعلوم أيضاً أنّ موليير اصطدم في «نانت» بفرقة مسرح عرائس تعود لسيغالّ الفينيسي، وأنّ فرقة موليير هزمت تلك الدّمى، وتوجّب على سيغالّ التخلّي عن المدينة لموليير.

أمضت الفرقة صيف وشتاء عام ١٦٤٨ في البلدات والقرى القريبة من «نانت»، وانتقلت في ربيع ١٦٤٩ إلى «ليموج»، وقد حدثت هناك أمور مزعجة؛ فالسيّد موليير، أثناء تمثيله أحد أدواره التراجيديّة، تمّ

Twitter: @ketab_n

استهجانه بالصفير من قبل الليموجيين الذين، إضافة إلى ذلك، راحوا يرمونه بالتفاح المشويّ: إلى هذه الدرجة لم يعجبهم تمثيله.

قاد السيّد دو موليير، وهو يلعن «ليموج»، أخويّته الجوّالة إلى أماكن أخرى، وقد تواجدوا في «أنغوليم» و«أجان» و«تولوز». وفي عام ١٦٥٠، في كانون الثاني، وصلوا إلى «ناربونّو». ويُحكى أنّ السيّد موليير ترك الفرقة، في ربيع ذلك العام، لبعض الوقت لكي يتواجد في باريس سرّاً.

ما من شكّ على الإطلاق في أنّ موليير توجّه، مع فرقته، في شتاء عام ١٦٥٠، إلى مدينة «بيزينا» التي ترك فيها ذكرى عن نفسه على شكل إيصال بقيمة أربعة آلاف ليرة، وحصل عليها لأجل ممثّليه، بأمرٍ من رئيس مجلس الولايات الذين كانوا مجتمعين في «بيزينا» لمناقشة مسائل ضريبيّة هامّة. ويشير الإيصال، بصورة لا ريب فيها، إلى أنّ موليير قد قدّم عروضاً مسرحيّة لنوّاب الولايات.

وفي ربيع عام ١٦٥١ تواجد موليير مرّة أخرى في باريس، حيث استدان من والده ألفاً وتسعمائة وخمسٍ وسبعين ليرة، مقنعاً أبيه أنّه سيُعدم من دون هذا المال لأنّ عليه أيضاً تسديد ما تبقّى عليه من ديون «المسرح المتألّق».

وبعد أن وفى ديون من ينبغي لهم ذلك ارتحل ثانيةً سائحاً مع فرقته.

هنا ظهرت قرينة هامّة جدّاً؛ فقد تبيّن أنّ السيّد موليير ليس لديه ميل نحو التمثيل في المسرحيّات فحسب بل وإلى تأليف المسرحيّات بنفسه. وعلى الرغم من العمل اليوميّ الشاقّ بدأ موليير، في الليالي، يؤلّف

Twitter: @ketab_n

أشياء تشبه الأعمال الدراماتورجيّة. وما من غرابة أبداً في أنّ الإنسان الذي كرّس نفسه لدراسة التراجيّديا، والمتخصّص بالأدوار التراجيّديّة، لم يعد في مؤلّفاته إلى التراجيّديا قطّ بعد «تيبائيد» المشؤومة، وإنّما صار يكتب مسرحيّات هزليّة مرحة وعبثيّة من فصل واحد، حاكى فيها الإيطاليين، المعلّمين الكبار في هذا الصنف. وقد أُعجب رفقاء موليير بهذه الهزليّات وأدخلوها ضمن ريبرتوارهم.

هنا نصادف أمراً غريباً آخر؛ فالنجاح الأكبر لدى الجمهور في هذه المسرحيّات الهزليّة حقّقه موليير نفسه، الذي كان يمثّل أدواراً مضحكة، أدوار مثل سغناريل غالباً. وينبثق السؤال: أين تعلّم موليير تمثيل الكوميديا بهذه الجودة على الخشبة؟ من الواضح في المكان التالي: في الوقت الذي تأسّس فيه «المسرح المتألّق» المشؤوم، أو قبل ذلك بقليل، حضر إلى باريس، في عداد ممثّلين إيطاليّين آخرين، تيبيريو فيوريللي المؤدّي، البارز والعبقري، الدائم لقناع سكاراموجي، أو سكاراموش، الإيطاليّ. مرتدياً الأسود من رأسه حتى قدمَيه، مع ياقة مثنية بيضاء وحسب حول عنقه، «أسود كالليل» بتعبير موليير، أذهل سكاراموش باريس بخدعه الحاذقة وأسلوبه المتألّق في إيصال النصّ الإيطاليّ المضحك والخفيف من خلال المسرحيّات الهزليّة.

قيل في باريس إنّ الممثّل جان باتيست بوكلن، عندما بدأ مهنته، جاء إلى سكاراموش وطلب إليه أن يعطيه دروساً في الفنّ المسرحيّ، وإنّ سكاراموش وافق على ذلك. لا شكّ في أنّ موليير قد حصل على قدراته الكوميديّة من عند سكاراموش، حيث طوّر سكاراموش لديه تذوّق المسرحيّة الهزليّة، كما ساعده على التعرّف إلى اللغة الإيطاليّة.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، كان قائد الفرقة الجوّالة يلعب أدواراً تراجيّديّة في تراجيّديّات الآخرين، وفي هزليّاته كان يمثّل ككوميديّ. وهنا تمّ اكتشاف قرينة أذهلت ممثّلنا حتى أعماق روحه: كان نجاحه متوسّطاً في الأدوار التراجيّديّة في أحسن الأحوال، وفي أسوئها كان يفشل فشلاً ذريعاً، ناهيكم عن أنه لا بدّ من القول، بمرارة، إنّ الحال الأسوأ لم تكن أمراً نادراً. للأسف! ليس في «ليموج» وحدها قذفوا بالتفاح ممثّلنا التراجيّديّ المسكين الذي كان يمثّل وعلى رأسه تاج بطلٍ تراجيّديٍّ رفيع المقام.

لكن، فقط بعد المسرحيّة التراجيّديّة كانوا يقومون بتقديم المسرحيّة الهزليّة، وموليير، مبدّلاً ملابسه، كان يتحوّل من يوليوس قيصر إلى سغَناريل، وكانت الحال تتبدّل فوراً: يبدأ الجمهور بالقهقهة، يصفّق الجمهور، وتحدث عاصفة من التصفيق والهتاف، والأهالي يجلبون المال لمشاهدة العروض اللاحقة.

ماسحاً الماكياج بعد العرض، أو خالعاً القناع، كان موليير، في غرف الزينة، يقول متلعثماً:

ـ ما هذا الشعب! عليه اللعنة ثلاثاً. لستُ أفهم! أمسرحيّات كورنيل رديئة؟

ـ كلا ـ كانوا يجيبون المدير الحائر ـ مسرحيّات كورنيل جيّدة. . .

ـ إذا كان الحضور من العوام فقط، لست أفهم. . . إنّهم بحاجة إلى مسرحيّة هزليّة! لكن النبلاء! إذ هناك أناس متعلّمون بينهم. أنا لا أفهم، كيف يمكن الضحك من هذا الهراء! أنا شخصيّاً ما كنت لأبتسم مرّة واحدة!

Twitter: @ketab_n

ـ يا سيد موليير! ـ كان الرفاق يقولون ـ الناس متعطّشون إلى الضحك، ويسهل إضحاك النبيل سهولة إضحاك العاميّ من الناس.

ـ آخ، هل هم بحاجة إلى الهزل؟ صاح بوكلن السابق. حسناً! سوف نطعمهم مسرحيات هزلية!

وبعد ذلك تكرّرت الحكاية: فشل في المسرحيات التراجيدية، ونجاح في المسرحيات الهزلية.

لكن، ما تفسير هذه الغرائب؟ لماذا الأمر هكذا؟ الممثّل التراجيديّ كان يخفق في التراجيديا بينما كان ينجح في الكوميديا؟ هناك تفسير واحد فقط، وهو بسيط جدّاً. ليس العالم هو الذي كان أعمى، حسبما افترض موليير الذي يعتبر نفسه بصيراً، وبل كان الأمر عكس ذلك تماماً! فقد كان العالم يبصر بشكل رائع، والأعمى الوحيد كان موليير. ويا لغرابة الأمر، فقد امتدّت هذه الحال مدّة طويلة جدّاً. فهو الوحيد، من بين المحيطين به، لم يفهم ـ وهو أفضل ما يمكن أن يحدث له ـ أنّه قد وقع بين يديّ سكاراموش لأنه كان ممثّلاً كوميديّاً بالفطرة، وما كان له أن يغدو ممثّلاً تراجيديّاً. ولم تساعده على الإطلاق التلميحات مادلين اللطيفة، ولا أقوال الرفاق غير المباشرة، فقد كان قائد الفرقة يميل، بعناد، إلى لعب أدوارٍ ليست له.

هذا هو أحد أسباب الانهيار المأساوي «للمسرح المتألّق»! فقد كان الأمر يكمن في موليير نفسه، وليس في واعظ كنيسة «سان سولبيس» على الإطلاق. ولم يكن الذنب يقع على أيٍّ من التلعثمات التي لوحظت لدى موليير؛ فمن خلال المثابرة على التدريب تمكّن الممثّل الكوميديّ المتحمّس من إصلاح عيب النطق هذا بصورة تامّة تقريباً،

Twitter: @ketab_n

تماماً مثل تنفّسه غير السليم، إذ كان الأمر يكمن في الانعدام التامّ للمواهب التراجيّديّة لديه.

لكن، لنذهب أبعد وراء القافلة المولييريّة. فعبر جنوب فرنسا، من قرية لقرية، ومن مدينة لمدينة، انتشر خبر ظهور فتى اسمه موليير، والذي يُمثّل مع فرقته المسرحيّات المضحكة بصورة رائعة. الشيء الوحيد غير الصحيح في هذا الخبر هو أنّ موليير لم يعد فتىً؛ ففي ذلك الحين كان قد بلغ الثلاثين من عمره. والممثّل والدراماتورغ ذو الثلاثين عاماً، المخشوشن بصورة كافية، والمليء بخبرةٍ مؤلمة بحيث بدأت الفرقة تثق به، وصل، في نهاية عام ١٦٥٢، مدينة «ليون» حاملاً معه في عربته، بالإضافة إلى بضع مسرحيّات هزليّة، مسرحيّة كوميديّة كبيرة بعنوان «الطائش، أو بعد فوات الأوان».

اقتربت القافلة من ليون بنشاط، وكان الممثّلون مرفّهين بما فيه الكفاية؛ فقد كانوا يرتدون قفاطين حسنة، وكانت عرباتهم مليئة بالأمتعة الشخصيّة وعدّة المسرح. ولم يعد الممثّلون يرتعشون من فكرة أنّهم مغمورون، والتي قد تكون بانتظارهم في «ليون»، فقد كانوا يعلمون تماماً مدى قوة مسرحيّات موليير الهزليّة، و«الطائش» كانت تعجبهم بصورة استثنائيّة. لذا لم يشعروا بالخوف عندما انبسطت أمامهم المدينة الكبيرة التي كان يخيّم عليها ضباب الشتاء.

في إحدى العربات، تحت رعاية وإشراف مادلين، كان يسافر كائن جديد انضمّ إلى القافلة على مقربة من مدينة «نيم». كان هذا الكائن في العاشرة من العمر فحسب، وكان عبارة عن فتاة ليست جميلة لكنّها حيويّة وذكيّة ومغناج جدّاً.

Twitter: @ketab_n

فسّرت مادلين ظهور الفتاة المفاجِئ للممثّلين بأنّها أختها الصغرى التي ترعرعت في كنف امرأة من معارفها في ضيعةٍ قرب «نيم»، وبأنّه حان الوقت لكي تأخذها مادلين، وأنّ السيّد موليير أيضاً يحبّها كثيراً، وأنّه ينوي تعليمها؛ فالفتاة سوف تصبح ممثّلة... سوف تمثّل بلقب «مينو».

الممثّلون، وقد شعروا بشيء من الدهشة من ظهور أخت لرفيقتهم اللطيفة مادلين من مكان ما فجأةً، مفكّرين في سبب كون هذه الأخت لم تترعرع في باريس بل في الريف، سرعان ما اعتادوا وجود الفتاة، ومينو دخلت عائلة الممثّلين.

فيما يتعلق بـ«الطائش» لم يكن الممثّلون مخطئين؛ فقد مُثّلت المسرحيّة في كانون الثاني عام ١٦٥٣[١]، ولم تحقّق نجاحاً كبيراً فحسب بل كان نجاحها خارقاً لدى سكّان «ليون». وهنا، أمام صالة لعب الكرة في «ليون»، كانت هناك حاجة بالفعل إلى رصيف ليونار أوبري الدَّمِث! لقد تسرّع السيّد موليير كثيراً، في شبابه، ببناء رصيف «خندق دونيل».

بعد العروض الافتتاحيّة هرع الجمهور إلى الصندوق من كلّ حدبٍ وصوب. وحدث مرّة أنّ اثنين من النبلاء تشاجرا شجاراً مميتاً في الزّحام، وتبارزا. باختصار، تدفّق الجمهور إلى موليير بحيث إنّ فرقةً جوّالة تعود لشخص اسمه ميتالات، كانت متواجدة في المدينة آنذاك، أدركت أنّ أغنيتها قد أُنشدت، وأنّها قد أخفقت.

---

(١) يخطئ الكاتب بخصوص هذا التاريخ، فقد أقيم العرض الأوّل لكوميديا «الطائش» في ليون، عام ١٦٥٥. (المحرر).

Twitter: @ketab_n

حلّ ميتالات فرقته وهو يلعن الفتى موليير بغضب، وجاء أفضل ممثّليه إلى موليير طالبين الانضمام إليه.

حصل السيّد موليير على هدية قيّمة من السيّد ميتالات الذي خنقه بـ«طائشه»، فقد جاءت إلى موليير السيّدة كاترين ليكلير دي روزيه - نسبتها بعد الزواج دي بري - وعلى الفور تمّ قبولها لتمثيل أدوار العشيقات. قُبِلت على الفور! لأنه كان معروفاً أنّ السيّدة دي بري ممثّلة بارعة. وقد اقترحت السيّدة دي بري زوجها، الذي يمثّل أدوار «الزعران»، فانضمّ إلى فرقة موليير مع زوجته رغم أنّه لم يكن ممثّلاً قديراً لكن كان قبول زوجها ضرورياً للحصول على كاترين دي بري.

في إثرها جاءت سيّدة شابّة جدّاً لكنّها كانت ذائعة الصيت في كلّ مكان مثّلت فيه، هي السيّدة دي غرلا التي كانت تحمل اسماً مزدوجاً هو تيريزا مركيزا. هي ابنة ممثّل مسرحيّات هزليّة شعبيّة، وهي أيضاً كانت تمثّل في مسرحيّات هزليّة شعبيّة في طفولتها، وفي شبابها صارت ممثّلة تراجيديّة من الطراز الأوّل وراقصة لا نظير لها.

أثار ظهورها في فرقة موليير الهرج والمرج؛ فقد فتن جمالها ورقصها الممثّلين، إذ كانت حظوة تيريزا مركيزا لدى الرجال «تفتل الرؤوس».

كان ظهور دي بري ودي غرلا ضربة قويّة لمادلين، إذ لم تكن لها منافسات حتى الآن، وفي «ليون» ظهرت اثنتان معاً، وكلتاهما قويّتان بصورة استثنائيّة. أدركت مادلين أنّ عليها التنازل عن الأدوار الرئيسة، وهذا ما حدث؛ فمنذ التحاق نجمتا «ليون» بالفرقة ذهبت مادلين إلى

Twitter: @ketab_n

أدوار الخادمات في حين باتت دي بري تلعب أدوار العشيقات، أمّا الأدوار النسائيّة الرئيسة في المسرحيات التراجيدية فقد صارت من نصيب تيريزا مركيزا.

لم يكن جرح مادلين الآخر أقلّ عمقاً؛ فقد كان جان باتيست أوّل من سقط صريع جمال تيريزا مركيزا، فقد استحوذ هواها عليه، وراح يبذل جهده لكي تبادله المشاعر. وعلى مرأى من مادلين، التي احتملت كافّة مصاعب حياة التجوال، جرت مغامرة موليير الغراميّة. لكن، التوفيق لم يحالفه؛ فقد رفضت الراقصة والممثّلة العظيمة موليير، وتزوّجت دوبارك البدين، مثيرةً ذهول الجميع باختيارها هذا. إلا أنّ موليير لم يعد إلى مادلين بعد ذلك. وقيل إنّ مغامرة غراميّة ثانية جرت بعد مغامرة تيريزا مباشرةً، وكان هذا صحيحاً، وكانت مع السيّدة دي بري. وهذه المغامرة تكلّلت بالنجاح، ويبدو أنّ دي بري اللطيفة والوديعة، المليئة بما يناقض تيريزا مركيزا المتغطرسة والمخاتلة، كانت عشيقة جان باتيست السرّيّة.

حين همدت الأهواء وأُعيد توزيع الأدوار من جديد، وعندما نُسيت، بعض الشيء، مرارة المشاهد الليليّة بين مادلين المُهانة وموليير، وسّعت الفرقة المتعاظمة من عملها على نطاق واسع، إلى «ليون» وضواحيها، فمثّلت «الطائش» بنجاحٍ ساحق، ومن بين المسرحيّات الأخرى تجب الإشارة إلى «أندروميدا» كورنيل، التي مثّلت فيها الفتاة مينو، التي حصلت على دور «إفير» الصغير جدّاً، لأوّل مرّة، وقد عالجت الفتاة بعضاً من سطور النصّ بشكل جيّد جدّاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٩
الأمير كونتي يعتلي الخشبة

أثناء تنقّل فرقتنا الجوّالة من مدينة إلى أخرى جرت في فرنسا أحداث كثيرة، إذ لم يعد هناك وجود للكاردينال ريشيلو الكلّيّ القدرة، ولا للملك لويس الثالث عشر الخاضع له. فقد مات ريشيليو بعد مقتل الفارس سانك مارس بقليل، في أواخر عام ١٦٤٢، وفي أيّار عام ١٦٤٣ رحل عن الأرض كذلك الملك لويس الثالث عشر، وهو يلفظ عبارته الأخيرة: «إنّ حياتي تُثقل على روحي».

صار لفرنسا ملك جديد، لكنّ عمره كان بضع سنوات فحسب.

وُلد لويس الرابع عشر بعد أن أنجبت مادلين ابنتها فرانسواز دي مودين، إن كنتم تذكرون، بفترة وجيزة، وذلك في تشرين الأوّل عام ١٩٣٨. وقد أعلن دويّ المدافع في فرنسا ودخان نيران المشاعل للعالم أجمع قدوم لويس جديد إلى الدنيا. بعد وفاة والده، لويس الثالث عشر، تصدّت والدة الملك الصغير، الملكة آنّ النمساوية، لحكم البلاد. لكنّها، بطبيعة الحال، كانت وصيّة على العرش على الورق فقط، وأصبح الحاكم الفعليّ، مثل الكاردينال ريشيليو، كاردينال آخر، والوزير الأوّل لفرنسا، الصقلّيّ الأصل يولي مازارين، أو جوليو مازاريني.

Twitter: @ketab_n

وبدا كأنّ التاريخ يعيد نفسه. الطبقة الأرستقراطية الفرنسيّة العليا، التي وقف ممثّلوها ضد ريشيليو فيما سبق، وقفت ضدّ مازارين الآن.

سُمّيت المعارضة الـ«فروند». وقد بدأ الأمر من متاريس آب عام ١٦٤٨ في باريس، ثمّ تلت المتاريس معارك دامية. تأزّم الوضع كثيراً بصورة تدريجيّة، واتّسمت الأحداث بالبلبلة، مع تدخّل القوى الأجنبيّة، ومع الخيانات الوطنيّة، ومع انتقال «الفروند» من معسكر إلى آخر، ومع حالات الفرار من الوطن، ومع الأخطار التي باتت تهدّد الطفل لويس الرابع عشر بشكل مباشر.

كان على رأس القوّات المعادية لمازارين الأمير العظيم كونديه ذو السبعة والعشرين عاماً، المكلّل، في ذلك الوقت، بأكاليل الغار كقائد عسكريّ استثنائيّ. وأصبح الوضع شاقّاً على مازارين أكثر من مرّة، وخصوصاً الآن، في النصف الأوّل للفروند. بالإضافة إلى كونديه، وقف ضدّه قائد آخر كان حتى كونديه نفسه يبدو ضئيل الشأن بعض الشيء مقارنةً به، وكان يُدعى هنري دي لا تور دو أوفيرم، مارشال تورين.

بيد أنّ مازارين لم يتجلَّ كسياسيّ بالغ الحنكة والعناد فحسب بل وكقائدٍ مذهل للجيش؛ فقد هزم تورينّ، وبعد ذلك، خالطاً أوراق السياسة بمهارة، كسب المارشال إلى صفّه، وحينها سحق كونديه العظيم بدوره.

في نهاية الصراع، الذي امتدّ خمس سنوات، انتصر الكاردينال انتصاراً لا مثيل له، رغم أنّه لم يكن يتمتّع بالشعبيّة في أوساط الشعب. وخسر كونديه قضيّته؛ فغادر فرنسا، حيث انتقل إلى جانب الإسبان.

Twitter: @ketab_n

أمّا الكاردينال؛ فقد دخل باريس دخولاً مظفراً، ووصلت فرنسا إلى حالة من الاستقرار في ظلّ حكمه.

تجب الإشارة إلى أنّ لويس، رغم صغر سنه، قد استوعب مغزى الأحداث أثناء «الفروند» بشكل رائع، وظلّ يتذكّر، بشكل جليّ، طوال حياته، كيف أنّ الأرستقراطيّة الفرنسيّة كادت أن تحرمه العرش.

وإلى حكاية كوندييه لا بدّ من إضافة أنّه، بعد «الفروند» ببضع سنوات، اصطلح مع مازارين، وتمّ العفو عنه.

ذلك الأمير كونتي ذاته، شقيق كوندييه، الذي عرفناه طفلاً يدرس في مدرسة «كليرمون»، أصبح إبّان «الفروند» شابّاً يعدّ نفسه لممارسة الكهنوت. غير أنّ كونتي، الذي كان يتّصف بالتهوّر وحدّة الطبع، بدلاً من العزوف عن كلّ ما هو دنيويّ، محضّراً نفسه للمهنة الأسمى بين المهن، سار على خطى أخيه، وشارك في «الفروند».

من يحمل السيف عليه أن يكون مستعداً لأيّ شيء، كما هو معروف، وتوجّب على كونتي أن يعاني الكثير جدّاً: فهو لم يشارك في المعارك الدامية فحسب بل وقبع في السجن كذلك. بالمناسبة، وجد كونتي السلام قبل كوندييه، حيث خرج من اللعبة، بل إنّه حتى تصالح مع مازارين إلى درجة أنّه قرّر الزواج بابنة أخيه.

في نهاية عام ١٦٥٣ استقرّ كونتي في قصره «دي لا غرانج» الواقع على مقربة من مدينة «بيزينا» في «لانغيدوك» المباركة، بل وتوفّرت له إمكانية شغل منصب محافظ «لانغيدوك» بصورة مؤقّتة.

في الوقت الذي كان فيه الأمير يرتاح في قصره كان ممثّلونا، الذين لم يكن يعنيهم، بطبيعة الحال، تهديد «الفروند» الذي خيّم فوق البلاد،

Twitter: @ketab_n

بعد مغادرة «ليون»، يتجوّلون على تخوم «لانغيدوك» هذه، وشاء القدر أن يجمع بين زميلين كليرمونيين.

فحوى الأمر أنّ سيّدة تدعى السيدة دي كالفيمون حلّت ضيفةً على قصر كونتي الذي كان لا يزال أعزباً، وهي سيّدة فاتنة كان يعيبها، في رأي الجميع، شيء واحد: غباؤها الاستثنائيّ. متخطِّرة في الحدائق الباهرة التي بالكاد مسّها اصفرار شهر آب، كانت السيّدة دي كالفيمون تشعر بالملل، واشتكت للأمير، بإلحاح، من عدم وجود أيّ عروض مسرحيّة في القصر.

الأمير، مُمتِّعاً ناظرَيه بظلّ السيّدة دي كالفيمون المنعكس بصورة مقلوبة في بحيرة «لانغيدوك»، في معرض ردّه قال ما ينبغي قوله في حالات كهذه، أي إنّ رغبات السيّدة أوامر بالنسبة إليه، واستدعى، دون إبطاء، تابعه المقرّب، الشخص الأكثر جاذبيّةً وثقافةً، السيّد دي كوسناك.

كان دانييل دي كوسناك يعلم بوجود موليير في «لانغيدوك»، وبالنجاح الذي حقّقه؛ فأرسل لفوره رسولاً آمراً إيّاه بالبحث عن مدير الفرقة وتسليمه دعوة فخامته للحضور مع فرقته إلى قصر «دي لا غرانج».

هل هناك حاجة للقول إنّ الكليرموني القديم، الممثّل حاليّاً، لم يتدلّل طويلاً؟ فقد أوقف العروض المسرحيّة مباشرةً، وحمّل الفرقة بجميع أعضائها مع الديكور والإكسسوارات على العربات، وتوجّهت القافلة إلى قصر الأمير.

لكن، ما إن أرسل كوسناك رسوله حتى دنت من القصر فرقة جوّالة

Twitter: @ketab_n

أخرى دون دعوة من أحد، يقودها مشعوذ جوّال خبير، قالع أسنان وممثّل، كان يمارس فنّه يوماً، مثل الآخرين، عند «الجسر الجديد» بباريس، السيّد كورمييه.

عندما تمّ إبلاغ الأمير بوصول إحدى الفرق المسرحيّة ذُهل برضا تامّ من أنّ رغبة السيّدة دي كالفيمون قد تحقّقت بهذه السرعة الخارقة. ودون انتظار أيّ موليير كان، أمر بدعوة الفرقة إلى القصر. فاستدارت الفرقة نحو القصر، وكورمييه الخبير، مدركاً أنّ رفاهيّته كلّها تتوقّف على مدى إعجاب السيّدة دي كالفيمون به، ركع أمامها، بل ويبدو أنّه قدّم لها هدايا.

لكن لم يكد كورمييه يبدأ عبثه ونهمه في القصر حتى أُبلغ دانييل كوسناك بأنّ موليير، المدعو من قِبله، قد وصل مع فرقته، فراح إلى الأمير يستفسره عن أوامره.

فكّر الأمير وقال إنّ بإمكان السيّد موليير أن يعتبر نفسه حرّاً حيث إنّ الحاجة إلى عروضه قد انتفت.

ـ لكن، فخامتكم ـ أجاب كوسناك شاحباً ـ إنّني أنا الذي دعوته. . .

ـ أمّا أنا، كما ترى ـ أجاب الأمير ـ فقد دعوت كورمييه، وسلِّم بنفسك أنّ من المريح أكثر أن تنكث أنت بوعدك من أن أفعل أنا.

انطلق كوسناك بخطى بطيئة جدّاً للتفاهم مع موليير القادم.

أمام مدخل القصر كان يقف شخص مغطى بالغبار، ذو شفتَين عريضتَين وعينَين متعبتَين، ينتعل «جزمةً» بيضاء اللون. وخارج بوابات القصر كانت تلوح قافلة طويلة جدّاً. وعلى أيّ حال، فإنّ كوسناك لم ينظر لا إلى القادم ولا إلى القافلة، فقد كان وجلاً من رفع عينيه.

Twitter: @ketab_n

ـ أنا موليير ـ قال الرجل بصوتٍ خفيض خالعاً قبّعته ـ وقد جئنا بناءً على أوامر فخامته.

كوسناك، وهو يأخذ نفساً عميقاً، محرّكاً لسانه بالكاد، قال الكلمات التالية:

ـ الأمير... أمر... بإبلاغ السيّد موليير... أنّه قد حدث سوء فهم مؤسف... ففرقة أخرى تُمثّل في القصر الآن... يطلب الأمير أن تعتبروا أنفسكم... إنّه يريد أن يقول لكم إنّكم أحرار.

وحلّ الصمت.

تراجع الرجل خطوةً دون أن يرفع عينَيه عن كوسناك، واعتمر قبّعته. رفع كوسناك عينَيه إلى القادم الذي شحب لونه.

صمتا ثانيةً.

حينها قال الرجل، محوّلاً نظرته نحو أنفه:

ـ لكن تمّت دعوتي.. وأنا..، مشيراً إلى العربات، أوقفت العروض، وحمّلت الديكور. برفقتي نساء ـ ممثّلات.

ظلّ كوسناك صامتاً.

ـ أرجو ـ قال الرجل بادئاً بالثأثأة ـ أن تدفعوا لي ألف «إكو» فقد تكبّدت خسائر فادحة، أوقفت العروض وأحضرت الناس.

مسح كوسناك العرق عن جبينه، وطلب إلى الرجل بذلّ أن يجلس على المقعد ريثما يُبلّغ الأمير بما قاله الرجل.

ذاك تراجع بصمت، وجلس على المقعد، وراح يحدّق في الأرض. أمّا كوسناك فقد ذهب إلى مخدع الأمير.

Twitter: @ketab_n

ـ إنه يطلب ألف «إكو» تعويضاً عن النفقات ـ قال كوسناك.

ـ يا له من سخف ـ أجاب الأمير. لا يحقّ له أيّ شيء على الإطلاق. أرجو أن تكفّ عن الحديث في هذا الموضوع، فقد سئمته.

خرج كوسناك من عند الأمير، لكن ليس إلى الرجل بل إلى غرفته، فأخذ ألف «إكو» من ماله الخاصّ، وأحضرها إلى موليير. شكره ذاك، ووضع المال في محفظةٍ جلديّة. حينها قال كوسناك إنّه شديد الأسف لأنّ كلّ شيء قد انتهى بصورة غير لائقة... وفجأةً اقترح، بإلهام، على السيّد موليير التوقّف في بلدة «بيزينا» القريبة، وتقديم عروضه هناك. وهو ـ كوسناك ـ سيفعل كلّ شيء: سوف يحصل على الصالة والترخيص...

فكّر السيّد موليير ووافق. وتوجّه كوسناك مع القافلة إلى «بيزينا»، وباسم الأمير حصل على الصالة والترخيص، وعرضت الفرقة مسرحيّة «الطائش» مثيرةً ذهول سكّان «بيزينا» بفنّها.

سرعان ما بلغ خبر الحدث غير المسبوق أذنَي المحافظ. وأعلن الأمير فوراً أنّه يتمنّى رؤية هؤلاء الممثّلين الممتازين عنده.

توجّب على الممثّلين نسيان الإساءة بسرعة، وأحضر الكليرموني الفرقة إلى القصر دون إبطاء. مُثّلت مسرحيّة «الطائش» بحضور الأمير وحاشيته والسيّدة دي كالفيمون ـ لسوء حظّ كورمييه المسكين. لم يعد هناك مجال للحديث عن صمود كورمييه بعد ذلك. فممثّلوه، بملابسهم الرثّة، الضعفاء في فنّهم، ما كانوا ليحلموا بمقارعة آل دوبارك ودي بري ومادلين وموليير نفسه، بملابسهم الفاخرة بفضل الأموال التي جنوها في «ليون».

Twitter: @ketab_n

تصوّروا، كان من الممكن جدّاً أن يغادر موليير القصر، وأن يبقى كورمييه، لأنّ الجميع ثمّنوا روعة المسرحيّة باستثناء السيّدة دي كالفيمون وحدها. فقد كانت تنظر ببلاهة إلى الممثّلين «الليسيين» دون أن تفهم أيّ شيء. لحسن الحظّ، سكرتير الأمير، الذكيّ والمهذّب، الشاعر سارازين، أنقذ الموقف. فقد عبّر عن إعجابه الشديد بتمثيل الممثّلين وملابسهم، وأسرّ للأمير أنّ فرقة السيّد موليير سوف تكون زينةَ قصره، ممّا دفع بالأمير المتذمّر بأن يأمر بطرد فرقة كورمييه المسكين ودعوة فرقة موليير للخدمة لدى الأمير بصورة دائمة، مع حقّها بأن تدعو نفسها فرقة بلاط الأمير أرمان بوربون دي كونتي، وطبعاً، بتخصيص معاش ثابت للفرقة.

لا بدّ من إضافة أنّ أقوال سارّازين عن فرقة موليير كانت ملتهبة بصورة مضاعفة، إذ لم يكن سرّاً أنّ سارّازين، مثل الآخرين، قد أحبّ تيريز دو بارك حبّاً قاتلاً منذ اليوم الأوّل.

كورمييه المسكين، مع ممثّليه، بملابسهم الرثّة، «انقلع» وهو يلعن موليير، وبالتالي فقد حلّت أيّام ذهبيّة حقّاً في «لانغيدوك» إلى الفرقة.

الألكن الماكر، وكأنّما سحرَ الأمير. فقد كانت العروض تجري دون انقطاع، وكانت شتّى أنواع الخيرات تنهمر بتيارٍ لا ينقطع على موليير وممثّليه. وعند الحاجة إلى التنقّل في «لانغيدوك» كان الأمير يقوم، بطيب خاطر، بمصادرة العربات والخيول لنقل المعدّات والممثّلين أنفسهم. قدّم الأمير المال. أبدى الأمير شتّى أشكال الرعاية الممكنة.

Twitter: @ketab_n

الفنّ يزدهر في ظلّ السلطة القويّة!

في تشرين الثاني عام ١٦٥٣ سافر الأمير، مجتازاً «ليون»، لكي يتزوّج ماريا آنّا مارتينوزي، ابنة أخي مازارين، كما سبق القول. فرافقت فرقة البلاط الأمير حتى «ليون»، حيث بقيت لتقديم العروض، بينما تابع الأمير طريقه إلى باريس. وبعد زواج الأمير بمارتينوزي عاد إلى قصره في «لانغيدوك».

في كانون الأوّل عام ١٦٥٤، انعقد مجلس الولايات في مدينة «مونبلييه». وقد حضر النبلاء وكبار رجال الدين لمناقشة المسائل الماليّة، كالعادة، مع ممثّلي السلطة المركزيّة، ولكي يجادلوهم مدافعين عن مصالح الأقاليم. النوّاب، الذين كانوا يحصلون على رواتب كبيرة أثناء انعقاد مجالس الولايات، كانوا يحبّون هذه الفترة من السنة. بصورة عامّة، كانت الحياة في المدينة تغدو صاخبة دائماً أثناء انعقاد مجالس الولايات. بطبيعة الحال، حضرت فرقة موليير إلى «مونبلييه»، وباشرت تقديم العروض لأجل النبلاء المحترَمين.

شخص واحد فقط من حاشية الأمير لم يتمكّن من التمتّع برؤية النوّاب المتألّقين، ولا بمشاهدة مسرحيّات السيّد موليير. وهذا الشخص كان سكرتير الأمير السيّد سارازين؛ فقد توفي في كانون الأوّل عام ١٦٥٤ من جرّاء حمّى ناكهة، كما قيل. إلا أنّ الناس الفضوليّين في «لانغيدوك» راحوا يتهامسون فيما بينهم بأنّ الأنباء المتعلّقة بأسباب موت سارازين محض هراء. حسناً! ربّما مات بسبب الحمّى لكن لعلّه أُصيب بهذه الحمّى لأنّ الأمير، الذي بات ينفر من سارّازين في الآونة الأخيرة، ضربه بكسّارة حجريّة على صدغه عندما احتدم الحديث

Twitter: @ketab_n

بينهما. أيّاً كان الأمر؛ فقد جرّ موت سارازين وراءه اقتراحاً مثيراً للدهشة اقترحه الأمير على موليير. حيث اقترح عليه بالذات أن يصبح سكرتيره بدلاً من المتوفّى، فقد راق له الممثّل المثقّف.

توجّب على موليير أن يبذل جهداً كبيراً لكي يتخلّص من هذه الدعوة المادحة بألطف الأشكال، فتذرّع بأنه ليس مؤهّلاً، من الناحية البدنيّة، لأن يكون سكرتيراً.

مرّ الرفض بسلام، وراحت الفرقة تقدّم عروضها المسرحيّة في مونبلييه.

دارساً الأمير جيّداً، ألّف موليير، بالاشتراك مع جوزيف بيجار، باليه مُسلٍّ مع قليل من التمثيل المرح. تمّ عرض هذا الباليه لأجل الأمير والأميرة في كانون الأوّل، حيث حقّق النجاح الأكبر مُبتكِر هذا العمل السيّد موليير، الذي مثّل دور تاجر سمك رنكة، مصحوباً بضحك الجمهور الهادر.

في حين حالف الحظ جوزيف بيجار في أمر آخر، إلى جانب النجاح الذي كان من نصيبه على المقطوعات الشعريّة التي قام بتأليفها. فجوزيف الدؤوب والنبيه، والذي لديه ميل إلى الدراسات التاريخيّة، ألّف ديواناً مفصّلاً ذا طابع وصفيّ للشعارات والدروع، احتوى على كلّ الدلائل الجينيالوجيّة الممكنة، وكذلك على وصف لأعلام وشعارات بارونات وأحبار ولايات «لانغيدوك» المجتمعين في عام ١٦٥٤.

أهدى بيجار هذا الديوان للأمير بالطبع، وحصل من النوّاب الموقّرين على مبلغ مُعتبَر على تأليفه. صحيحٌ أنه ترافق مع تلميحٍ إلى أنّ من الأفضل لو أنّ بيجار يقوم بتأليف دواوين من هذا القبيل فقط في حال طُلب إليه القيام بذلك.

Twitter: @ketab_n

عندما انتهت مجالس الولايات توجّه موليير مع الفرقة إلى «ليون»، وهنا ظهر شخص مدهش بين الممثّلين. كان يُدعى شارل كوبو داسّوسي، وكان قد تجاوز الخمسين من العمر. كان داسوسي يتسكّع عبر فرنسا برفقة مخلوقَين فتيَّين يرتديان ملابس الرجال. الألسن الخبيثة كانت تؤكّد أنّ تحت هذه الملابس هناك فتاتان، والألسن الأكثر خبثاً كانت تقول إنّ الأمر أسوأ من ذلك، وإنّهما صبيّان حقّاً.

كان داسوسي يتجوّل وآلة البزق في يدَيه، مغنّياً مع الولدَين أغنيات ومقطوعات شعريّة من تأليفه، وكان يسمّي نفسه إمبراطور المازحين. كلّ المال الذي كان يكسبه الشاعر والموسيقيّ الجوّال داسوسي، من مهنته الظريفة، كان ينفقه في بيوت القمار والحانات. بصورة خاصّة، لم يحالفه الحظ في صيف عام ١٦٥٥. إذ إنّ بعض محتالي القمار كسبوا منه حتى آخر قرش، تاركين له فقط البزق وصبيَّيه الاثنين. متوقّفاً في «ليون»، جاء داسوسي إلى موليير لكي يعبّر عن سعادته بمناسبة الالتقاء بالفنانين، وليقوم بزيارة لائقة قصيرة. وقد امتدّت هذه الزيارة القصيرة حوالى اثني عشر شهراً.

ما يهمّنا هو أنّ مجيء داسوسي هو شهادة جليّة على مدى رفاهيّة الأخويّة الموليريّة. خلال عامين من رعاية الأمير كونتي لهم كسبوا الكثير من المال، وزاد نصيب الممثّلين، وخبت في الذاكرة المبيتات الباردة في مخازن القشّ والانحناءات المذلّة للسلطات المحليّة. موليير ورفاقه وصديقاته عاشوا في «ليون» في شقق جيّدة، وتوفّر لديهم فائض من النبيذ، واختبروا الشعور بالقيمة الذاتيّة، ووجدوا لطفاً لا حدود له.

نال إمبراطور المازحين إعجاب الممثّلين، وانتقل للعيش معهم

Twitter: @ketab_n

كواحد منهم. وهو، مقابل ذلك، تغنّى بهم بأفضل قصائده الشعريّة والنثريّة.

ـ يُقال ـ كان داسوسي يقول عند كل مفترق طرق ـ إنّ أفضل الأخوة يملّ من إطعام أخيه بعد شهر، لكنّي أؤكّد لكم أنّ هؤلاء أكرم من كلّ الأخوة مجتمعين!

كان داسوسي يُنشد قصائد تكون قافياتها كلمات مثل «فريق» و«تناغم»[1] وحيثما اشتملت القصيدة على إشارة توحي بأنّه فقير، كان يجلس إلى الطاولة عند الأخوة فتُقدّم له سبعة أو ثمانية أطباق من الطعام.

أكثر الأوقات مرحاً أثناء هذه الغداءات كان يبدأ بعد الطبق الأخير بالتحديد، الطبق الثامن، عند الإمبراطور الذي لا تنضب قريحته، حيث يغنّي بمصاحبة موليير أغنيات مرحة أو يلقي النكات، وهو يسكب النبيذ في الأقداح. قصارى القول، كانت تلك الفترة ساحرة في «ليون»!

بطبيعة الحال، عندما توجّه الممثّلون إلى «أفينيون»، خريف عام ١٦٥٥، رافقهم داسوسي. سافرت الأخويّة بزوارق خشبيّة عبر نهر «الرون»، والنجوم تضيء لهم. وكان داسوسي يعزف لهم على بزقه الكثير الأوتار حتى ساعة متأخّرة من الليل.

بعد مرور شهر على إقامة الممثّلين في «أفينيون» استدعاهم الأمير إلى مدينة «بيزينا»، كذلك إلى مجلس الولايات.

في ٩ كانون الثاني، كان النوّاب شهوداً على حدث استثنائيّ. فقد

(١) «كومباني» و«هارموني».

Twitter: @ketab_n

تمّ إعداد مسكن لمعالي الأمير كونتي في منزل السيّد دي ألفونسو. حضر أساقفة المدن القريبة، بكامل كسوتهم، بأرديتهم، يرافقهم ممثّلو النبلاء بشخص البارونين دي فيلنيف ودي لانتا ببزّات المراسم، إلى منزل دي ألفونسو لكي يرحّبوا بمعاليه.

خرج الأمير إلى النوّاب لكنّه استقبلهم عند باب الردهة، معتذراً ومتذرّعاً بأنّه لا يستطيع إدخالهم حيث إنّ هناك فوضى مخيفة في الغرف بسبب عرض مسرحيّة كوميديّة للسيّد موليير.

يصعب عليَّ تصوير وجوه النوّاب، والأساقفة بشكل خاصّ. لكن، طبعاً، لم يقل أحد للأمير شيئاً بخصوص الفوضى في الغرف، وبعد أن نطقوا بالمجاملات اللائقة لمعاليه، بمناسبة بدء مجالس الولايات، انصرف النوّاب صامتين صمت القبور.

مثّلت الفرقة في «بيزينا» لعدّة أشهر، وطلب موليير لقاء إقامته في المدينة الحصول على ستّة آلاف ليرة مُخصَّصة لفرقته من صندوق ولايات «لانغيدوك».

تميّزت إقامة موليير في «بيزينا» ببعض التصرّفات الغريبة؛ فقد صادق شخصاً محترماً من السكّان المحليّين، وأفضلَ حلاّق، هو ال«ميتر» جيلي.

كان دكّان «الميتر» يتمتّع بشعبيّة واسعة في «بيزينا». في أيّام السبت خاصّةً كان باب صالون الحلاقة يصفق دون انقطاع، حيث كان يأتي اللحامون والخبّازون والموظّفون البيزينيون، وكافّة فئات الشعب الأخرى. وفي الوقت الذي كان فيه شغّيلة «الميتر» جيلي يقتلعون أسنان الزبائن أو يحلقون لهم، كان البيزينيون الذين ينتظرون دورهم، يثرثرون

Twitter: @ketab_n

ويتنشّقون التبغ. ولم يكن من النادر أن تأتي فتاة ما راكضةً وتقول، محمرّة الوجه، إنّها قد تلقّت رسالة من حبيبها الذي في الجيش. كان الجميع يشاركون في هذا الحدث، ويقرأون الرسالة جهراً بناءً على طلب الفتاة الأُمّيّة التي تُعرِب عن ارتياحها إذا كانت الرسالة تتضمّن أنباء مُفرِحة أو، على العكس، عن أسفها إذا ما وُجِد فيها شيء محزن. قصارى الكلام، كان دكّان «الميتر» جيلي أشبه بنادٍ ما.

وهكذا، طلب موليير إلى جيلي استضافته في أيّام السبت لكي يساعده في عَدّ حصيلة الصندوق. قدّم جيلي المضياف للمدير مقعداً خشبياً قرب المكتب لكي يجلس عليه وهو يتناول النقود الفضيّة. غير أنّ «الميتر» جيلي أخبر الجميع سرّاً أنْ لا علاقة للغلّة هنا، وأنّ الأمر مجرّد عذر للقيام بأعمال أخرى تخصّ مدير فرقة كونتي. وقد تبيّن أنّ هناك دائماً، تحت طرف قفطان المدير، جداول فارغة يسجّل فيها، في الخفاء، كل ما هو ممتع ممّا يثرثرون عنه في صالون الحلاقة. لكنّ «الميتر» لم يكن يعلم سبب قيام المدير بذلك. لكن، سواء كان الحلاّق جيلي يقول الحقيقة أم لا، في كلّ الأحوال وصل المقعد الخشبيّ من صالون الحلاقة إلى المتحف في النهاية.

أثناء وجودها في «بيزينا»، كانت الفرقة تزور البلدات المجاورة بين الحين والآخر. وفي خريف عام ١٦٥٦ توجّهت إلى مدينة «ناربونو» حيث غادرهم «التروبادور»[١] أخيراً. ثم تواجد الممثّلون مرّة أخرى في «ليون»، مقرّهم الدائم، ومن ليون انطلقوا إلى مدينة «بيزينا» ليقوموا بتسلية نوّاب الولايات المجتمعين فيها مرّة أخرى.

---

(١) التروبادور: منشد الملاحم الشعبية.

Twitter: @ketab_n

في «بيزينا» جرت بعض الأحداث. حيث قدّم موليير العرض الأوّل لمسرحيّته الجديدة التي عنوانها «آلام الحبّ». وقد كتب هذه التحفة الخماسيّة الفصول بتأثير واضح من المؤلّفين الإسبان والطليان، ويُقال إنّها كانت أكثر كمالاً من مسرحيّته الكوميديّة «الطائش»، ولكنّها، في بعض المواضع، تضمّنت قصائد ثقيلة الوطء، وخاتمتها كانت غير طبيعيّة ومبلبلة جدّاً. لكن حيث إنّ المواضع الرديئة كانت غارقة بين حشد من المشاهد الطريفة والحاذقة، فقد راهن الممثّلون على نجاحٍ كبير، ولم يكونوا مخطئين.

مدير المسرح بدأ من حيث انتهى في «بيزينا»، وأوّل ما قام به هو أنّه أرسل بطاقات مجانيّة لعرضه الافتتاحيّ إلى جميع نوّاب الولايات لكنّه تلقّى منهم صدّاً مرعباً، فقد أعاد النوّاب البخلاء البطاقات إلى المدير، وكان السبب مفهوماً. كان النوّاب يعلمون أنّ الفرقة، بعد فترة وجيزة، سوف تُتبع ذلك بطلب إعانة ماليّة، وقرّروا إيقاف ذلك. شعر المدير أنّه لن يوقّع بعد الآن، على الأرجح، على إيصال لاستلام بضعة آلاف من الليرات من صندوق الولايات، وكعادته، صبّ لعناته على النوّاب وقام، عامداً، بعرض المسرحيّة للجمهور البسيط. أحاط الجمهور بالتصفيق «آلام الحبّ» التي لعب فيها موليير دور الأب ألبير.

مغادراً «بيزينا» غير المضيافة، زار موليير «ليون»، ثم «نيم» و«أورانج» و«أفينيون»، حيث مثّل «الآلام» بتألّق.

في «أفينيون»، عام ١٦٥٧، جرى لقاءين اثنين. فقد التقى المدير صديقه الكليرموني القديم شابيل. تعانق المستمعان السابقان للفيلسوف غاسيندي بمودّة. تذكّرا الأبيقوري، وفسّرا نهايته المرعبة: الأطبّاء الملعونون قتلوا غاسيندي بحجاماتهم.

Twitter: @ketab_n

اللقاء الثاني لعب دوراً هائلاً في حياة موليير اللاحقة. فقد توقّف في «أفينيون»، عائداً من إيطاليا، الفنّان التشكيليّ المعروف بيير مينيار؛ حيث كان عليه أن يرسم قوس نصر لمدينة «أورانج» وصورة شخصيّة لماركيزة ما. بعد تعارفهما، مينيار وموليير تآلفا بسرعة وأُعجِبا ببعضهما كثيراً، ورسام البورتريهات اللامع قام برسم موليير بعدّة أشكال.

حيث إنّ صيف عام ١٦٥٧ كان حارّاً بصورة غير عاديّة، فقد سافرت الفرقة لبعض الوقت إلى «ديجون» في الشمال، وفي الشتاء عادت إلى «ليون». وفي «ليون» جرى لقاء بين الكليرمونيّين القديمَين، الأمير أرمان بوربون دي كونتي وموليير، اللذين لم يريا بعضهما بعضاً منذ فترة طويلة.

أرسل مدير الفرقة بفرح إلى الأمير، لكنّ اللقاء لم يتمّ. الأمير ليس فقط لم يكن راغباً في رؤية المدير وممثّليه بل حتى إنّه أمر بنزع اسم كونتي الذي منحه للفرقة عنها. آخ، في حياة التمثيل لا توجد ورود فقط بل وأشواك أيضاً! مدير الفرقة، المبصوق عليه، انتظر تفسيراً، وسرعان ما ظهر. فقد تبيّن أنّ كلّ شيء قد انقلب رأساً على عقب في نفس معاليه. «الفروندي» السابق، ومحبّ المسرح المتحمّس بعد ذلك، تبيّن أنّه الآن محاط بالإكليروس، وغارق في دراسة المسائل الدينيّة ـ الأخلاقيّة.

أحد الأساقفة، كان يتمتّع بموهبة عظيمة في الخطابة، انتبه بجديّة إلى شغف الأمير بالمسرح، وخلال زيارته نجح في أن يوضّح له أنّ الإنسان، مهما سمتْ المكانة التي يشغلها في العالم، يجب عليه، رغم ذلك، التفكير في خلاصه الروحيّ أكثر من أيّ شيء آخر. وإذا كان

Twitter: @ketab_n

يفكّر في ذلك فعليه، قبل أيّ شيء آخر، أن يفرّ من المسرحيّات الكوميديّة فراره من النار حتى لا يسقط في النار الأبديّة من جرّاء ذلك. وقد حصل الأسقف على الكثير جدّاً من البراعم من البذور التي زرعها في نفس الأمير كونتي. فقد هضم كونتي مواعظ الأسقف وأعلن للمقرَّبين إليه أنّه، من الآن فصاعداً، يخشى حتى رؤية الممثّلين الكوميديّين.

ـ أقوياء العالم ليسوا راسخين! قال موليير لمادلين. لكنتُ نصحت كلّ الممثّلين هذه النصيحة: إذا وجدت نفسك محاطاً بالكرم فخذ كل ما يُعرض عليك فوراً. لا تضيّع الوقت، «اضرب الحديد وهو حام». غادر من تلقاء ذاتك، لا تنتظر إلى أن يطردوك بخشونة! وعموماً، مادلين، علينا التفكير بالأمور الأكثر أهميّةً. أشعر أنّه قد حان الوقت لكي نغادر «لانغيدوك». يجب علينا أن. . .

ومرّة أخرى، مثلما حدث منذ زمن بعيد في باريس بعد انهيار «المسرح المتألّق»، راح الحبيبان السابقان يتهامسان.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٠

احترسوا أيها البورغونيون ـ موليير قادم!

بشكل عامّ، كان صيف عام ١٦٥٧ فترة هيجان عامّ في الفرقة، وتهامسات بين الممثّلين، واجتماعات سرّيّة دائمة بين موليير ومادلين، التي كانت العبقريّة الماليّة للفرقة. في هذه الفترة أجرت مادلين، أكثر من مرّة، مباحثات مع مختلف الناس ذوي الشأن في باريس، لكن فيمَ كان الأمر، لم يكونوا في الفرقة يعرفون بعد.

في مطلع العام التالي، عام ١٦٥٨، سافرت الفرقة إلى «غرينوبل»، حيث مثّلت أثناء الكرنفال، ثمّ تواجدت في «ليون» للمرّة الأخيرة، وفجأةً قادها موليير، مجتازاً فرنسا كلّها دون أن يتوقّف في أيّ مكان، إلى مدينة «روان». وقد مرّ مع قافلته ليس بعيداً عن باريس لكنّه حتى لم يلتفت برأسه نحوها. وصل «روان»، التي جاء إليها قبل خمسة عشر عاماً مع «أطفال العائلة» العديمي الخبرة، لكي يُمثّل في مهرجان «روان».

كان الأمر مختلفاً كليّاً الآن؛ فقد جاء الممثّل ابن السادسة والثلاثين الأكثر خبرةً، الكوميديّ من الطراز الأوّل، يرافقه ممثّلون رائعون. ففي الفرقة كانت هناك نجمات حقيقيّات بين النساء: عشيقته السابقة مادلين،

Twitter: @ketab_n

وعشيقته الحاليّة دي بري، وتيريزا ماركيزا دوبارك التي رفضته. الفرقة المسكينة، التي تغلّبت بصعوبة على دمى الفينيسي البائسة، كانت تتجوّل عبر فرنسا ضاربةً بسيفٍ مميت كلّ فرقة تلتقيها من الفرق الجوّالة. فقد تركوا وراءهم في الجنوب ميتّالات وكورمييه مجندلَين، وفي الشمال كان ينتظر موليير بهلع مدير فرقة كانت تمثّل في «روان»، هو فيليبر غاسّو سيور دي كروازي.

اقتحمت أخبار موليير «روان» مثل النار. دخل موليير «روان»، شغل صالة «لي دو مور»، وباشر عروضه المسرحيّة. قبل أيّ شيء آخر، التقى موليير المشهور هنا بأفضل دراماتورغيي فرنسا بيير كورنيل، ذاك نفسه الذي مثّل موليير مسرحيّاته منذ زمن بعيد. وقد قال كورنيل إنّ فرقة موليير رائعة! ولا توجد حاجة لإضافة أنّ كورنيل قد أحبّ تيريز دوبارك.

بعد ذلك هلكت فرقة فيليبر دي كروازي، مثل فرقة ميتّالات. وقد تصرّف دي كروازي النبيل، الإنسان الأكثر لطفاً وفنان الصفّ الأوّل المُختلِف الطباع، بشكل صحيح جدّاً. فقد حضر إلى موليير، وهو دعا سيور دي كروازي للانضمام إليه مباشرةً.

ممثّلاً في الصالة الموريتانيّة، ومقدّماً بين الحين والآخر عروضاً لصالح «بيت الله» في «روان»، سحر موليير المدينة نهائيّاً. بعد ذلك، ودون أن يقول أيّ شيء لأحد في الفرقة باستثناء مادلين بالطبع، تواجد موليير ثلاث مرّات في باريس خلال الصيف.

بعد عودته في المرّة الأخيرة من العاصمة، كشف موليير أخيراً خطّته للفرقة. فقد تبيّن أنّه تغلغل إلى دوائر البلاط، معتمداً على بعض

Twitter: @ketab_n

التوصيات المادحة، وحصل على ما عرضه عليه معالي فيليب الأورلياني، الأخ الوحيد للملك الحاكم الآن لويس الرابع عشر.

الممثّلون الشاحبون استمعوا إلى المدير بصمتٍ مطبق.

حينها قال موليير المزيد. قال إنّ الأخ الوحيد للملك، حين سمع عن فرقته، قرّر وضعها تحت رعايته، ومن المُحتمَل جدّاً أن يعطيها اسمه.

عندها طارت قلوب الممثّلين، وبدأت أيديهم ترتعش، وومض البريق في عيونهم، وهدرت كلمة «باريس!» في الصالة الموريتانيّة.

بعد أن خمد صراخ الممثّلين أمر موليير بتحميل الأثاث، ومغادرة المكان والتوجّه إلى باريس.

كان غروب عام ١٦٥٨ خريفيّاً عندما كانت العربات المسرحيّة تقترب إلى العاصمة. كانت أوراق الشجر الأكتوبريّة تتساقط في الدغل، وها من بعيد ظهرت أسطح البيوت المُدبَّبة الزوايا، والأسوار العالية. كانت الضواحي بلونها الأسود من القرب بحيث بدا أنّ بالإمكان لمسها باليد.

أوقف موليير القافلة ونزل من العربة لكي يمرّن قدميه. ابتعد عن القافلة قليلاً وراح ينظر إلى المدينة التي طردته، مُحطَّماً ومُهاناً، قبل اثني عشر عاماً. تواردت مِزَق الذكريات إلى دماغه، وللحظة شعر بالخوف، وانجذب إلى الوراء، إلى نهر «الرون» الدافئ، وتناهى إلى مسامعه خرير أمواج «الرون» عند مؤخّرة القارب، وصوت أوتار إمبراطور المازحين. بدا له أنّه قد صار عجوزاً، وشعر بالقشعريرة حين فكّر أنْ ليس لديه في العربات شيء سوى مسرحيّات هزليّة ومسرحيّتيه

Twitter: @ketab_n

الكوميديَّتَين الأوّليّتَين. فكّر في أنّ أقوى ممثّلي البلاط يُمثّلون الآن في «أوتيل بورغون»، فكّر في سكاراموجّي العظيم، معلّمه السابق، وبأنّ في باريس هناك باليه متألّق.

وحنّ إلى «ليون»، إلى الشقّة الشتويّة القديمة... وصيفاً، إلى البحر الأبيض المتوسّط... أخافه فجأةً شبح السجن الكريه والرطب الذي كاد أن يبتلعه قبل اثني عشر عاماً، وقال لنفسه، محرّكاً شفتَيه:

ـ هل أعود أدراجي؟ أجل، سأعود أدراجي...

التفت بحدّة، وذهب إلى مقدّمة القافلة فرأى رؤوس الممثّلين والممثّلات الممدودة من العربات، فقال للذي في المقدّمة:

ـ وإذاً، إلى الأمام!

Twitter: @ketab_n

الفصل ١١

برو ـ ها ـ ها!!!

في صالة «دي غارد» الكبيرة، وهي صالة «دي كارياتيد»، في قصر اللوفر القديم، في العشرين من تشرين الأوّل عام ١٦٥٨، كان يجري عمل كثير غير عاديّ. كانت المناشِر تَصرّ، وعمّال المسرح يطرقون بالمطارق في عجالة. قاموا بنصب خشبة في صالة «دي غارد» ثم راحوا يُركّبونها. كان التقنيّ يهرول ماسحاً عرقه، والمخرجون المساعِدون يتحرّكون بهرج ومرج.

وسطهم، كان يركض مضطرباً، صارخاً تارةً أو متوسّلاً أحدهم تارةً أخرى، شخص دميم مصعَّر الخدين، وقد لطّخ كمّي قفطانه بالصباغ وسط الهرج. بسبب الاضطراب، أصبحت يدا الرجل باردتَين بشكل مزعج، فضلاً عن أنه بدأ يثأثئ، والحالة الأخيرة كانت تثير لديه الرعب دائماً. بين الفينة والأخرى، ودونما حاجة، كان يفحّ على الممثّلين الذين، حسب رأيه، كانوا يتعثّرون بين الأقدام دون فائدة، ويعيقون العمل.

لكنّ كلّ شيء سار على ما يرام، كما كان مُتوقَّعاً، وفي صباح يوم الرابع والعشرين عُرضت على الخشبة مسرحيّة بيير كورنيل «نيكوميد».

Twitter: @ketab_n

يجب القول إنّ المدير، منذ اللحظة التي دخل فيها باريس، سلك سلوكاً حكيماً، كممثّل ماكر حقيقيّ. حيث ظهر في العاصمة مُعتمِراً قبّعة، وابتسامة متملّقة ترتسم على شفتَيه المنتفختَين. فمن الذي ساعده؟ الناس غير المطّلعين كانوا يعتقدون أنّ الأمير كونتي هو من قام بذلك، لكن نحن وإيّاكم نعلم أنّ كونتي، الذي يخشى الله، لم تكن له يد في الأمر على الإطلاق. لا، لا! فقد ساعد موليير في درب البلاط العسير بيير مينيار ذاته، الذي أمعن النظر جيّداً بعينَيه المثقلتَين إلى موليير في «أفينيون». كانت لدى موليير صِلات هائلة. بفضل مينيار، بصورة أساسيّة، وجد موليير مدخلاً إلى الكاردينال مازارين الكلّيّ القدرة، ولم تعد هناك حاجة إلى أيّ شيء آخر لكي يدبّر شؤونه.

يبقى عليه فقط أن يكون مهذّباً الآن في الحديث مع الأمير فيليب الأورلياني، الأخ الوحيد للملك.

وها هي الصالة الواسعة المطليّة بالذهب. موليير واقف، مُميلاً رقبته، يلمس بيده اليسرى مقبض السيف على الحمّالة الواسعة، ويقول:

ـ أجل، لقد جرت مياه كثيرة، معاليكم، منذ أن هلك «مسرحي المتألّق» في «الصليب الأبيض». تسمية ساذجة، أليست كذلك معاليكم؟ آخ، أؤكّد لكم أنّ في ذلك المسرح لم يكن هناك حتى ظلّ أيّ شيء متألّق! على أيّ حال، كانت لمعاليكم ستّ سنوات فقط من العمر. كنتم طفلاً، معاليكم. لا يمكن التعرّف إليكم بالطبع الآن، معاليكم!

فيليب الفرنسيّ، دوق أورليان، الـ «مونسينيور»، شقيق الملك الوحيد، فتى في الثامنة عشر، يقف، متكئاً على الطاولة الثقيلة،

Twitter: @ketab_n

ويصغي إلى مالِك المسرح بلطف. المتحدّثان يدرسان بعضهما بعضاً من خلال الأعين.

هناك ابتسامة على وجه صاحب المسرح، وعلى الوجه كلّه ارتسمت تغضّنات معسولة متصنّعة، لكنّ عينَيه حذرتان ومتنبّهتان.

لفيليب الفرنسيّ وجهٌ فتيّ لكنّه مَسوق بشغفٍ فاجرٍ خبيء لا يشبع أبداً. الفتى ينظر إلى المدير فاغر الفم بعض الشيء. فلعدّة أيّام كان المقرّبون إليه يطنّون في أذنيه. لقد استيقظ وراح يصغي إلى كلام موليير. استلقى: إنّه موليير ذاك نفسه. لقد حلم بموليير هذا مرّة. هذا الشخص الغامض الذي ينتمي إلى ذلك العالم الغريب المدعو «عالم الممثّلين». يُقال إنّ هذا الإنسان، الذي يرتدي ثياباً فاخرة في الوقت الراهن، كان يسافر على الثيران وينام في حظائر الماشية. عدا عن ذلك، كلّ المقرّبين يقولون إنّ من الممكن توقّع تسليات مدهشة منه.

يعاين فيليب الفرنسيّ مشاعره، إنّه ذو وجهَين: ربّما تعجبه الابتسامات والتغضّنات على وجهه، لكن ليست عينا الممثّل بأيّ حال من الأحوال؛ فعيناه حزينتان جدّاً.

يرغب فيليب في أن «يدوزن» نفسه بحيث تعجبه التغضّنات على الوجه لكن، لسبب ما، تجذبه العينان رغم ذلك. عندما فتح المُقدِّم نفسه فمه ليتكلّم شعر فيليب أنّ له صوتاً مزعجاً، فضلاً عن أنّه يتنفس بطريقة غريبة أثناء كلامه، وهو أمر غير مقبول في حضرة الملك. لكن بعد عبارات الضيف الأولى بدأ الصوت يعجبه لسبب ما.

ـ اسمحوا لي معاليكم أن أُقدِّم. . .

أحدٌ ما يفتح الباب الثقيل، فيتراجع القادم كما ينبغي، أي دون أن يُدير ظهره. على الأرجح أنّه قد شهد أوضاعاً كهذه!

Twitter: @ketab_n

ـ ادخلوا يا أيّها السادة! يقول القادم، لدهشة فيليب، بصوتٍ مختلفٍ تماماً، صارمٍ وبدا فظّاً. ثمّ، ـ بالصوت السابق ثانيةً ـ اسمحوا لي أن أقدّم لكم. . . ـ مرّة أخرى بصوتٍ متقطّع كمثل صوت راكبي الثيران ـ مدموزيل مادلين بيجار. . . مدموزيل دوبارك. . . مدموزيل دي بري. . .

فيليب، عند رؤيته النساء، مُقلّداً أخاه، يخلع قبّعته المُريَّشة بصورة آليّة فوراً، ويصغي. إنّه يرى نساءً، ويُدرك فقط أنّ هاته النساء الشاحبات قلّما يُثِرْنَ اهتمامه. ثم يرى الرجال فيعتمر قبّعته. في مقدّمتهم يلهث شخص «مدعبل» مثل بالون، أفطس الأنف، ويبتسم مثل شمس. إنّه السيّد دوبارك الذي يمكن توقّع الكثير منه أيضاً. كذلك يدنو شخص أعرج فينحني وعلى شفتَيه ابتسامة؛ إنّه شاب لكنّه شاحب من جرّاء الهلع. وكثيرون غيرهم ـ بالفعل، لدى القادم فرقة كاملة.

ثمّ يختفي الجميع بعد ذلك، وفيليب الأورلياني يقول إنّه سعيد جدّاً، وإنّه يحبُّ المسرح كثيراً، وإنّه قد سمع الكثير جدّاً. . . ويطيب له أن يأخذ الفرقة تحت رعايته. . . فضلاً عن أنّه متأكّد من أنّ الملك لن يرفض مشاهدة كيف أنّ ممثّلي السيّد دو موليير. . . هل ألفظ الاسم بشكل صحيح؟

ـ صحيح تماماً، معاليكم!

أجل، إنّه متأكّد من أنّ سموّه لن يرفض مشاهدة كيف يمثّل ممثّلو السيّد موليير مسرحيّاتهم.

عند هذه الكلمات يشحب القادم ويقول:

ـ أوه، معاليكم لطيف جدّاً، لكنّي سأحاول تبرير ثقة. . .

Twitter: @ketab_n

بصوتٍ ثالث، رزين وملهم بصورة غير عاديّة، يسأل القادم عن صحّة فخامته، وعن صحّة الملك، ويرجو أن يكونا بصحّة جيّدة.

كانت نتيجة هذا الحديث أنه تمّ تقديم «نيكوميد» على الخشبة في صالة «دي غارد».

ينظر بقلق إلى الديكور، يشعر بالخوف ثانيةً، ويتذكّر «الرون» ونبيذ جوز الطيب... هناك، في الحقيقة، حريّة، ولا توجد هناك المسؤوليّة المُكربة، لكن بات متأخّراً، بات متأخّراً الفرار إلى مكانٍ ما!

أليس حريقاً هذا في «اللوفر القديم؟» كلا، إنّها آلاف الشموع المضطرمة في ثريّات صالة «دي غارد»، وعلى ضوئها تعود التماثيل الهامدة إلى الحياة.

السيّد دو مولبير، بعد الانتهاء من ارتداء بزّة «نيكوميد»، راح ينظر عبر ثقب في الستارة، ورأى كيف امتلأت الصالة. بدا للسيّد دو مولبير أنه سيُصاب بالعمى؛ ففي كلّ الأيادي كانت الأضواء تتكسّر على الماسات، وكانت هذه الأضواء تتلألأ على مقابض السيوف، وأمام الأعين كانت تنتصب غابة من الأرياش والكشاكش. كانت الشعارات على المعاطف تُدوِّخ العيون، وعلى جميع الفرسان كانت تلمع أوشحة بديعة من حانوت «بيردريجون»، وتتمايل التسريحات النسائيّة المعقّدة.

كانت الحاشية والحرس كلّهم يجلسون في الصالة.

في مقدّمة الجميع، في مقعد مجاور لمقعد فيليب الفرنسيّ، كان يجلس شاب في العشرين من العمر، توقّف قلب مدير الفرقة تماماً عند رؤيته. هذا الشخص ـ الوحيد بين الجميع ـ كان جالساً دون أن يخلع قبّعته. وسط ضباب الأنفاس تمكّن موليير من رؤية أنّ لدى الشاب وجه متعجرف بعينَين لا ترمشان وشفة سفلى «مُبوَّزة» بعناد.

Twitter: @ketab_n

لكن، في البعيد كانت تلوح وجوه لم تكن تخيف موليير أقلّ من الوجه المتكبّر والبارد للشاب الذي يرتدي قبّعة ذات أرياش. فقد تبيّن في ضباب الصالة وجوه الممثّلين البورغونيّين الملكيّين. «كنت أتوقّع ذلك ـ فكّر المدير بهلع ـ ها هم كلّهم حاضرون!» وقد تعرّف السيّدة ديزييه المعروفة بوجهها الوقح، وبأنّها لا مثيل لها في الأدوار التراجيديّة في فرنسا كلّها. وخلف وجه ديزييه كانت تُحوّم وجوه السادة مونفلوري وبوشاتو ورايمون وبواسون وأوتروش وفيلييه... إنّهم هم، البورغونيّون، الممثّلون الملكيّون!

أُعطيت إشارة البدء، فارتدّ المدير عن الستارة. أُعطيت إشارة أخرى فصمتت الصالة، وسقطت الستارة، ومن على الخشبة دوّت كلمات ملكة لاوديس: «سيّدي، أعترف لك بأنّي تطيب لي رؤية...».

كلّما ذهبت «نيكوميد» أبعد كلّما تدفّق الجنون أكثر عبر الصالة. في البداية سمح أحدهم لنفسه بأن يسعل، ثمّ سعل آخر، فثالث ـ يعلم أهل المسرح أنّ هذا مؤشر بالغ السوء. بعد ذلك راحوا يتهامسون ويتبادلون النظرات. ما الأمر؟ طوال أسبوعين كان اسم موليير يطير عبر باريس، مثيراً هيجان المدينة كلّها والقصر!... موليير هنا، موليير هناك... هل سمعتم؟ شخص ريفيّ؟.. يُقال إنّه مذهل! ناهيكم عن أنّه يبدو أنّه يؤلّف بذاته؟ سموّه يُرى في صالة «دي غارد» طوال أربع وعشرين ساعة؟ هل أنت مدعو؟ موليير، موليير، في كلّ مكان موليير...

ما الأمر يا سادة؟ في «أوتيل بورغون» يمثّلون مسرحيّات كورنيل أفضل بكثير!.. بدأ الملل يحلّ على وجوه الحاشية. إنّها جيّدة.. دوبارك هذه بالتحديد.. أمّا فيما يتعلّق بموليير ذاته.. كلا، إنّه ليس رديئاً لكنّه يقرأ الشعر بطريقة غريبة كما لو أنّه نثر. أسلوب غريب معاليكم.

Twitter: @ketab_n

لكن ليس الملل بل الفرح الشرير كان يُقرَأ في عينَيّ أحد المشاهدين، وهو شخص سمين منتفخ. كان هذا زاكاري مونفلوري، أحد أبرز ممثّلي «أوتيل بورغون». إلى جواره كان يجلس أوتروش وفيلييه وهما يتهامسان فرحاً.

وانتهت «نيكوميد»، وفي الصالة صاتَ تصفيقٌ خفيف.

الأورليانيّ الشاب كان قتيلاً. كان عاجزاً عن رفع عينَيه، وغاص في مقعده مُدخلاً رأسه بين كتفيه.

وها هو، في هذه اللحظة، السيّد دو موليير، الذي بسبب ولعه المشؤوم بتمثيل التراجيّديا، كاد أن يضع على المحكّ مسألة تواجده في باريس، ووجوده ذاته في الكوميديا الفرنسيّة العظيمة لاحقاً، يجد نفسه تحت أضواء المسرح الأماميّة.

هدأت الهمهمة في الصالة.

وقال السيّد دو موليير إنّ من واجبه، بادئ ذي بدء، أن يشكرها (آنّ النمساويّة، الملكة الأمّ التي كانت تجلس في الصالة) وفخامته على تلك الطيبة، وذلك التساهل، اللذين من خلالهما يتمّ غفران النقائص الجليّة التي لا تُغتفَر.

«اللعين يتكلم ثانيةً بذلك الصوت ذاته»، فكّر فيليب الأورليانيّ دون أن يرجو شيئاً سوى الانزعاج والخزي، «لقد وصلت المصيبة إلى رأسي في باريس على الثيران».

أمّا السيّد موليير فقد واصل.

كلا، سوف يقول ما هو أكثر من ذلك: فخامته سوف يغفر الوقاحة.

Twitter: @ketab_n

«اللعنة عليك وعلى ابتساماتك!» فكّر الأورليانيّ.

لكنّ الابتسامة لم تثر انطباعاً مزعجاً لدى الآخرين. على العكس، فقد أعجبتهم كثيراً.

والسيّد دو موليير حاكَ خطابه المتكلّف قائلاً إنّ رغبةً لا تُقهر فحسب لتسلية فخامته هي التي قادته إلى هنا، وإنّه يدرك جيّداً أنّه وممثّليه مجرّد نُسخٍ هزيلة بينما النسخ الأصليّة الرائعة تجلس هناك، في الصالة.

وهنا التفت كثيرون برؤوسهم ونظروا إلى الممثّلين البورغونيّين.

- لكن، ربّما تسمحون لنا فخامتكم بتقديم مسرحيّة هزليّة قصيرة؟ إنّها تافهة بالطبع، وليست جديرة بالاهتمام... لكنّها، لسبب ما، أضحكت سكّان الريف كثيراً!..

حينها تململ الشاب المتعجرف صاحب القبّعة ذات الأرياش للمرّة الأولى، وقام بإيماءةِ موافقةٍ لطيفة.

عندها، العمّال والممثّلون، السابحون في العرق خلف الستارة، قاموا، خلال بضع دقائق، بإعادة تجهيز الخشبة، وقدّموا المسرحيّة الهزليّة «الطبيب العاشق» التي ألّفها موليير ذاته في لياليه المؤرَّقة أثناء التجوال.

أبطال مسرحيّة كورنيل التراجيديّة المهيبون والمتغطرسون غادروا الخشبة، وحلّ محلّهم غورجيبيوس وغرو رينيه وسغاناريل وغيرهم من شخصيات المسرحيّة الهزليّة. وما إن راح الطبيب العاشق، الذي فقط بصعوبة كبيرة كان بالإمكان تعرّف «نيكوميد» فيه، يعدو على الخشبة

Twitter: @ketab_n

حتى بدأ الذين في الصالة يبتسمون، وعند تصعيرته الأولى راحوا يضحكون، وبعد أوّل تعليق له صاروا يقهقهون، وبعد بضع دقائق تحوّلت القهقهة إلى هدير، وشُوهد الشخص المتعجرف يسقط على ظهره في المقعد، وهو يمسح دموعه ناشجاً. فجأةً، وبصورة غير متوقَّعة بالنسبة إليه، كان فيليب الأورليانيّ، إلى جواره، يقهقه عالياً.

فجأةً لمع البريق في عينيّ الطبيب العاشق. فقد شعر أنّه يسمع شيئاً معروفاً له، وراح يقوم بوضعيّات معتادة بين التعليقات لكي يُمرِّر موجات القهقهة. أدرك أنّ شيئاً رائعاً عسيرَ الوصف، يشير إلى نجاح المسرحيّة الكوميديّة نجاحاً مطلقاً، ينهال عليهم في الصالة التي كان يُطلق عليها اسم «برو ـ ها ـ ها!» في فرقة موليير. حينها شعر الكوميديّ العظيم ببرودةٍ لذيذة في «نُقرته». فكّر: «إنه النصر!» ثمَّ أضاف حركة غير متوقّعة. عندها كان آخر من يضحك الفرسان المناوبون عند الأبواب، وهؤلاء لا ينبغي لهم أن يضحكوا بأيّ حال من الأحوال.

فقط الممثّلون البورغونيّون لم يكونوا يضحكون في الصالة، فيما عدا ديزبيه وشخص آخر.

«أغيثينا، أيتها العذراء الطاهرة ـ طنّت في رأس الطبيب ـ إليك حيلة، وها هي حيلة أخرى، وحيلة أخرى! أغثنا يا دوبارك السمين!».

«شيطان! شيطان! يا له من ممثّل!» فكّر مونفلوري هلِعاً. طاف بعينَيه الكامدتَين على من حوله، وإلى جواره رأى فيليبه الواجم. في الوراء، خلف فيليبه، ومضت عينا أحد البورغونيّين كذلك، وكان يضحك بنزاهة، مرفَّلاً بالدنتيلا والأوشحة، وسيف طويل على خصره.

Twitter: @ketab_n

إنّه ضابط الحرس السابق، الذي بدّل كنيته النبيلة المعقّدة بلقبٍ مسرحيٍّ قصير - فلوريدور. هذا الإنسان، الأفطس الأنف، الدقيق ملامح الوجه، كان ممثّلاً تراجيدياً مذهلاً، وهو أفضل من أدّى دور «نيكوميد» في فرنسا. «لكن فيمَ كانت حاجته اللعينة إلى إفشال ذاته في نيكوميد؟» واقعاً على قفاه من الضحك، فكّر فلوريدور. «هل كان يفكّر في منافستي؟ لماذا؟ سنقوم بتقسيم الخشبة: أعطني التراجيديا، وسأعطيك الكوميديا! أيّ تقنية هذه! من يقدر على منافسته؟ سكاراموش؟ أجل، وذاك...».

خيّمت خاتمة «الطبيب العاشق» على «برو - ها - ها» بحيث بدت التماثيل كأنّها تتحرّك.

«شكراً للأورليانيّ، شكراً!» فكّر زاكاري مونفلوري عندما كان العمّال يتدلّون على الحبال والستارة ترتفع مُقسّمةً الخشبة. «لقد أحضر لنا شيطاناً من الريف!».

ثم سقطت الستارة، ارتفعت وسقطت ثانيةً. ارتفعت مرّة أخرى، سقطت، سقطت. كان موليير يقف تحت الأضواء الأماميّة، انحنى، وكان العرق يتساقط من جبينه على المنصّة.

- من أين هو؟.. من يكون؟.. وهل الآخرون كلّهم كذلك؟ ودوبارك السمين هذا؟.. والخادمة؟.. من الذي علّمهم؟.. إنّهم أقوى من الطليان يا سادة! تصعيرات موليير هذا، فخامتكم...

- لقد قلتُ لكم، فخامتكم. بصوتٍ وقور قال فيليب الأورليانيّ للويس، لكنّ ذاك لم يسمع فيليب الأورليانيّ، فقد كان يمسح عينَيه بالمنديل وكأنّه يبكي شخصاً قريباً.

Twitter: @ketab_n

آه يا جدّي الراحل كريستييه! كم هو مؤسف عدم وجودك في صالة «دي غارد» في ٢٤ تشرين الأوّل عام ١٦٥٨!

معالي دوق أورليان، فيليب الفرنسيّ، يضع تحت تصرّف الممثّلين صالةً في «بوربون الصغير». يُقرَّر لهم راتباً، حدّده الدوق الأورليانيّ. وسوف يعرضون بالتناوب مع فرقة إيطاليّة - يوم للإيطاليّين ويوم للفرنسيّين، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٢

البوربون الصغير

سجع: إيلومير - موليير.

«لدهشة العالم أجمع،

بُعِث إيلومير في البوربون».

قصيدة «إيلومير السوداوي» الهجائية، عام ١٦٧٠.

بموجب مرسوم ملكيّ انتقل السيّد موليير إلى قصر «البوربون الصغير» لكي يعيش - بأخويّة - تحت سقف واحد مع الفرقة الإيطاليّة. لقد أعجبت «الطبيب العاشق» الملك إلى درجة أنّه خصّص لفرقة موليير ألفاً وخمسمائة ليرة معاشاً سنويّاً، لكن شرط أن يلتزم موليير بأن يدفع للإيطاليّين مقابل اقتحامه مسرح «بوربون». وقد اتّفق موليير مع الإيطاليّين، الذين كان يرأسهم أستاذه القديم سكاراموجّي، بأن يدفع لهم هذا المبلغ ذاته تماماً، أي ألفاً وخمسمائة ليرة في السنة.

التصقت بفرقة موليير تسمية فرقة السيّد شقيق الملك الوحيد، وذاك قام دون إبطاء بتخصيص ثلاثمائة ليرة في السنة لكلٍّ من ممثّلي موليير. لكن هنا، بحزنٍ كبير يجب الإشارة إلى أنّه لم يتم دفع ليرة واحدة على

Twitter: @ketab_n

الإطلاق من هذه الثلاثمائة ليرة، حسب اعتراف المُعاصرين. يمكن اعتبار أنّ سبب ذلك هو أنّ صندوق شقيق الملك كان في حالة يُرثى لها. على أيّ حال، إنّ نيّة شقيق الملك بحدّ ذاتها مشكورة.

قُرِّر أن يتمّ تقسيم الإيرادات بين الممثّلين تبعاً للحصص التي يتلقّونها في حين سيحصل موليير، إضافةً إلى ذلك، على نصيب المؤلّف لقاء مسرحيّاته.

تمّ تقسيم أيّام العروض المسرحيّة مع الإيطاليّين بسهولة. فتوجّب على موليير أن يقدّم العروض أيّام الإثنين والثلاثاء والخميس والسبت، وبعد ذلك، عندما رحل الإيطاليّون عن باريس، حصل موليير على الأحد والأربعاء والجمعة كذلك.

كان قصر «البوربون الصغير» يقع بين كنيسة «سان جيرمان لوكسيروا» و«اللوفر القديم». على المدخل الرئيس للبوربون الصغير كانت هناك كتابة هائلة الحجم: «الأمل»، والقصر ذاته كان متداعياً جدّاً، وكلّ الشعارات والزخارف فيه كانت تالفة أو محطّمة كليّاً، فقد وصلت نزاعات السنوات الأخيرة إليه كذلك. داخل «البوربون» كانت هناك صالة مسرح كبيرة بما يكفي مع صالات عرض «غاليريهات» على الجانبين وأعمدة توضّعت المقصورات بينها. كان سقف الصالة مزخرفاً بالزنابق، وأعلى خشبة المسرح كانت تشتعل ثريّات صليبيّة الشكل، وعلى جدران الصالة كانت هناك أشجار صنوبر معدنيّة.

للصالة ماضٍ عريق. ففي عام ١٦١٤ كان يجتمع فيها نواب الولايات العامّون، ومنذ العام ١٦١٥، بعد أن كانت ترقص فيه فرقة

Twitter: @ketab_n

الباليه الملكيّة، خُصّصت الصالة للعروض المسرحيّة، حيث غالباً ما كان يظهر فيها الإيطاليّون مع مسرحيّاتهم. والفرنسيّون كانوا يُمثّلون فيها أيضاً. وقد توقّفت الحياة المسرحيّة في «البوربون» عندما بدأت «الفروند» لأنّ المجرمين الحكوميّين المعتقلين المدانين بإهانة الملك كانوا يُسجنون في صالة بوربون. وهم الذين أتلفوا الزينة في الصالة.

بعد انتهاء «الفروند» عُرِضت في «البوربون» مسرحيّة كورنيل «أندروميدا» في تركيبة معقّدة، بمصاحبة الموسيقا، والذي ألّف الموسيقى لأجل «أندروميدا» كان صاحبنا القديم داسّوسي الذي أكّد، بالنتيجة، أنّه هو بالتحديد من بعث الروح في قصائد كورنيل.

في نهاية المطاف خُصّصت الصالة للإيطاليّين. فقد كانوا محبوبين جدّاً في باريس؛ إذ فضلاً عن أنّهم كانوا يمثّلون بشكل جيّد، فقد قام تقنيهم البارز، الديكوراتي توريللي، بتجهيز الخشبة بطريقة بحيث كان الإيطاليّون قادرين على اجتراح أعاجيب مذهلة في عروضهم المبهرة.

وقد عبّر كاتب المقالات المسرحيّة النقديّة لوربيه عن إعجابه آنذاك بالتجهيزات الإيطاليّة في أشعار رديئة:

هناك، مُحلّقاً فوق الخشبة

أرعب الجميع عفريتٌ مخيف.

من باريس إلى الصين

لا مثيل لأعاجيب كهذه.

فضلاً عن أنّ الإيطاليّين كان لديهم باليه رائع، الأمر الذي أشار إليه لوربيه ذاته:

Twitter: @ketab_n

لكن مهما قلتم،

ما من سعادة أفضل

من مشاهدة الباليه

الإيطالي المتألّق!

وهكذا، أُرسل موليير مع ممثّليه لكي يعيشوا مع هذه الفرقة القويّة.

جان باتيست، الذي جاء إلى باريس في شهر تشرين الأوّل، دخل بيت والده وعانق الشيخ برقّة. ذاك لم يكن يفهم تماماً سبب النجاح المذهل لابنه الأكبر في الحياة، والذي رفض لقبه وترك الورشة لكي يكرّس نفسه لفنّ التمثيل. لكنّ السيف المتلألئ والثياب الغالية وواقع أنّ جان باتيست قد أصبح مدير فرقة شقيق الملك، أذهل الشيخ وصالحه مع ابنه.

محتسياً الحساء ومستريحاً في المنزل الأبويّ بعد صدمة ٢٤ تشرين الأوّل، بدأ موليير يستقرّ في باريس ويُجري «البروفات» في «البوربون الصغير».

مهما قيل؛ فإنّ القسّ، الذي كان يعتقد أنّ الممثّلين يخالطون الشياطين، كان محقّاً رغم ذلك. لكنّهم، مع ذلك، يُجازفون دائماً بأن يسخر حاميهم منهم. والشيطان بالذات هو الذي أبقى موليير في العماء.

في ٢٢ تشرين الأوّل عام ١٦٥٨، افتتح موليير عرضاً مسرحيّاً في «البوربون الصغير». لم يكن عرضاً كوميديّاً بل عرض مسرحيّة كورنيل التراجيّديّة «هرقل». وقد مُثّلت هذه المسرحيّة بصورة مقبولة، وكان الحضور لا بأس به، لكنّ الحيرة انتشرت في باريس رغم ذلك. حيث أكّد الناس أنّ فرقة «هذا. . ما اسمه؟. . موليير» تُمثّل بشكل رائع، وأثناء ذلك

Twitter: @ketab_n

كانوا يُشخّصون بوجوههم كيف قهقه الملك. هؤلاء كانوا الذين شاهدوا «الطبيب العاشق» في صالة «دي غارد». وقال آخرون إنّ فرقة موليير تمثّل بشكل متوسّط جدّاً، ولم يكونوا يفهمون سبب إعطاء «البوربون الصغير» لموليير بهذه الجلبة. هؤلاء كانوا الذي حضروا «هرقل».

بدأ تذمُّر العقول، وأدّى ذلك إلى تدفّق موجة كبيرة من الناس إلى «البوربون». الجميع كانوا يريدون التأكّد، شخصيّاً، من ماهيّة هذه القامة ـ موليير، هذه الظاهرة الجديدة. وقد حضرت هذه الموجة «نيكوميد» و«الطبيب العاشق»، وعبر باريس كلّها انتشرت مجموعة جديدة من الشهود المتحمّسين. غير أنّهم كانوا نادراً ما يتحدّثون عن «نيكوميد»، وهتفوا لجمال مدموزيل دوبارك فحسب، وعن أنّ هذا «الموليير» مضحك بشكل لا يُوصف، وأنّ المسرحيّة الهزليّة مذهلة.

مجموعات المشاهدين اللاحقة لم يحالفها الحظّ. فقد أخرج موليير، بصورة متتابعة، ثلاث مسرحيّات لكورنيل: «رودوغيون» و«بومبي» و«سِيد» الشهيرة. حينها أثار المشاهدون الشغب، ولحسن الحظّ، باريسيٌّ نزق كان واقفاً على قدميه في صالة المسرح، أثناء العرض المملّ لمسرحية «بومبي»، رمى رأس السيّد موليير، الذي كان يلعب دور يوليوس قيصر، بتفاحة. وهذا التصرّف الوقح كان السبب ببروق فكرة في رأس مدير الفرقة؛ فقام بعرض «الطائش». فتغيّر الوضع بشكل حادّ: كان النجاح ساحقاً.

هنا، رغم ذلك، مرّة أخرى ينبثق سؤال هامّ عن سبب فشل أداء موليير للمسرحيات التراجيدية. أي: هل كان البورغونيّون يمثّلون التراجيديّات بشكل جيّد أم أنّ موليير كان يُمثّلها بشكل سيّء؟ ليس

Twitter: @ketab_n

هذا، ولا ذاك. يكمن الأمر، قبل أيّ شيء آخر، في أنّ موليير كان يمثّل المسرحيّات التراجيديّة بأسلوب مختلف كليّاً عمّا كان معتاداً تمثيلها. بين البورغونيّين، كأيّ مسرح آخر، كان هناك ممثّلون رائعون مثل السيّدة ديزبيه والسيّد فلوريدور، على سبيل المثال، وكان هناك ممثّلون متوسّطو المستوى ورديئون. كلّهم كانوا من مدرسة بيلروز الذي كان الجد كريسّبيه معجباً به، ولكن الذي أعطى عنه أحد الباريسيّين، ممّن يتمتّعون بذائقة كبيرة، الرأي التالي:

- فليلعنه الله! حين يُمثّل يبدو أنّه لا يفقه كلمة واحدة ممّا يقول!

طبعاً هناك شيء من المبالغة في هذا الزعم لكن، رغم ذلك، يمكن الإقرار بأنّ بيلروز كان ممثّلاً مزيّفاً لا يعيش حياةً داخليّة على الخشبة.

زاكاري مونفلوري، البدين والحسود جدّاً، كان يتمتّع بشهرة صاخبة في باريس، غير أنّ الأبيقوريّ سيرانو دي بيرجيراك قال عنه ما يلي:

- يتصوّر مونفلوري نفسه شخصيّة بارزة فقط لأنّه لم يُضرب بالعصيّ يوماً.

بشكل عام، كان مونفلوري يثير الكراهية لدى بيرجيراك الحادّ الذكاء، والذي يفهم دقائق الخشبة إلى درجة أنّ بيرجيراك الثمل سمح لنفسه يوماً بأن يثير فضيحة في المسرح، قاذفاً مونفلوري بالشتائم، وطارداً إيّاه من على الخشبة. ما الذي يُظهره هذا الأمر؟ هذا يُظهر - أوّلاً - أنّ تصرّف السيّد بيرجيراك، الدراماتورغ وتلميذ غاسيندي، هذا تصرّف مشين؛ إذ لم يكن أمراً صعباً إهانة ممثّل في ذلك الوقت، ولم تكن في هذا جرأة كبيرة. لكنّ هذا يُظهر أيضاً أنّ الطريقة البطيئة القديمة

Twitter: @ketab_n

للغناء بعواء كانت غير مُحتملة بالنسبة للمجدّدين الحاذقين. وكان جميع البورغونيّين يمثّلون بهذا الأسلوب ـ بعضهم بشكل جيّد، وآخرون بشكل سيّء.

أمّا موليير؛ فمنذ خطواته الأولى منذ أن كان في «المسرح المتألّق» أراد أن يؤسّس مدرسة للتمثيل العفويّ الذي يُبرِّر داخليّاً النصّ الدراماتورغيّ بشكل تامّ. وقد بدأ موليير العمل بهذا الأسلوب منذ البداية، وصار يُدرِّب ممثّليه على هذا الأسلوب.

ففيمَ الأمر إذاً؟ المفروض أنّ موليير كان يجب أن ينتصر، وأنّ أسلوبه كان يجب أن يأخذ بقلوب المشاهدين. لا، للأسف. فقد استخدم موليير أسلوبه، بادئ ذي بدء، في التراجيديا، ولم يكن يتمتّع بأيّ مواهب لأداء الأدوار التراجيديّة؛ إذ لم يكن يتمتّع لا بالمزاج ولا بالصوت المناسبَين لأدائها. من الناحية المعرفية كان يعرف جيّداً كيف يجب أن تُؤدّى التراجيديا لكنّه كان يؤدّيها بشكل سيّء. أمّا رفاقه؛ فكان بينهم كثيرون ممّن يتمتّعون بمواهب تراجيديّة جيّدة، لكنّ أسلوب موليير ذاته كان لا يزال فتيّاً إلى درجة أنّه لم يكن قادراً على أن يفتن الجمهور مباشرةً.

بالطبع، عندما كان البورغونيّون، الذين يتمتّعون بأصوات رائعة، يُنشدون تحت الستارة خواتم المونولوجات الكلاسيكيّة المزيّفة (كان مونفلوري يتمتّع بمهارة مميّزة في ذلك) كانوا يحقّقون نجاحاً مطلقاً في باريس. كان باريسيو ذلك الزمن يريدون رؤية أبطال جبّارين مُدرَّعين بالدروع، أبطالِ جهوريّ الأصوات، وليس أناساً رزينين مثلما كان عليه الباريسيّون أنفسهم في الحياة. هذا هو سبب إخفاق التراجيديّات في المسرح الموليريّ.

Twitter: @ketab_n

بعد «الطائش» في «البوربون الصغير» حلّت «آلام الحبّ»، وكذلك بنجاح كبير. فيليبر دي كروازي، الذي انتسب إلى الفرقة، ساعد كثيراً على هذا النجاح، مؤدّياً دور العالِم المضحك ميتافراست بشكل رائع.

بعد «آلام الحبّ» شعرت الفرقة الإيطاليّة بخطورة مجاورة الفرنسيّ موليير؛ فجمهور العاصمة، المعتاد على حضور الأيّام الإيطاليّة فقط في «البوربون»، بدأ يذهب الآن أفواجاً إلى الأيّام الموليبريّة كذلك. كانت «البيستولات»[1] الذهبيّة تنسكب في صندوق ممثّلي الأمير الأورليانيّ الجوّالين سابقاً، المتحضّرين في الوقت الراهن. رواتب الممثّلين زادت، وبدأ الحديث عن موليير في باريس بصخب.

لكن، ماذا بدأوا يقولون بالدرجة الأولى؟ قبل أيّ شيء آخر بدأوا يقولون إنّ الدراماتورغ موليير يستغلّ، دونما حياء، مؤلّفات الكتّاب الإيطاليّين للاقتباس عنهم. الإشارة إلى اختلاسات موليير، مع مرور الوقت، أصبحت أمراً دارجاً إلى درجة أنّهم، إذا تعذّر عليهم تحديد ما الذي اختلسه موليير ومن أين، كانوا يقولون إنّه «على ما يبدو» قد اقتبس. أمّا إذا لم تكن هناك أسس واضحة حتى لهذا الكلام؛ فكانوا يقولون إنّه «كان قادراً على» الاقتباس من هنا أو هناك... في نهاية المطاف، نسبوا إلى موليير عبارة منمّقة وقحة: «أنا آخذ ممتلكاتي حيث أعثر عليها!» رغم أنّه لم يقل هذا الكلام قطّ بل كان يقول قولاً مختلفاً كليّاً: «إنّي أستعيد ممتلكاتي..،» مُلمِّحاً بذلك إلى الاقتباسات التي اقتُبست عنه.

---

(١) pistole بالفرنسية: عملة نقدية ذهبية قديمة.

Twitter: @ketab_n

بالفعل، موليير، الذي لم يكن يعرف جيّداً الدراماتورغيا الإيطاليّة والإسبانيّة فحسب بل والقديمة كذلك، كثيراً ما كان يأخذ مواضيعه عن سابقيه، إذ كان ينسخ بعض الشخصيّات، وأحياناً مشاهدَ بأكملها. فهل يجب إدانة هذه الطريقة الغريبة؟ لستُ أدري، لكن يمكنني القول، حسب مجموع الآراء، إنّ كلّ ما اقتبسه موليير كان أرقى بما لا يُقاس، من حيث جودة إعادة معالجته، من النسخ الأصليّة. بصورة خاصّة يمكن قول هذا الكلام عن «آلام الحبّ»، إذ يُقال إنّ المضمون الأساسيّ لهذه المسرحيّة مأخوذ عن الإيطاليّ نيكولو سيكّا، من المسرحيّة الكوميديّة «المتعة» المكتوبة قبل مسرحيّة موليير بخمسٍ وسبعين سنة. عدا عن أنّه كان ربّما اقتبس عن مسرحيّة إيطاليّة أخرى هي «إخفاقات غراميّة». فضلاً عن أنّه ربّما استفاد من الفكرة المعبَّر عنها في أحد مؤلَّفات الكاتب القديم هوراس. وأخيراً، كان في مقدوره اقتباس شيء ما عن «كلب البستانيّ» للدراماتورغ الإسبانيّ المعروف لوبيه فيليكس دي فيغا كاربيو، المتوفى عندما كان موليير لا يزال ولداً يجلس في حانوت والده. فيما يتعلّق بدي فيغا، لم يكن من الحكمة اقتباس أيّ شيء عنه لأنّه كتب حوالى ألفٍ وثمانمائة مسرحيّة، ولم يُسمّ عبثاً «أبو الهول» إسبانيا أو أعجوبة الطبيعة.

قصارى القول، وكما ترون، قرأ بطلي الكثير، بما في ذلك بالإسبانيّة.

وهكذا؛ فإنّ «آلام الحبّ»، التي كُتبت لأسباب غريبة، حقّقت نجاحاً كبيراً، وعُرضت مصحوبةً بتصفيق الباريسيّين، مثيرةً اهتماماً زائداً، وليس ودوداً، من قِبل المسرح البورغونيّ.

Twitter: @ketab_n

تميّز عام ١٦٥٩ بأحداث كثيرة تتعلّق، بصورة رئيسة، بالانتقالات إلى الفرقة. ففي عيد الفصح حضر إلى موليير، مقدِّماً نفسه باحترام وطالباً الالتحاق بالفرقة، شاب يُدعى شارل فارليه سيور دو لاغرانج. الشاب، الذي كان يُزيّن وجهه الرجوليّ والجاذ شاربان صغيران حادّان، كان، من حيث اختصاصه، العشيق الأوّل. أُعجب به موليير كثيراً، وسرعان ما أدخل لاغرانج إلى الفرقة. وقد تصرّف بطلي بمنتهى الصواب من وجهة نظر الذين درسوا حياته على امتداد عدّة قرون فيما بعد.

منذ اليوم الأوّل لالتحاقه بالفرقة اقتنى سيور دو لاغرانج دفتراً سميكاً دعاه «السّجل» وصار يدوّن فيه، يوميّاً، كلّ ما كان يحدث في فرقة موليير. فقد دوّن سيور دو لاغرانج وفيّات الممثلين وزيجاتهم، خروجهم من الفرقة والتحاق جددٍ بها، عدد المسرحيّات، أسماء هذه المسرحيّات، الإيرادات الماليّة وغير ذلك. ولولا هذا الكتاب الرائع - السّجلّ الذي كتبه لاغرانج والمزيّن برسومه الرمزيّة - لكنّا عرفنا عن بطلنا أقلّ ممّا نعرف الآن، أو الأصحّ القول: لما كنّا عرفنا شيئاً تقريباً.

وهكذا، فقد التحق لاغرانج بالفرقة، لكنّ «دو فرن» غادر العاصمة إلى موطنه «النورمانديّ». وودعا مسرح «المستنقع» الثنائيّ دوبارك، وهما، من الواضح نتيجة «مناقرة» من قِبل موليير، غادرا. كانت هذه خسارة كبيرة. العزاء كان أنّ الممثّل الكوميديّ الأشهر في مسرح «المستنقع» و«أوتيل بورغون» جوليان بيدو، الملقّب بـ«جودليه»، باسم الشخصيّة الكوميديّة في مسرحيّات سكارّون، التحق بفرقة موليير، وبات إضافة رائعة إليها. لكن، للأسف، ليس لوقت طويل؛ فقد توفّي في

Twitter: @ketab_n

العام التالي. برفقة جودليه جاء من «المستنقع» سيور دي لاسبي، شقيق جودليه، وصار يمثّل دور العجائز المضحكين الذي يُسمّون في المسرحيّات الهزليّة عادةً غورجيبيوس.

وأخيراً تنبغي الإشارة إلى حدث محزن في نهاية أيّار عام ١٦٥٩؛ فقد غادر فرقة موليير أوّل إخوته، أحد «أطفال العائلة»، المثائئ حتى نهاية حياته، العاشق جوزيف بيجار. الفرقة كلّها ودّعته إلى المقبرة، وفي المسرح أُعلن عليه الحداد لعدّة أيّام.

على هذا النحو، في العمل المحموم، في الهموم والقلق، في النجاحات والمكاره المتعاقبة، جرى عام ١٦٥٩، ولكن في نهايته دوّى حدث رائع.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٣

المضافة الزرقاء المنتهَكة

ـ يا آنسة، هناك خادم يطلبك. يقول إنّ سيّده يريد رؤيتك.

ـ يا لكِ من حمقاء! متى ستتعلّمين الكلام كما ينبغي؟ يجب القول: جاء رسول ليعرف ما إن كان يناسبك استقبال أحد.

«قِيَم مضحكة»

إذا سألتم أيّاً من علية القوم الباريسيّين: أيّ ركن هو الألطف في باريس؟ فسيجيب، دون إبطاء، بأنّه الصالون الأزرق للسيّدة دي رامبوييه.

ابنة السفير الفرنسيّ في روما، اسمها قبل الزواج دي فيفون، المَركيزة دي رامبوييه كانت شخصاً بمنتهى الأناقة، حتى في طفولتها. توجد نماذج كهذه! بعد زواجها واستقرارها في باريس وجدت المَركيزة ـ وهو أمر مُبرَّر ـ أنّ المجتمع الباريسيّ فظّ بعض الشيء، لذا قرَّرت إحاطة نفسها بأفضل من في باريس، وبدأت تجمع في «الأتيلييه» العائد لها زهرة المجتمع، مخصّصةً، لأجل الاستقبال، عدداً من الغرف التي اشتهرت من بينها غرفة استقبال مكسوّة بالمخمل الأزرق.

Twitter: @ketab_n

كانت السيّدة دي رامبوييه تحبّ الأدب أكثر من أيّ شيء آخر في الدنيا، الأمر الذي أكسب صالونها توجّهاً أدبياً غالباً. لكن، بشكل عامّ، كان أناس متنوّعون بما يكفي يتدفّقون إلى الصالون. فكان يتألّق في المقعد الكاتب المعروف جان لوي بلزاك، وكان يحضر المفكّر المتشائم الدوق لاروش فوكو الذي كان يبرهن بحزن أنّ فضائلنا ليست سوى رذائل خفيّة. كان يواسي جمهور الصالون، المستاء بسبب الدوق الكئيب، فواتور اللاذع الحيويّ جدّاً، وكان السادة كوتِن وشابلن وجيل ميناج وكثيرون غيرهم يجرون سلسلة من النقاشات الممتعة جدّاً.

عارفين أنّ أفضل عقول باريس يمكثون طويلاً لدى رامبوييه، سرعان ما ظهر في الصالون المراكزة الأكثر لطفاً والكشاكش على رُكبهم، وظُرفاء الأمسيات، وروّاد العروض المسرحيّة الافتتاحيّة، والكتّاب، الهواة منهم وحُماة ربّات الشعر، كتّاب الغزليّات والسوناتات الرقيقة. وفي إثرهم انجذب قساوسة بارزون، وبطبيعة الحال تجمّعت مسرعةً أسراب السيّدات.

كان يحضر بوسويه، الذي اشتُهر بنتيجة أنّه لم يكن هناك ميّت مشهور واحد تقريباً في فرنسا لم يقرأ بوسويه موعظة مؤثّرة على قبره. أمّا أولى مواعظه - صحيح أنّها لم تكن على ميّت - فقد ألقاها بوسويه في صالون رامبوييه بالتحديد، وذلك عندما كان صبيّاً في السادسة عشر من عمره. فقد ألقى بوسويه خطبة امتدّت حتى وقت متأخّر من الليل، الأمر الذي أعطى مبرّراً لفواتور أن يقول، بعد أن أنهى الخطيب سارداً كلّ ما كان مخزوناً في رأسه:

- يا سيّد، لم أسمع قطّ بأحد وعظ في هذا العمر المبكّر وفي وقتٍ متأخّر كهذا.

Twitter: @ketab_n

وقد شوهد مرّة، وسط المجموعة كلّها، متسكّع المضافات، أبو الدراماتورغيّة الفرنسيّة بيير كورنيل، ولا يعلم أحد ماذا كان يفعل هناك؛ ربّما كان يتفرّج.

السيّدات ـ ضيفات رامبوييه ـ سرعان ما ابتدعن «موضة» مناداة بعضهن بعضاً «يا نفيستي»، وهنّ يُقبّلن بعضهن عند اللقاء. وقد نالت كلمة «نفيسة» إعجاباً شديداً في باريس، وظلّت، إلى الأبد، لقباً دائماً للسيّدات اللواتي كنّ يُزيّنّ مضافة رامبوييه.

كانت القصائد تهدر على شرف المَركيزة العزيزة، حيث أسماها الشعراء أرتينيس الفاتنة، مبدّلين مواضع الحروف في اسم كاترين. وعلى شرف الأمّ المتألّقة في الصالون ألّف الشعراء باقة كاملة من قصائد الغزل لأجل ابنتها الشابة جوليا رامبوييه. وكان يلي قصائد الغزل هذه نكات أغلبها من صنع المَراكزة. كانت النكات من الطراز الأوّل، لكنّها كانت معقّدة إلى درجة أنّها كانت تحتاج شرحاً مطوّلاً لكي تُفهم. الحقّ أنه وُجد، خارج جدران الصالون، أشخاص منبوذون كانوا يؤكّدون أنّ هذه النكات غبيّة ببساطة، وأنّ مؤلّفيها أناس عديمو الموهبة إلى أقصى الحدود.

لكان هذا نصف مصيبة حتى الآن لو أنّ كاترين وأنصارها لم يشغلوا أنفسهم، بعد الغزليّات والنكات، بالأدب الكبير بصورة جادّة. ففي المضافة الزرقاء كانت المؤلّفات الجديدة تُقرأ وتُناقش جهراً. وبما أنّ الأمر كان كذلك، فقد كان يتشكّل رأي، وهذا الرأي كان يصبح إلزاميّاً في باريس.

كلّما كان الأمر يذهب أبعد كلّما كان التفاصح يزداد، وكلّما

Twitter: @ketab_n

أصبحت الأفكار التي تُقال في الصالون أكثر إلغازاً، وكلّما غدت الصيغ التي تُعبَّر بها مُزوَّقةً أكثر. فالمرآة البسيطة، التي كانت «النفيسات» ينظرن إلى أنفسهن فيها، تحوّلت في لغتهن إلى «مستشار الرشاقة». وحين تسمع سيّدة مجاملةً ما من مَركيز كانت تردّ عليه:

ـ إنّكم ـ أيها المَركيز ـ تضعون حطب اللطف في موقد الصداقة.

الرسول الحقيقيّ لصالون رامبوييه والصالونات الأخرى التي نظّمتها في منازلهن مقلّدات رامبوييه أصبحت امرأة، هي أخت الدراماتورغ جورج دي سكوديري. وقد اشتُهر عن جورج سكوديري، بالدرجة أولى، أنّه لم يكن يعتبر نفسه دراماتورغاً ببساطة، وإنّما دراماتورغ فرنسا الأوّل. ثانياً، كان يتميّز بأنّه لم يكن يتمتّع بأيّ موهبة دراماتورغيّة. وثالثاً، بأنه أثار ضجةً، عندما خرجت إلى النور مسرحيّة «سِيد»، المسرحيّة الأكثر شهرةً بين كلّ مسرحيّات كورنيل، مسيئاً إلى كورنيل بكلّ الطرق الممكنة، كاتباً أنّ مسرحيّة كورنيل، فضلاً عن أنها عديمة الأخلاق، ليست مسرحيّة على الإطلاق، لأنّها لم تُؤلَّف تبعاً لقوانين أرسطو الدراماتورغيّة. الحقّ أنّ سكوديري لم يفلح في رأيه الأخير لأنّ أحداً لن يتمكّن أبداً من إثبات، حتى لو استعان بأرسطو، أنّ مؤلَّفاً متطوّراً بشكل رائع، يلقى نجاحاً، ومكتوباً بأشعار جيّدة، ويشتمل على أدوار موفَّقة عديدة، ليست مسرحيّة. وليس عبثاً أنّ بطلي، فيما بعد، تحت ستار «الولدنة» و«الحِشَرية»، الفرّاش والمنجّد الملكي، قال إنّ جميع القواعد الأرسطيّة هذه سخف محض، وإنّ هناك قاعدة واحدة ووحيدة: يجب كتابة المسرحيّات بإتقان.

إذاً، كانت لجورج سكوديري الحسود أخت اسمها مادلين. في

Twitter: @ketab_n

البداية كانت تحلّ ضيفاً على صالون رامبوييه، ثمّ أسّست صالونها الخاصّ، وحين بلغت سنّ الرشد قامت بتأليف رواية بعنوان «كيلي، قصة رومانيّة» كانت بعيدة كلّ البعد عن أن تكون قصّة رومانيّة؛ فقد كانت تُصوّر باريسيّين معروفين في هيئة الرومان. كانت الرواية ظريفة، مزيّفة ومتفاصحة إلى أقصى حدّ. وقد اهتمّ بها الباريسيّون اهتماماً كبيراً، وبالنسبة للنساء أصبحت ببساطة مرجعاً، فضلاً عن أنّه أُلحِق بالجزء الأوّل منها ملحق فاتن مثل: الخارطة المجازيّة للّطف، صُوِّر فيها نهر التوق وبحيرة اللامبالاة وقرية الرسائل الغراميّة، وأمور غيرها من هذا القبيل.

حِمل هائل من التفاهة دخل الأدب الفرنسيّ، وملأ الهراء كليّاً العقول النفيسة. فضلاً عن أنّ تابعات مادلين وسّخنَ اللغة نهائيّاً، وفي نهاية المطاف صوَّبن ضرباتهنّ إلى الإملاء. ففي عقل إحدى النساء نضج مشروع رائع: من أجل جعل الكتابة الصحيحة متاحة للنساء اللواتي كنّ متأخرات عن الرجال، كما هي الحال دائماً، اقترحت السيّدة كتابة الكلمات كما تُلفظ. لكن لم تكد الأفواه، التي فُتحت من جرّاء هذا المشروع، تُغلَق حتى انهالت مصيبة على النفيسات.

في تشرين الثاني عام ١٦٥٩ انتشرت شائعة مفادها أنّ السيّد موليير سوف يطلق مسرحيّة كوميديّة من فصل واحد في «البوربون». وقد أثار عنوانها اهتمام الجمهور كثيراً، حيث سُمّيت المسرحيّة «النفيسات المُضحكات»[(١)] وفي ١٨ تشرين الثاني، في إحدى الأمسيات، عرض موليير مسرحيّته الجديدة، مع مسرحيّة كورنيل «سينّا».

(١) تُرجمت إلى العربية بعنوان «المتحذلقات السخيفات».

Twitter: @ketab_n

منذ الكلمات الأولى للمسرحيّة نصبت الصالة أذنيها بمرح. بدءاً من المشهد الخامس، راحت السيّدات في المقصورات يحملقن بأعينهن (نحن نَعدّ المشاهد بحسب نصّ «النفيسات» الذي وصل إلى أيّامنا). في المشهد الثامن بُهت المَراكزة الذين كانوا يجلسون على الخشبة، حسب عادات ذلك الزمان، والجمهور راح يضحك، وقد ضحك حتى نهاية المسرحيّة.

أمّا مضمون المسرحيّة فقد كان على النحو التالي: آنستان حمقاوتان، كاتوس ومادلون، في إشارة إلى سكوديري، قامتا بطرد زوجيهما لأنّهما بديا لهما لا يتمتّعان بأناقة كافية. فعمد الزوجان إلى الانتقام، حيث ألبسا اثنين من خدميهما ملابس المراكزة، وهذان الماكران حلاّ ضيفين على الحمقاوتين، وهما استقبلتا الخادمين المحتالين بالترحاب. راح ماسكاريل الوقح يلقي شتّى أنواع الهراء على مسامع السيّدتين لساعة كاملة، والمحتال الآخر، جودلييه الماكر، راح يكذب متحدّثاً عن مآثره الحربيّة. ماسكاريل، بوجهٍ وقح، لم يقرأ فحسب بل وأنشد شعراً من تأليفه، من هذا القبيل تقريباً:

دون أن أُشيح بنظري عنكِ
عشقتكِ في وضح النهار
عيناك اختطفتا القلب مني
أمسكوا باللص، اللصّ، اللصّ!

ـ اللصّ! اللصّ! عوى المكّار مصحوباً بهدير الصالة.

لقد بُصِق على خرائط اللطف، وعلى الصالونات التي تؤلّف فيها قصائد من هذا القبيل، ولكن، إضافة إلى ذلك، بُصق أيضاً على

Twitter: @ketab_n

الكتّاب وروّاد هذه الصالونات، حيث، في نهاية المطاف، كان يصعب انتقاد أيّ شيء كان لأنّه لم يتمّ تصوير مَركيزين حقيقيّين، وإنّما فقط محتالَين في زيّ مَركيزين.

على الخشبة مُثِّلت مسرحيّة هزليّة مبالغ فيها، وليست بريئة على الإطلاق. كانت هذه المسرحيّة الهزليّة تعكس أخلاق وعادات باريس في ذلك الوقت، والذين يتمتّعون بهذه الأخلاق وأسّسوا هذه العادات كانوا يجلسون هنا، في المقصورات على الخشبة. هدرت الصالة، وكان في مقدور الجمهور الإشارة إليهم بالأصابع. كانوا يعرفون «بارات» الصالونات التي شهّر بها المنجّد السابق أمام الجمهور الوقور برمّته. في المقصورات كان يُتهامَس بقلق، وسرت شائعة بين الجمهور بأنّ كاتوس هي كاترين رامبوييه بلا شكّ، وأنّ مادلون هي مادلين سكوديري.

كان المَراكزة جالسين على الخشبة مُحمرّين. وقد حمل الحمّالون مسكاريل ـ موليير. كانت «باروكته» الحمقاء من الضخامة بحيث إنّ نهايتها كانت تكنس الأرض حين ينحني، وعلى قمّتها كانت تتربّع قبعة صغيرة أشبه بالحدبة. على سرواله، في منطقة الركبتين، كانت تتدلّى كشاكش عجيبة. المَركيز المزيف جودلييه لعب دوره جودلييه العجوز، وكلا الممثّلين كانا يسيران بالمقلوب الآن، مُسلّين الجمهور، وهم يطلقون جملة من «القفشات» المزدوجة المعنى، من كلّ حدبٍ وصوب. الممثلون الآخرون تجاوبوا معهم في هذا، بمن فيهم مدموزيل دي بري التي لعبت دور مادلون، ابنة غورجيبيوس.

تفرّجوا: أيّ مَركيزين لطيفين وآنسات نفيسات لدينا! عفواً، لكنّ

Twitter: @ketab_n

هذين محتالان؟! طبعاً محتالان، لكن عمّن اقتبسا هذه الأفعال؟.. لقد سخِر، سخر، سخر حتى آخر خيط في البذلة، وهذه الأشعار، والتهذيب المفرط، والنفاق، والفظاظة في الحديث مع الفقراء!

حين جال موليير ببصره، من خلال فتحتَي العينين في القناع، إلى الجمهور أبصر السيّدة المحترمة رامبوييه جالسة في المقصورة في مقدَّمة حاشيتها. العجوز الوقورة اخضرّت من الغيظ، كما قال الجميع. فقد أدركت كنه المسرحيّة بصورة رائعة. وليست هي وحدها! فأحد الشيوخ صرخ من الصالة أثناء العرض:

ـ مرحى يا موليير؛ هذه كوميديا حقيقيّة!

انفجرت القنبلة على مقربة شديدة من صفوف النفيسات ذاتهن بحيث إنّ الهلع بدأ فوراً، فكان أوّل من غادر جيش رامبوييه أحد أخلص أتباعها وحملة أعلامها، الذي ألقى بالعلم الموكَل إليه مباشرةً في القذارة. هذا الفارّ من الجيش لم يكن سوى الشاعر السيّد ميناج.

بعد خروجه من العرض، تأبّط ميناج ذراع السيّد شابلن وهمس:

ـ يا عزيزي، يجب أن نحرق ما كنّا نسجد له... لا بدّ من الاعتراف بأننا كنّا نمارس الكثير من الهراء في الصالونات!

كما أضاف السيّد ميناج إلى هذا أنّ المسرحيّة، برأيه، لاذعة وقويّة جدّاً، وأنّه، عموماً، كان يتوقّع...

لكنّنا لا نعلم ما الذي كان يتوقّعه ميناج بالتحديد فقد ضاعت كلماته التالية.وسط ضجيج العربات.

انطفأت أضواء المسرح، وأظلمت الشوارع تماماً. وموليير، الملتفع بمعطفٍ طويل، والقنديل في يده، ساعلاً من جرّاء برد تشرين الثاني

Twitter: @ketab_n

القارس، توجّه إلى مادلين. اجتذبته نار الموقد، لكنّ أمراً آخرَ اجتذبه أكثر؛ فقد كان يُسرع لرؤية أخت مادلين وربيبتها أرماند بيجار، مينو ذاتها التي لعبت دور إفير في «ليون» قبل ستّة أعوام. كان موليير مسرعاً لرؤية أرماند لكنّه تجهّم بقلق حين فكّر في عينَي مادلين؛ فهاتان العينان كانتا تصبحان كريهتين كلّ مرّة ينخرط فيها موليير في حديث منعش مع أرماند المغناج الكثيرة الحركة.

لقد غفرت مادلين كلّ شيء: قصّته مع دوبارك في «ليون»، وكذلك غفرت للسيّدة دي بري وتصالحت معها، لكن الآن وكأنّ عفريتاً قد استقرّ في مادلين!

في عتمة شهر تشرين الثاني، في الضباب المشبع بالرطوبة، كان هناك قنديل يركض على ضفة النهر. يا سيّد موليير، اهمس لنا، فلا أحد يسمعنا، كم عمرك؟ ـ ثمانية وثلاثون، وعمرها ـ ستة عشر! وعدا عن ذلك: أين ولدتْ؟ من هو والدها ووالدتها؟ هل أنت متأكّد من أنها أخت مادلين؟..

لا يريد أن يجيب، وربّما لا يعرف ما الذي نسأل عنه.

هذا يعني وجوب عدم التحدّث عن الموضوع. يمكننا التحدّث عن موضوع آخر. مثلاً، عن الخطأ الذي ارتكبه موليير في «النفيسات» حين مسّ بالممثّلين البورغونيّين.

ـ لمن ستقدّم مسرحيّتك؟

ـ طبعاً لهم، للممثّلين الملكيّين ـ أجاب ماسكاريل ساخراً ـ فهم وحدهم يجيدون قراءة الشعر!

Twitter: @ketab_n

عبثاً مسّ السيّد موليير بالبورغونيّين. من الواضح لأولي الألباب أنّه شخص من مدرسة أخرى، وقد أسّس هذه المدرسة بنفسه، ومونفلوري ليس ممثّلاً رديئاً إلى هذا الحدّ على الإطلاق، كما كان يؤكّد بيرجيراك. دربا البورغونيّين وموليير مختلفان، وكان الواجب عدم المسّ بالبورغونيّين، خاصّةً وأنّ عبر «قفشات» لاذعة مثل التي في «النفيسات» لا يمكن إثبات شيء، ومخاصمة الجميع أمر بالغ الخطورة.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٤

حصاد الريح

في اليوم التالي تلقّى السيّد موليير إبلاغاً رسميّاً من السلطات الباريسيّة بأنّ مسرحيّته «النفيسات المضحكات» ممنوعة من العرض لاحقاً.

ـ جلاّدون! جمجم السيّد موليير غاطساً في مقعده. مَنْ قد يكون فعل ذلك؟

تجب الإشارة إلى أنّ موليير يختبر للمرّة الأولى ما سيتوجب عليه لاحقاً ـ ويمكن التنبّؤ بهذا ـ أن يختبره كثيراً. لا جدوى من وصف حالته؛ فمن لم تُنتزع منه مسرحيّة له بعد أوّل عرض ناجح لها، في كلّ الأحوال، لن يفهم أبداً، ومن انتُزعت منه مسرحيّاته ليس بحاجة إلى شرح. لكن، رغم ذلك، من فعل هذا؟ لا أحد يعلم. قيل إنّ الذي استحصل أمر المنع زائر بارز وقويّ للصالونات التي على شاكلة صالون السيّدة دي رامبوييه. في كلّ الأحوال، يجب إنصاف النفيسات: لقد رددن على ضربة موليير بضربة قويّة جدّاً.

بعد أن عاد إلى صوابه بدأ موليير يدرك ما الذي ينبغي القيام به، وإلى أين يلجأ، لكي ينقذ المسرحيّة. كانت هناك شخصيّة واحدة فقط

Twitter: @ketab_n

في فرنسا يمكنها إصلاح الوضع. فقط لديها كان بالإمكان إيجاد حماية في هذا الوضع المربك، إذ إنّ هذه الشخصيّة ليست خاضعة لتأثير أيٍّ من الأحزاب الأدبيّة، وهي لا تحابيها، ومحميّة منها. لكن، للأسف، هذه الشخصيّة، وكأنّما من باب النكاية، لم تكن في باريس آنذاك.

حينها، قرر بطلي، أولاً، إرسال المسرحيّة إلى هذه الشخصيّة من أجل الاطّلاع عليها. وهنا كتب في مقدّمة المخطوط خطاباً دفاعياً:

«فخامتكم! هناك سوء فهم واضح! «النفيسات» مسرحيّة كوميديّة مسلّية فحسب... فخامتكم، كإنسان يتمتّع بذوق استثنائيّ وفهم دقيق للأمور، دون شكّ، ستقومون بحلّ هذا الأمر التافه المضحك!..».

أُرسلت المسرحيّة إلى الملك للاطلاع عليها. لكن، عدا عن ذلك، قام مدير «البوربون الصغير» النشيط باتّخاذ عدد من الإجراءات الأخرى. جرى اجتماع مع مادلين، هرعت الفرقة القلقة، سافر موليير إلى مكان ما لكي يستعلم ويتوسّل، وعند عودته قرر اللجوء إلى وسيلة إضافيّة أخرى لكي يعيد المسرحيّة إلى الحياة.

هذه الوسيلة معروفة للدراماتورغيّين منذ زمن بعيد، وتتلخّص في أنّ المؤلّف، عندما يتعرّض للضغط، يلجأ إلى تشويه متعمّد لنتاجه. إنّها وسيلة متطرّفة! هكذا تتصرّف العظاءات التي، حين يتمّ الإمساك بها من أذنابها، تعمد إلى قطعها لأن أيّ عظاءة تدرك أنّ الأفضل لها أن تعيش دون ذنب من أن تفقد حياتها كلياً.

حاكم موليير الأمور بإتقان: الرقباء الملكيّون لا يعلمون أنّ أيّ تعديلات على العمل لن تغيّر قيد أنملة مغزاه الأساسيّ، ولن تُضعف تأثيره غير المرغوب فيه على المشاهد.

Twitter: @ketab_n

لم يقطع موليير الذيل وإنّما قطع افتتاحيّة المسرحيّة طارحاً منها المشهد الافتتاحيّ، بالإضافة إلى أنه مرّ بريشته على مواضع أخرى في المسرحيّة مُخرّباً إيّاها قدر الإمكان. كان المشهد الأوّل ضروريّاً، وحذفه قلّل من جودة المسرحيّة لكنّه لم يغيّر شيئاً في مضمونها الأساسيّ. يبدو أنّ هذا المشهد كان يشتمل على معطيات تقول إنّ كاتوس ومادلون باريسيّتان، وكانت غاية الكاتب هي أن يُطمئن الرقباء؛ فأشار إلى أنّ كاتوس ومادلون ليستا باريسيّتين وإنّما من الأقاليم، وقد جاءتا إلى باريس منذ عهد قريب.

في الوقت الذي كان فيه الممثّل الكوميديّ الماكر يحتال، مُدخلاً الخلل على مسرحيّته، حدث شيء في باريس لم يُسمع له مثيل من قبل. ليس في المدينة وحدها بل وفي دائرة قطرها خمسون «ليو»[١] كان الحديث يجري فقط عن «النفيسات المضحكات». كانت الكلمات تطرق باب السيّد موليير، وقد تمثّلت، أوّلاً، في شخص أديب اسمه سوميز. كان هذا يرغي ويزبد في الصالونات مؤكّداً أنّ موليير ليس سوى سارق أدبيّ، لا أكثر ولا أقلّ، عدا عن أنّه كاتب مسرحيّات هزليّة سطحيّ وفارغ. وقد وافقوه.

ـ لقد سرق كلّ شيء من عند القسّ الكاثوليكيّ دي بور! كان الأدباء يصرخون في المضافات.

ـ آخ، كلا! اعترض آخرون. إنّ مادة هذه المسرحيّة الهزليّة مسروقة من عند الطليان!

---

(١) Lieue (بالفرنسيّة): وحدة قديمة لقياس المسافات.

Twitter: @ketab_n

أخبار المنع سكبت الزيت على النار. أراد الجميع مشاهدة المسرحيّة التي يتمّ فيها التهكّم من أناس الحلقة الراقية ـ روّاد الصالونات. في الوقت الذي كان فيه الباريسيّون يَغلون وهم يتجادلون حول الطُّرفة، حضر بائع الكتب دي لوين إلى المسرح وطلب، بتذلّل، إعطاءه نسخة عن المخطوط الذي لم يطّلع عليه من قبل. باختصار، كان كلّ شخص يعمل في منحاه، وفي نهاية المطاف آليّة موليير الماكرة أعطت نتائج جيّدة؛ فقد وجد حُماةً بين أقوياء العالم، وبرّر لنفسه بحذاقة بالغة العثور على الحماية لدى الملك، وبعد أسبوعين سُمح بعرض المسرحيّة الكوميديّة، لكن مع التعديلات.

اغتبطت الفرقة بشكل لا يوصف، وهمست مادلين لموليير بجملة واحدة فقط:

ـ ضاعف أسعار التذاكر.

مادلين العمليّة كانت محقّة. فقد أظهر «بارومتر» المسرح الأمين ـ الصندوق ـ عاصفة. في الثاني من كانون الأوّل قُدِّم عرض ثانٍ، والمسرح، الذي يعطي في الحالات العاديّة إيراداً يبلغ أربعمائة ليرة تقريباً في الليلة الواحدة، أعطى هذا المساء ألفاً وأربعمائة ليرة. واستمرّ الأمر على هذا المنوال. وأصبح موليير يعرض «النفيسات» مع مسرحيّات كورنيل أو سكارّون، وفي كلّ مرّة كانت التذاكر تنفد.

ورغم ذلك كتب كاتب المقالات النقديّة جان لوريه ذاك، في «الجريدة» الشعريّة التي يصدرها، أنّ المسرحيّة تافهة وشعبويّة، لكن يجب الإقرار بأنّها مضحكة جداً:

Twitter: @ketab_n

ظننت أني لن أحتمل «المغص».

وها قد ضحكت حتى الامتلاء!

دفعت ثلاثين قرشاً لقاء الدخول

وضحكتُ بعشر ليرات.

بائع وناشر الكتب غيليوم دي لوين بلغ مرامه. فبطريقة خفيّة ما تمكّن من الحصول على نسخة عن مخطوط «النفيسات»، وأبلغ موليير أنّه سيبدأ بطبع المسرحيّة. وذاك بقي عليه فقط أن يوافق على ذلك. فكتب مقدَّمةً للمسرحيّة تبدأ بالكلمات التالية: «من الغريب أن يطبع الناس ما لا يرغبون فيه!» لكن، في الواقع، لم يكن هناك ما يزعج كون المسرحيّة سوف تُطبع خاصّةً وأنّ مقدّمة المسرحيّة منحت المؤلّف إمكانيّة الإفصاح عن بعضٍ من آرائه حول «النفيسات».

لا ينبغي للنفيسات ـ في رأي موليير ـ أن يشعرن بالحنق على هذه المسرحيّة لأنّه تمّ فيها تصوير مقلّداتهن المضحكات فحسب. فدائماً ما تحوم حول ما هو جيّد في الدنيا قرود كريهة... وهلمّ جرّا. عدا عن ذلك، قال موليير بوقار إنّه ظلّ ضمن حدود النقد النزيه والمباح عندما كتب هذه المسرحيّة.

يجب الانتباه إلى أنّ موليير نادراً ما أقنع أحداً عبر مقدّمته، ووُجد في باريس أناس أشاروا إلى أنّ هناك نقداً نزيهاً بالفعل، كما هو معروف لأيّ شخص مثقّف، لكن هيهات أن يُعثر على إنسان واحد في العالم يمكنه أن يقدّم للسلطات نموذجاً عن نقدٍ مباح. لكن، فلنسمح لموليير بالدفاع عن نفسه كما يجيد. فهذا ضروريّ له لأنّه

Twitter: @ketab_n

بات واضحاً تماماً أنّه، منذ العروض الأولى «للنفيسات»، قد استرعى انتباهاً بالغاً ومزعجاً. والسيّد موليير، رغماً عن أيّ رغبة أخرى حتى رغبته الشخصيّة، أعدّ نفسه لاحقاً بحيث لا يوهنه هذا الانتباه على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٥

السيّد الغامض راتابون

سرعان ما تبيّن أنّ موليير، بفضل من الله كما يُقال، دراماتورغ يعمل بسرعة كبيرة جدّاً، ويُجيد كتابة الشعر بسهولة. ففي الوقت الذي كان فيه الأدباء في صالونات باريس، والممثّلون في «أوتيل بورغون»، يشتمونه كان موليير يكتب مسرحيّة كوميديّة جديدة شعراً، وقد أصبحت جاهزة في الربيع، وفي ٢٣ أيّار عام ١٦٦٠ قام بعرضها. كان عنوانها «سغاناريل، أو الخرتيت الوهمي» وقد شارك في أدائها: آل دوبارك اللذان عادا إلى موليير، إذ لم يتأقلما مع مسرح «المستنقع» والزوجان دي بري وليبي ومادلين وموليير الذي أدّى دور سغاناريل.

كانت فترة هادئة، فالملك لم يكن في باريس الأمر الذي أدّى إلى رحيل الكثير من الناس البارزين. لكنّ المسرحيّة استدعت اهتماماً حادّاً من قِبل الجمهور، خاصّةً وأنّ شجاراً نشب في العرض الافتتاحيّ لها.

أحد البرجوازيّين أثار صخباً مخيفاً في الصالة، مُعلناً جهاراً أنّ السيّد موليير إنّما يُشهّر به بالتحديد، مُصوِّراً إيّاه في المسرحيّة الكوميديّة في شخص سغاناريل. وقد سلّى حقّاً الصالة كثيراً بخطابه. شعر المزّاحون بالبهجة وهم يستمعون إلى البرجوازيّ الضاجّ الذي هدّد بأن

Twitter: @ketab_n

يشكو للشرطة الممثّل الكوميديّ الذي يمسّ بالحياة الزوجيّة للناس الشرفاء. هناك سوء فهم هنا بالطبع؛ فموليير لم يكن يقصد أيّاً من البرجوازيّين حين قام بتأليف «سغاناريل»، وإنّما شخّص على الخشبة النموذج العام لملاّك غيور وحسود. من المؤكّد أنّ كثيرين تعرّفوا أنفسهم في سغاناريل هذا لكنّهم كانوا أكثر ذكاءً من ذلك البرجوازيّ الذي كان يصرخ في الصالة.

وهكذا، موجداً لنفسه، بفضل «النفيسات» بضع عشرات من الأعداء بين أدباء باريس، اختصم موليير كذلك، بعد «سغاناريل» مع البرجوازيّين الطيّبين من الأحياء التجاريّة.

في مضافات باريس جرت مناقشة «سغاناريل» بضجيج كبير، لكنّ الآراء التي أدلى بها الأدباء كانت متشابهة في معظمها:

- بُحث عن المكان الذي سرق منه موليير هذه المسرحيّة الكوميديّة، لكنّ هذه التحرّيات لم تُكلّل بنجاح مميّز. قيل إنّ موليير قد نسخ سغاناريل عن شخص يُدعى أرليكين، كان يتخيّل نفسه خرتيتاً - مرّة أخرى عن مسرحيّة هزلية إيطالية - لكنّ هذا كلّه لم يكن جليّاً.

أثناء عرض المسرحيّة كان موليير يجد، عدّة مرّات، رسالة موجّهة إليه. شخص يدعى نوف فيلانين كتب إلى موليير أنّه، بعد أن شاهد مسرحيّته الكوميديّة «الخرتيت الوهمي» وجدها رائعة إلى درجة بدت له مرّة واحدة ليست كافية، وأنّه حضرها ستّ مرات. بداية كهذه للرسالة صبغت بالرضا ضدّي موليير الذي بدأ. . . الذي بدأ في الآونة الأخيرة يلاحظ بدهشة أنّ الكلمات لا تبدو مطلقاً كما يُعبّر عنها بعضهم، وإنّما يُعبَّر عن معظمها بسُبابٍ منفلت العقال في كافّة مفارق الطرق.

Twitter: @ketab_n

واصل قراءة الرسالة الممتعة، وتبيّن لاحقاً أنّ نوف فيلانين يتمتّع حقاً بذاكرة استثنائيّة؛ فخلال العروض الستّة قام بتدوين المسرحيّة الكوميديّة برمّتها حتى آخر كلمة. عند هذا الموضع نصب موليير أذنَيه، وليس عبثاً، لأنّ السيّد نوف فيلانين أخبره أنّه قد كتب تعليقاته الشخصيّة على كلّ مشهد من مشاهد «الخرتيت»، وأنّه سيرسل المسرحيّة مرفقة بهذه التعليقات إلى الطبع لأنّ، ـ كتب السيّد نوف فيلانين. . . ـ «هذا ضروريّ تماماً لأجل مجدك ومجدي!».

«يمكن لأناسٍ عديمي الذمّة ـ كتب لاحقاً السيّد نوف فيلانين ـ أن يقوموا بإصدار تسجيل المسرحيّة المُصحَّحة بصورة رديئة، مسيئين بذلك إلى السيّد موليير».

قصارى القول، قام السيّد نوف فيلانين بإعطاء المسرحيّة للناشر جان ريبو، على «كورنيش كي ديزوغستين».

ـ أقسم بالله ـ صاح موليير بعد أن أنهى قراءة مُحبّ المجد السيّد نوف فيلانين ـ لن يوجد إنسان أكثر وقاحةً في العالم!

لكن، في الأخيرة، كان السيّد موليير مخطئاً!

المسرحيّة، التي صدرت مع تعليقات نوف فيلانين، قدّمت، قبل أيّ شيء آخر، حجّةً لبعض الناس الظرفاء لكي يفترضوا أنْ لا وجود لأيّ نوف فيلانين كان، وأنّه لم يوجد في الدنيا من قبل، وأنّ موليير قد اتّخذ هذا الاسم المختلف غطاءً لإصدار المسرحيّة! لكن لا بدّ من نسْب هذه الفرضيّة إلى الفرضيّات العجيبة؛ ففي واقع الحال، لماذا التستّر باسم غريب لإصدار مسرحيّة تُعرض على الخشبة باسم الكاتب الحقيقيّ؟ ألكي تكون هناك إمكانيّة لإقحام التعليقات ضمن المسرحيّة؟ هذا هراء!

Twitter: @ketab_n

تميّز عام ١٦٦٠ بأنّ توفرت لموليير الإمكانية، منقطعاً عن «الريبرتوار» الجاري عرضه في «البوربون الصغير»، لتقديم «نفيساته» أمام الملك. ففي ٢٩ حزيران عُرضت المسرحيّة في «غابة فينسين» قرب باريس، حيث سافر الملك الشاب ليرتاح في أحضان الطبيعة. كان نجاح المسرحيّة مطلقاً. وهنا تبيّن بصورة قاطعة أنّ لويس الرابع عشر يكنّ حبّاً شديداً للمسرح، خاصةً الكوميديا، الأمر الذي أخذه مدير «البورغون الصغير» الخبير بالحسبان.

بعد ذلك عادت الفرقة إلى باريس وباشرت «ريبرتوارها» الذي بدأ يُظهر بوضوح أنّ مسرحيّات موليير تتفوّق، من حيث عدد العروض ومن حيث الكميّة، على مجموع المسرحيّات الأخرى، الكوميديّة منها والتراجيديّة. في ٣٠ آب قدّم موليير «النفيسات» لأجل الأخ الوحيد للملك وحاشيته في اللوفر، وثانيةً بنجاح هائل. ارتفعت شمس الممثّل الكوميديّ الجوّال بوضوح، وبشعور داخليٍّ لذيذ بالنجاح دخلت الفرقة خريف عام ١٦٦٠. وها في تشرين الأوّل، بعد أربعة أيّام على موت الهجّاء المسكين سكارّون، المطمئن أخيراً في قبره بعد آلامٍ مهولة أنزلها به الشلل، جرت حادثة غير عاديّة لا تفسير لها. بالتحديد: مدير فرقة شقيق الملك، الذي حقّق نجاحاً مطلقاً في البلاط، طُرِد من «البوربون الصغير» مع فرقته كلّها.

في يوم الاثنين المبكي، ١١ تشرين الأوّل، ظهر في صالة «البوربون» السيّد راتابون، الناظر الرئيس لكافّة الأبنية الملكيّة. كان راتابون مواظباً بشكل غامض، وكان يجرّ خلفه معمارياً مع رسومات ومخطّطات في يدَيه، ووراء المعماريّ كان يسير حشد من العمّال، وفي

Twitter: @ketab_n

أيديهم معاول ومجارف وعتلات ومطارق. الممثّلون المنزعجون توجّهوا إلى السيّد راتابون يسألونه عن معنى هذا الظهور، ورداً على ذلك أعلن السيّد راتابون، بجفاءٍ ولطف، أنّه قد جاء لكي يهدم «البوربون الصغير».

ـ كيف؟ صاح الممثّلون. أين سنمثّل إذاً؟

عن هذا أجاب السيّد راتابون بلطف أنّ هذا مجهول بالنسبة إليه.

عندما حضر موليير تمّ إيضاح الأمر بالكامل: جاء راتابون ومعه مشروع رائع ومُعدّ إعداداً كاملاً لإعادة بناء اللوفر، ولكي تجري عمليّة إعادة البناء بصورة ناجحة لا بدّ من إزالة، ليس «البوربون الصغير» فقط بل وكنيسة «سان جيرمان لاكسيرّوا» المتاخمة له، عن وجه الأرض.

تزلزلت الأرض تحت قدمَيّ موليير.

ـ يعني، دونما إنذار، سنصبح في الشارع؟ سأل موليير.

بدلاً من الجواب ربّت راتابون على كتفَي موليير بتعاطف، ملوّحاً بيدَيه. بصورة رسميّة كان محقّاً تماماً: لم يكن ضمن واجباته، على الإطلاق، تبليغ مدير الممثّلين بعمليّات إعادة البناء التي خطّطها معماريّ الملك للأبنيّة الملكيّة. وعلى الفور دوّت المطارق في «البوربون»، وتطاير غبار الجصّ.

شوّهت التصعيرات وجه المدير الذي كان قد أصبح مشهوراً. هرع راكضاً إلى مكان ما باحثاً عن أحدٍ ما، وظهر أمامه سكرتير المسرح لاغرانج. كان وجهه يتّقد كراهيةً.

ـ إنّ سوء نيّة راتابون واضحة تماماً! همس لاغرانج.

Twitter: @ketab_n

متغلّباً على الصدمة الأولى، اندفع موليير باحثاً عن الحماية لدى راعي الفرقة ـ السيّد. والسيّد. . .

لكن، لنعد للحظة إلى السيّد راتابون. بالفعل، ما الحجّة التي بمقتضاها أمكن الإقدام على إزالة المسرح دون إنذار الفرقة الملكيّة ولو بكلمة واحدة؟ إذ لا يمكن على الإطلاق افتراض أنّ السيّد راتابون لم يلاحظ، بسبب شرودهِ، أنّ على مقربة منه هناك ممثّلين يُمثّلون، بل حتى كانت هناك فرقتان في وقت من الأوقات (أثناء حادثة راتابون لم تكن الفرقة الإيطاليّة في باريس؛ إذ كانت قد غادرت فرنسا)، يتبقّى الاعتراف بأنّ سيادة الميّار[١] راتابون قد تعمّد عدم تحذير الفرقة من إزالة المسرح.

فضلاً عن ذلك، قام بإخفاء كافة الإعدادات لهذا حتى لا يتسنّى للفرقة اتّخاذ أيّ إجراءات لإنقاذ عروضها. إذا كان هذا الأمر صحيحاً، وهو كذلك تماماً، فينبثق السؤال: ما الذي دفع سيادة الميّار راتابون للقيام بذلك؟

للأسف، الجميع يؤكّدون بصوتٍ واحد أنّ راتابون قد دُفع إلى هذا العمل من قِبل جماعة قويّة جدّاً من الذين لم يكونوا يطيقون موليير ونتاجه منذ الأيّام الأولى لظهوره في باريس. وقد قُدِّم افتراض بأنّ سيادة الميّار قد تمّت رشوته، لكنّي لا أجرؤ على تأكيد هذا بدقّة إذ لا توجد أدلّة لديّ. لكن من بالتحديد قام بتوجيهه، لا أحد يعلم ذلك.

وبالتالي؛ فالسيّد. . .

ساهم السيّد مساهمة حيويّة جدّاً في مصير الفرقة، وأعلم الملك

---

(١) الميّار هو المُموّن في الجيش.

Twitter: @ketab_n

فوراً بما حدث في «البوربون الصغير». فقام فخامته باستدعاء سيّادة الميّار، وردّاً على السؤال عمّا يحدث في «البوربون» قدّم جواباً مقتضباً، ولكن وافياً، مُلفتاً انتباه الملك إلى مخطّط الأروقة والمباني المستقبليّة.

انبثق السؤال: فما العمل مع فرقة الدوق الأورليانيّ التي ستصبح في الشارع؟ وقد حسم الملك الشاب هذه المسألة في التوّ واللحظة: هل لدى ملك فرنسا صرح مسرحيّ واحد فقط في باريس؟ قدِّموا لفرقة السيّد موليير مسرح «باليه رويال»، الذي كان يُدعى سابقاً قصر الكاردينال.

حينها أخبروا الملك، بارتباك، أن ليس فقط لا يمكن التمثيل في صالة «باليه رويال» بل حتى دخولها مخيف لأنّ العارضة المتعفّنة قد تنهار على الرؤوس في أيّ لحظة. وهذا أيضاً تمّت تسويته فوراً. فقد أُمر السيّد راتابون بمواصلة هدم «البوربون الصغير» لكن عليه، في الوقت ذاته، المباشرة بترميم كامل لباليه رويال بحيث تتمكّن فرقة موليير مباشرة عروضها هناك بأسرع ما يمكن. وهنا لم يعد أمام السيّد راتابون إلا الشروع بالترميم دون إبطاء.

وهكذا، أصبح موليير مَديناً للملك لويس الرابع عشر لإنقاذه الموسم التالي. صالة مسرح «باليه رويال» كانت تلك الصالة ذاتها التي قام فيها هاوي المسرح العظيم، الكادرينال ريشيليو، بإخراج مسرحيّة «ميرام»، التي شارك في تأليفها، بديكور فخم بصورة غير عاديّة، على خشبة مُمكْنَنَة. لكن رغم الأعاجيب التقنيّة فقد أخفقت المسرحيّة إخفاقاً يندر له مثيل. وحين جرت حادثة راتابون كانت الصالة المُهمَلة مقوَّضة كليّاً. كانت العوارض منخورة، والسقوف مثقوبة، والأرضيّة كانت في حالة بحيث إنّ السير عليها كان مُخيفاً ـ قد يكسر المرء رجله. لكنّ الحديث مع

Twitter: @ketab_n

الملك ألهب حماسة راتابون كثيراً، وأثناء ترميمه «باليه رويال» بنشاط كانت فرقة موليير تُمثّل في قصور النبلاء الفرنسيّين الأكثر رقيّاً. فقد عُرضت «الخرتيت» بنجاح لدى المارشال دي لا مايورايل، ولدى الدوق دي روكلور، ولدى الكونت دي فاياك والدوق دي ميركور.

لكن في تلك الفترة أُتيح لموليير التمثيل حتى في مجتمع أرقى. فقد أعرب الكاردينال مازارين، وليّ أمر الملك ووزير فرنسا الأوّل، رغم مرضه الذي يقيّده إلى المقعد، عن رغبته في مشاهدة مسرحيّات موليير الجديدة التي أثارت ضجةً. فقامت الفرقة بعرض «النفيسات» و«الطائش» في قصره، في ٢٦ تشرين الأوّل عام ١٦٦٠.

شعر الكاردينال بالابتهاج، لكن ابتهج أكثر من الكاردينال بكثير شاب كان متوارياً خلف ظهر مقعد الكاردينال، غير أنّ الوجهاء الحاضرين تظاهروا بأنّهم لا يلحظون الشاب رغم أنّهم كانوا يرمقونه بأطراف أعينهم طوال الوقت.

كتب لورييه في جريدته المسمّاة «آلهة الإلهام التاريخيّة» بشيء من الإبهام: «لم يُعجب جول فقط بكلتَي المسرحيّتَين كثيراً بل وبقيّة الشخصيّات الرفيعة المقام كذلك»، ناهيكم عن أنّ كلمات «الشخصيّات الرفيعة المقام» كُتبت بحروف كبيرة. بعد ذلك يشهد لورييه بأنّ سماحة الكاردينال، لكي يشجّع الفرقة، أمر بوزن..

ألفي «إكو» من «المينونات»[١]

لأجل موليير ورفاقه

---

(١) «مينون» وحدة قياس طوبوغرافية تساوي سبعة أقدام، ومعنى البيت أنّ الكاردينال أعطى لموليير ورفاقه صالة مسرح باليه رويال.

Twitter: @ketab_n

الحروف الكبيرة في مقالة لورييه مفهومة؛ فالذي كان متوارياً خلف مقعد الكاردينال لم يكن سوى الملك الذي عدّ أنّ من الضروري، لسبب ما، أن يحضر هذا العرض متنكّراً.

لم يتوانَ موليير عن استغلال نجاحه في البلاط، وحصل على إذن ليس لنقل أثاث غرف زينة الممثّلين فقط من «البوربون» إلى «باليه رويال» بل كذلك طابقَين كاملَين من المقصورات. الشهيّة، كما هو معروف، تأتي مع الطعام، والمدير كان يرغب في نقل الديكور والآلات أيضاً إلى «باليه رويال» لكنّه لم يتمكّن من ذلك. الميكانيكيّ المسرحيّ الإيطاليّ المعروف فيغاراني، الذي جاء إلى باريس ليحلّ محلّ الميكانيكيّ توريللي الذي لم يكن أقلّ منه شهرةً، أعلن أنّ الآلات ضرورية له لإخراج الباليهات الملكيّة في «تويلري». فاندلعت حرب، وانتصر فيها فيغاراني. ظلّت الآلات تحت تصرّفه، وقد حقّق الميكانيكيّ العظيم معجزته الأولى، لكنّها لم تكن من تلك التي كان القصر يتوقّعها منه. بالتحديد: قام بحرق الآلات التي استولى عليها، مع الديكورات، عن بكرة أبيها، الأمر الذي أثار استغراب الجميع باستثناء شخص واحد ثاقب النظر، هو شارل لاغرانج. السكرتير وأمين الصندوق، الوفيّ لمسرحه، وقال لمديره مهتاجاً:

ـ هل تعلم يا معلّم أنّ فيغاراني سافل حقيقيّ! فقد قام بحرق الديكورات والآلات لكي ينسى الجميع أعمال توريللي!

ـ أرى أنه شخص مسرحيّ تماماً، فيغاراني هذا. ردّ موليير على ذلك.

وبالفعل كان فيغاراني شخصاً مسرحيّاً حتى الصميم، أي أنه لم

Twitter: @ketab_n

يكن يحتمل أيّ منافسين له، الأمر الذي لم يمنعه، بالمناسبة، عن أن يكون تقنياً من الطراز الأوّل.

أثناء الجولات الفنيّة الاضطراريّة على قصور عليّة القوم توجّب على موليير مكابدة إحدى المحن. «البورغون» و«مسرح المستنقع»، مستغلّين أنّ موليير قد أضحى دون مسرح مؤقّتاً، راحوا يُغرون الممثّلين، حيث وعدوا الممثّلين الموليريّين بجبال من الذهب، وكانوا يؤكّدون لهم أنّ عمله لن ينتعش في «باليه رويال» بالطبع.

كان لهذا تأثير كبير على موليير، وقد أصبح شاحباً، وبدأ يسعل ويهزُل، ويرمق ممثّليه بازورار، ناظراً إليهم بعينَين متوسّلتَين قلقتَين. في هاتَين العينَين كان يُقرأ السؤال التالي: هل سيخونونه أم لا؟ لاحظت الفرقة حاله، وفي أحد الأيّام جاءت وعلى رأسها شارل لاغرانج، وأخبرت موليير بأنّ الفرقة، نظراً لكونه يجمع في نفسه مواهب غير عاديّة والشرف والمعاملة اللطيفة، ترجوه ألاّ يقلق؛ فالممثّلون لن يذهبوا للبحث عن السعادة في مكان آخر مهما كانت العروض التي تُقدَّم لهم مغرية.

أراد السيّد موليير، ردّاً على ذلك، أن يقول شيئاً بليغاً، كما كان يُجيد، لكنه، بسبب تأثّره، لم يقل شيئاً على الإطلاق، وإنّما ابتعد وحيداً يفكّر بعد أن صافح الجميع وحسب.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٦

القصة المُحزنة للأمير الغيور

«لا تُكرِهوا موهبتكم»

لافونتين

الخطأ الكبير الذي اقترفه موليير في هذه المرحلة من حياته كان التالي: كان يُصيخ السمع إلى الأقوال السيّئة التي تُقال عنه، وكانت تجرحه الإهانات التي كان عليه ألاّ يُعيرها أيّ اهتمام. منذ الأيّام الأولى لظهور مسرحيّاته الكوميديّة على الخشبة، وكذلك النُّكات ـ المسرحيات الهزلية القصيرة التي كان يعرضها إلى جانب مسرحيّات «الريبرتوار» الكبير، بدأ أدباء باريس يقولون بصوتٍ واحد إنّ موليير مهرّج فارغ، عاجز عن معالجة الموضوعات بصورة جادّة. وأشخاص كهؤلاء كانوا بالعشرات. والحقيقة إنّ عدداً من الأفراد كانوا يعارضونهم، من بينهم كاتب الأمثولات المعروف الرفيع الموهبة لافونتين الذي أصبح، بمرور الوقت، أفضل صديق لموليير. بل حتى بعد مسرحيّاته الأولى هتف لافونتين لموليير:

ـ هذا الإنسان «على ذوقي!». وراح يتحدّث عن روعة اقتفاء موليير أثر الطبيعة والحقيقة في مؤلّفاته.

Twitter: @ketab_n

لكن، بدلاً من الإصغاء إلى أقوال لافونتين، كان موليير يُصيخ السمع إلى ما يقوله أشخاص من نمط آخر. وكانت نتيجة ذلك هي أنّ موليير نشأت لديه فكرة أن يثبت للعالم أجمع مدى قدرته على معالجة موضوع الغيرة الأبديّ، الذي تناوله في «سغاناريل» بجديّة، مستخدِماً، لهذه الغاية، بطلاً من أرقى شرائح المجتمع. وعندما كان يعمل على «سغاناريل» تمكّن، بطريقة ما، من كتابة مسرحيّة كوميديّة بطوليّة بعنوان «دون غارسيا النافاري، أو الأمير الغيور».

في ذلك الوقت كان سيادة الميّار قد أنهى ترميم «باليه رويال». فقد بنى كلّ شيء، وتحت السقف امتدّت لوحة هائلة الحجم لأجل غايتَين: مداعبة أبصار المشاهدين بمشهد سماء صناعيّة، والأهمّ لكي لا يُنقّط الماء على هؤلاء المشاهدين، حيث إنّ السقف ظلّ «يُشرشر» بغضّ النظر عن ترميم راتابون.

في ٢٠ كانون الثاني عام ١٦٦١ دخلت فرقة موليير «باليه ريال»، وفي إثرها ظهرت أيضاً الفرقة الإيطاليّة التي عادت إلى باريس. مرّة أخرى اقتسموا الأيّام لكن، في هذه المرّة، الإيطاليّون هم الذين صاروا يدفعون لموليير، كتعويض عن النفقات التي تكبّدها أثناء الترميم. وقد تكبّد هذه النفقات لأنّ المال المخصَّص من الخزانة لأجل الترميم لم يكن كافياً.

غمرت الأنوار «باليه رويال»، والتحذيرات المشؤومة من أنّ العمل لن ينتعش ثانيةً تبدّدت، واستقبل الجمهور مسرحيّات موليير بحماس؛ فقد تبيّن، بصورة نهائيّة، أنّها تتفوّق على مسرحيّات كافّة المؤلّفين الآخرين.

Twitter: @ketab_n

بدا أنّ كلّ شيء يسير بنجاح، لكن حينذاك، في ٤ شباط، ظهر على الخشبة هذا «الأمير الغيور» ذاته. أُنفق الكثير من المال على الإخراج الباذخ للمسرحيّة الراقية[١]. واضح أنّ المدير الذي تبخّرت لديه ذكريات قذفه بالتفاح قد تمثّل في شخص الأمير المتأنّق.

هيّأ الجمهور نفسه باهتمام لمشاهدة العمل الجديد للسيّد موليير، واستمع بابتهاج إلى مونولوج إلفيرا الأوّل بأداء تيريزا ماركيزا دوبارك. ثم بدأ دون غارسيا، مونولوجاته الفخيمة عن المخاطر الجليلة، وعن بريق عينَي دونّا إلفيرا، وعن أمور رفيعة أخرى. كانت هذه المونولوجات طويلة إلى درجة أنّ الجمهور كان يرنو أثناءها، دون تعجّل، إلى السماء الزرقاء، وإلى مقصورات «باليه رويال» المذهّبة. كان موليير يمثّل لكن قلبه كان كَدِراً: أعطى الصندوق ستمائة ليرة، والمسرح كان بعيداً عن الامتلاء. الجمهور، شاعراً بالملل، كان يتوقّع أنّ الأمتع سيأتي لاحقاً لكن، بهلع، ينبغي الاعتراف بأنّ ما انتظره لم يكن ممتعاً، وانطفأت الأضواء على الأمير الغيور مصحوبةً بتصفيق خفيف.

لتحديد ما إن كانت مسرحيّاتهم قد لاقت استحسان الجمهور أم لا، يعرف الدراماتورغيّون المخضرمون أنّه لا ينبغي إضجار الأصدقاء بالأسئلة حول مدى جودة مسرحيّاتهم، أو قراءة المقالات النقديّة. فهناك طريقة أكثر بساطة: يجب التوجّه إلى الصندوق، والسؤال عن الإيرادات. وهذا ما فعله موليير، فعلم أنّ الصندوق قد أعطى خمسمائة

---

(١) يستخدم بُلغاكُف هذا الوصف للمسرحيّة من باب السخريّة، فالترجمة الحرفية للعبارة هي: المسرحيّة التي من عليّة القوم.

Twitter: @ketab_n

ليرة في العرض الثاني، وفي الثالث مائة وثمانٍ وستين ليرة، وفي الرابع أربعمائة وستّاً وعشرين. حينها أضاف موليير إلى «دون غارسيا» مسرحيّة «الخرتيت» الناجحة، وحصل على سبعمائة وعشرين ليرة. لكن بعد ذلك، حتى «الخرتيت» لم تعد تساعد، معطيةً حصيلة مقدارها أربعمائة ليرة. وفي نهاية المطاف، ظهرت على الخشبة السبعة القاتلة، والسابع عشر من شباط كان يوماً عسيراً في حياة موليير.

يوم الثلاثاء، في ١٧ شباط، العرض السابع لـ«دون غارسيا» أعطى عائداً مقداره سبعون ليرة. حينها تبّددت آخر شكوك المدير: المسرحيّة ذاتها، وهو ذاته في دور غارسيا، قد أخفقا نهائيّاً دونما رجعة. فقد أدّى دور الأمير بدرجة من الرداءة بحيث إنّه فكّر، حتى قبل العرض السابع، في إعطاء الدور لممثّل آخر.

رافق الفشل كلّ ما يرافق فشل الدراماتورغ: فرح الأعداء الوحشيّ، وتعاطف الأصدقاء الباكي الذي هو أسوأ بكثير من الفرح المُعادي، ضحك من وراء الظهر، أنباء جنائزيّة عن أنّ قريحة المؤلّف قد نضبت، تعليقات لاذعة ساخرة مُبتكَرة.

شرب موليير هذه الكأس كلّها، مكافأةً له على تحليقه إلى المجتمع الراقيّ، وعلى تأليفه مسرحيّة طويلة باردة.

ـ هؤلاء البرجوازيّون لا يفقهون شيئاً في الفنّ! زمجر المدير غير المُنصف على الإطلاق، وهو يخلع زيّ الأمير الفاخر متحوّلاً إلى من كان يجب أن يكونه، أي جان باتيست بوكلن. اختتم كلامه بالسُّعال والوعيد بأنّه سيسحب «دون غارسيا» من «باليه رويال»، وسيعرضها في

Twitter: @ketab_n

البلاط. جليّ أنّه كان يفكّر على النحو التالي: من قد يفهم خوالج أمير إن لم يكن الأمراء أنفسهم؟

وقد نفّذ وعيده بعد عام، عارضاً «دون غارسيا» في البلاط. وهنا أيضاً فشل كما في «باليه رويال». عندها، ودون أن ينبس بكلمة، قرّر مدير «باليه رويال» نقل بعض أبيات الشعر، التي كانت أفضل من غيرها، من «دون غارسيا» إلى مسرحيّاته الأخرى لكي لا تضيع البضاعة سدى، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يحتمل أن يُحدِّثه أحد عن «الأمير الغيور».

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٧

بموت الأمير الغيور

حدثٌ كبير جرى مطلع العام ١٦٦١. فقد توفي الكاردينال مازارين في ٩ أيار، وفي اليوم التالي مباشرةً، الملك لويس الرابع عشر، ابن الثالثة والعشرين، صعق الوزراء.

ـ لقد استدعيتكم أيها السادة ـ قال الملك الشاب ناظراً إلى الوزراء دون أن تطرف عيناه ـ لأقول لكم إن الوقت قد حان لكي أحكم الدولة بنفسي. سوف تساعدونني بالنصائح لكن فقط حين أسألكم ذلك. منذ هذه اللحظة أمنعكم عن توقيع أيّ ورقة دون أمرٍ مني، حتى لو كان جواز سفر تافه. يجب أن تقدِّموا شخصياً تقاريرَ يومية عن عملكم.

أدرك الوزراء، ومن ورائهم فرنسا كلها، مدى جديّة الشخص الجالس على العرش.

وموليير كذلك أدرك هذا جيداً، ومباشرةً حدّد المكان الذي يجب اللجوء إليه طلباً للحماية في الحالات القصوى. وحالات قصوى كهذه قد تحدث؛ فقد أظهرت حادثة «النفيسات» هذا الأمر بدقّة.

في ربيع ذلك العام أنهى موليير مسرحية كوميدية جديدة بعنوان «مدرسة الأزواج». وقد تناولت المسرحية موضوع هيام مظفَّر لمخلوقين

Twitter: @ketab_n

شابين، هيام يتغلّب على كافة العوائق التي تضعها في طريقه الشيخوخة الفظّة المستبدّة.

المسرحية الكوميدية، مع القناديل وعقد القران من قِبل كاتب العقود في الخاتمة، عُرضت لأول مرة في حزيران، حيث لعب موليير دور سغاناريل، ولعب لاغرانج دور العاشق فالير. كان النجاح كاملاً، «دون غارسيا» غُفر له ونُسي، و«المدرسة» عُرضت في الموسم الدوري ثمانٍ وخمسين مرة، متجاوزةً كل مسرحيات ذلك الموسم من حيث عدد العروض.

في أحد المساءات كان مدير الفرقة جالساً في مكتبه، وأمامه نسخة «المدرسة» المعدّة للطباعة. كتب موليير إهداءً لشقيق الملك ـ حاميه.

«مونسينيور! سوف أُري فرنسا أشياءَ لا مثيل لها على الإطلاق. ما من شيء أعظم وأروع من الاسم الذي أضعه في مقدمة هذا الكتاب، وما من شيء أكثر انحطاطاً من محتواه...».

هنا، وضع موليير الريشة، أصلح وضع الفتائل في القناديل، سعل وفكّر:

«لماذا، حقاً، أتحدّث عن مسرحيتي؟» حكّ حاجبه بالريشة. عبس وواصل الكتابة. تراكبت الحروف الغليظة الكبيرة في كلمات:

«قد يُقال إنّ هذا يشبه وضع تاجٍ مرصّع باللآلئ والماس على رأس تمثال من الطين، أو بناء أروقة عظيمة وأقواس نصر لمدخل كوخٍ بائس...».

ـ ناهيكم عن الإطراءات! ـ غمغم الدراماتورغ. ـ أجل، على الأرجح، هذا كل شيء.

Twitter: @ketab_n

«لقد تجرّأت، مونسينيور، على إهداء معاليكم هذه الألعوبة».

ووقّع: «خادم معاليكم الملكي الأشدّ إخلاصاً وطاعةً وصدقاً جان باتيست بوكلن ـ موليير».

ـ ستكون الأمور على ما يرام. ـ قال الخادم الأشدّ إخلاصاً دون أن ينتبه، في حمّى المديح، إلى أنّ الكلمات عن النّصب الطيني الذي على رأسه تاج مرصّع باللآلئ لها معنى مزدوج بصورة غير عادية. وبالفعل، لماذا المسرحية الكوميدية هي النّصب الطيني حتماً والتاج هو اسم الأورلياني؟ وماذا إذا فُهمت هذه العبارة بالعكس: التاج ـ المسرحية الكوميدية؟

كيف ستنظر ـ يا قارئي ـ إلى إهداءات من هذا القبيل؟ أنا أراه على النحو ذاته. فقد كان موليير محقاً حين أرسل الإهداءات إلى الملك وأخيه. إذا كان قد تصرّف على نحوٍ مغاير فمن يعلم أنّ سيرته الذاتية لن تصبح أقصر ممّا هي عليه في الوقت الراهن؟

قصارى القول، أُرسل الإهداء إلى الأورلياني، وقوبل بعين الرضا. بعد ذلك بدأت الفرقة تستعدّ لأحداث الربيع القادمة.

في تاريخ البشرية كان هناك الكثيرون من مختلسي أموال الدولة، لكنّ أكثرهم تألّقاً كان، دون شك، نيكولا فُوكييه، وهو فيكونت دي ميلون إي دي فو، كما أنه ماركيز دي بيل إيل، وكان يشغل، في الفترة التي نتحدث عنها، منصب المدير المالي الرئيس لفرنسا. نادراً ما تمكّن أحد من القيام بالاختلاس من خزينة الدولة كما فعل فوكييه. وإذا ما صدّقنا ألسن السوء، ولا بدّ من تصديقها، في نهاية المطاف لم يعد فوكييه يعلم مطلقاً أين تنتهي أموال الخزينة وتبدأ أمواله الخاصة.

Twitter: @ketab_n

يستحيل وصف ما كان يحدث في وزارة المالية في عهد فوكييه. كانت تُصرف مخصصات لكي تُدفع للصناديق التي أُنفق مالها، كانت تُكتب أرقام مزيّفة في كشوف الحساب، كانت تؤخذ رشاوى. . .

الناس الشرفاء يعيشون حياةً مضجرة! أما اللصوص ففي كل الأزمنة يتدبرون أمورهم بصورة رائعة، والجميع يحبون اللصوص لأنّ في جوارهم الشبع والمرح دائماً. لم يكن فوكييه بخيلاً خسيساً بل كان مختلساً كريماً ولبقاً. ولم يكن يحيط نفسه بأفضل عشيقات فرنسا فحسب بل وبالفنانين التشكيليين والمفكّرين والكتّاب، وكان لافونتين وموليير في عداد الأخيرين.

بنى المعماري ليفو للوزير العبقري قصر وعزبة «فو» بحيث أدهش الفرنسيين الذين قلّما كان يُدهشهم شيء في ذلك القرن التَّرِف. وقام بزخرفة القاعات في قصر «فو» المعماريان المعروفان ليبرين وميניار، وخطّط البستانيون حول القصر حدائقَ وبساتين لها نافورات بحيث إنّ كل من تواجد فيها كان يشعر أنه في الجنة. لم يكتفِ فوكييه بهذا، وكما لو كان يتوقع بشكل مبهم أحداث المستقبل اشترى جزيرة «بيل إيل» كلها على ضفة «بريتاني»، وبنى عليها قلعةً وضع فيها حامية. يا لتعاسة أقوياء العالم! كيف أنهم غالباً ما يبنون قلاعهم على الرمل!

أيّاً كانت الحال لكن في الوقت الذي كانت تهدر فيه «مدرسة الأزواج» كان الوزير فوكييه يُدعى «المتصرّف بالأقدار».

قرّر المتصرّف بالأقدار إقامة حفلة لديه في «فو» من أجل الملك. وحين كان فوكييه يفعل شيئاً كان يفعله بإتقان. أثناء انتظار الضيوف رفيعي المقام أمر ببناء مسرح في دغلة التنوب، وأعدّ كمية هائلة من

Twitter: @ketab_n

المأكولات، ودعا أفضل تقنيي المسرح وأفضل المتخصصين في الألعاب النارية.

للأسف، المتصرّفون بالأقدار يمكنهم التصرّف بأقدار الجميع إلا أقدارهم هم، فقد كان فوكييه يجهل أمراً واحداً فقط، وهو أنّ، أثناء انشغاله بالإعداد للحفلة، الملك، منفرداً مع كولبير، الخبير المالي البارز والإنسان الشريف، كان يراجع كشوف وزارة المالية. كانت هذه المراجعة عاجلة وسرية لأنّ الكاردينال مازارين، زاهداً في كل ما هو دنيوي أثناء احتضاره، نصح الملك الشاب بالقبض على فوكييه بمساعدة الخبير العظيم كولبير. كان الملك فتيّاً لكنه كان بارداً وذكياً. وراح ينظر بهدوء كيف أظهر له كولبير، الذي يفهم شؤون الوزارة بأدقّ تفاصيلها، له الكشوف المزيفة والكشوف الحقيقية.

وفوكييه، منجرّاً إلى حتفه، اختتم الإعدادات لهلاكه بأن خطّ على بوابة قصره الشعار اللاتيني التالي: «ما الذي قد أعجز عن تحقيقه بعد؟».

وها هو الملك لويس الرابع عشر، في منتصف نهار ١٥ آب، يرافقه أخوه وزوجته والأميرة هنرييت وملكة إنكلترة، يصل «فو». يقول الشهود إنّ ملامح الملك تغيّرت واقشعرّ وجهه عندما رفع عينيه ورأى شعار فوكييه على البوابة، لكن في اللحظة التالية عاد الوجه الملكي إلى حالته الطبيعية. وأُقيم الاحتفال، مفتَتَحاً بفطور لخمسمائة شخص، تلته العروض المسرحية وعروض الباليه والحفلة التنكرية والألعاب النارية.

لكني لستُ معنياً بالألعاب النارية والفطور كثيراً بقدر ما تعنيني كيفية

Twitter: @ketab_n

تمكّن موليير، خلال خمسة عشر يوماً، بناءً على طلب فوكييه، من كتابة واستظهار وإخراج مسرحية شعرية كاملة بعنوان «الثُّقلاء»؟ أكّد خصوم موليير أنْ لا براعة في ذلك لأنّ موليير كانت لديه مسودات هذه المسرحية مسبقاً. لكن رغم ذلك، حتى لو كانت لديه مسودات المسرحية فإنّ كتابتها وإخراجها خلال خمسة عشر يوماً أمرٌ بالغ الصعوبة. على كلٍّ، هكذا جرت الأمور: في ١٧ آب تمّ عرض المسرحية في «فو».

يبدو أنّ موليير كان، في هذه الأثناء، يُحدِّق كلياً في ملك فرنسا، وأنه حدّد ذوقه. أحب الملك المسرحية الكوميدية كثيراً لكنه أحبّ الباليه أكثر.

لذا كانت «الثّقلاء» عبارة عن باليه ـ كوميدي. الحقّ أنّ «الثقلاء» لم تكن مسرحية بكل معنى الكلمة، بل كانت عبارة عن سلسلة من نماذج المجتمع الراقي، مسرودة الواحد تلو الآخر، لا رابط بينها، مصوّرةً بطريقة هجائية.

هنا ينبثق السؤال: كيف تجرّأ موليير على تصوير حاشية الملك، أمام الملك، في صورة مضحكة؟ كانت حسابات موليير دقيقة وصائبة تماماً. فالملك لم يكن يعامل طبقة النبلاء الفرنسيين الراقية بشكل جيد على الإطلاق، ولم يكن يعتبر نفسه الأول بين النبلاء مطلقاً. كان لويس يرى أنّ سلطته إلهية، وأنه يقف بمفرده تماماً أسمى من كل مَن في العالم بما لا يُقاس. كان في مكان ما في السماء، أقرب إلى الآلهة، وكان يتعامل بقسوة شديدة مع أدنى محاولة من قِبل أحد «السينورات» الكبار للارتقاء أعلى مما ينبغي. باختصار، كان الأفضل أن يقطع المرء بلعومه بشفرة من أن يكتب شعاراً كالذي كتبه فوكييه. لويس ـ أُكرّر ـ

Twitter: @ketab_n

كان يذكر ما حدث أثناء «الفروند»، وكان يمسك «الغرانسينورات» بقبضتين فولاذيتين. في حضرته كانت السخرية من حاشية البلاط ممكنة.

رغم ذلك، لم يكن موليير قادراً، بشكل تام، على إنجاز «الثقلاء» بمفرده، وقد قام السيد بيلليسون، سكرتير نيكولا فوكييه وصديقه المقرّب، بكتابة مقدمة هذا العمل.

وهكذا، رُفع الستار في حدائق «فو». في البداية مَثُل أمام ضيوف الوزير موليير المضطرب، دون ماكياج ومرتدياً ملابسه المعتادة. منحنياً بارتباك راح يعتذر عن أنه، بسبب ضيق الوقت، لم يتمكن من إعداد تسلية للملك العظيم. لكنه ـ هو، أفضل خطباء المسرح في المسرح ـ لم يكد ينهي اعتذاره حتى انشقّت صخرة على الخشبة، ومن بين المياه الهادرة ظهرت «نايادا»[1]. (هاكم أي تقنيّ كانه فيغاراني!). لم يكن أحد ليقول إنّ لهذه الربة الفاتنة ثلاثة وأربعين عاماً من العمر! مادلين، وفق مجموع الآراء، كانت رائعة في هذا الدور. بدأت تتلو مقدمة بيلليسون:

لكي أرى أعظم ملك في الدنيا،

صعدت إليكم من كهف، يا أيها الفانون...

ما إن لفظت الكلمات الأخيرة للافتتاحية حتى هدرت المزامير في الأوركسترا وبدأ الباليه ـ الكوميدي.

عند انتهاء العرض استدعى الملك موليير مُومئاً، وأشار إلى الصياد المحترف سوايكور، وهمس له ضاحكاً:

---

(١) ربة الأنهار والجداول في الميثولوجيا اليونانية.

Twitter: @ketab_n

ـ ها هو نموذج أصلي آخر لم تنسخه. . .

أمسك موليير برأسه، ضحك، وهمس:

ـ يا لقوة ملاحظة معاليكم. . . كيف أغفلتُ هذا النموذج؟!

في إحدى الليالي أضاف موليير مشهداً جديداً إلى المسرحية صوّر فيه الصياد الشغوف دورانت، المولع بجياد غافو الشهير، وبالمآثر الجسورة للصياد المعروف دريكار. وقد شمت الجميع بدورانت لمّا تعرّفوا فيه حقيقة الصياد المسكين.

هذه الحادثة أعطت موليير حجة لأن يكتب للملك رسالة تجرّأ فيها أن يقول للملك أشياء جيدة كثيرة. أولاً، أنه هو أيضاً يعدّ نفسه في عداد الثقلاء. ثانياً، أنه مَدين للملك فقط بنجاح مسرحيته الكوميدية إذ كان يكفي أن يرضى عنها الملك فقط حتى يرضى عنها الجميع. ثالثاً، أنّ مشهد الصياد، الذي أمر بإدراجه ضمن المسرحية، هو المشهد الأفضل فيها دون أدنى شك، وأنه لم يعمل على أيّ مشهد في أيٍّ من مسرحياته بالمتعة التي عمل بها على هذا المشهد.

هذا كله كان جيداً، لكنه بعد ذلك كتب بعض الترّهات، بأنّ سعادة طاعة الملك أغلى لدى موليير من أبوللو وكل آلهة الفنّ، وأنّ كلّ المجد، الذي يمكن لموليير التفكير فيه، إنما هو مجد الإنسان الذي يُسلّي معاليه.

أيتها الأجيال! لا تتسرّعوا برجم الهجّاء العظيم بالحجارة! ياه، كم هو عسيرٌ درب الشاعر في ظلّ الرقابة الصارمة للسلطة!

حين كان الدراماتورغ يُحسّن مسرحيته في حدائق «فو» بدأت مسرحية أخرى، لكن ليست كوميدية بل درامية.

Twitter: @ketab_n

مرةً، عندما كان الملك يتمشّى في ممرات الحديقة رفع أحد أفراد الحاشية، كان يرافقه، رسالةً كانت ملقاة على التراب. مرّ مرافق الملك بعينيه على الرسالة بسرعة وضحك ضحكةً مكتومة. لفت الأمر اهتمام الملك، والمرافق، ضاحكاً ببراءة، أرى الملك الرسالة. وا أسفاه! كانت رسالة رقيقة من فوكييه إلى مدموزيل اسمها لافاليار. بالإمكان التأكيد أنّ فوكييه، لو نظر في عيني الملك في هذه اللحظة، كان سيترك ضيوفه ويفرّ من فرنسا دون إبطاء، آخذاً معه زكيبة ليرات ذهبية ومسدسات فحسب. يكمن الأمر في أنّ النبيلة الرزينة لافاليار كانت محجوزة للملك، كما يعلم الجميع.

لويس، حتى في شبابه، كان يتميّز بتمالك نفسٍ مذهل، لذا فقد عاش نيكولا فوكييه شهر آب في هناء. سافر الملك إلى «فونتِنبلو» ثمّ توجّه، في شهر أيلول، إلى «نانت»، حيث انعقد المجلس الملكي. حين انفضّ المجلس، وخرج فوكييه المتعب إلى الشارع، لمسه أحدهم في مرفقه. جفل الوزير ونظر. كان يقف أمامه نقيب الحرس.

ـ أنت رهن الاعتقال. ـ قال نقيب الحرس بصوتٍ خافت.

بهاتين الكلمتين انتهت حياة فوكييه. بعد ذلك بدأت حياته وانقضت في سجن «فِنسين» ثمّ في «الباستيل». حقق المحققون في قضية السرقات لثلاث سنوات، ومثُل أمام القضاء، ليس الوزير المتألق بل سجين حليق الرأس يرتعش. تسعة قضاة طلبوا الإعدام لنيكولا فوكييه، والثلاثة عشر الآخرون كانوا أكثر إنسانيةً وقرّروا نفي فوكييه من البلاد إلى الأبد، إلا أنّ الملك عدّ الحكم غير صائب واستبدل بالنفي السجن المؤبّد.

Twitter: @ketab_n

أمضى فوكييه في السجن خمسة عشر عاماً، فيها لم يُسمح له بالخروج للتنزه ولو مرّة واحدة، ولم يكونوا يسمحون له لا بالقراءة ولا بالكتابة، كما لم يُسمح له بلقاء واحد مع زوجته وأبنائه. فقط في عام ١٦٨٠ ـ تُرى هل رقّ له قلب الملك أم أنه نسي شكال لافاليار الوقورة التي حلّت محلّها نساء أخريات أم خمدت ذكرى الشعار على البوابة؟ ـ لكنه، باختصار، وقّع أمراً بإطلاق سراح فوكييه من السجن.

لكنّ هذا الأمر ظلّ دون تنفيذ. ففوكييه عيل صبره من رحمة الله، وخرج من السجن إلى، حيث كان يأمل دون شك، قاضٍ آخر سيحاكمه، هو الوزير غير الشريف، ويحاكم الملك المنتقم، ويحاكم بصورة خاصة ذلك الشخص المجهول الذي ألقى بالرسالة على التراب.

أريد الإشارة إلى قرينة بالغة الأهمية. في افتتاحية «الثقلاء»، التي صدرت بعد اعتقال فوكييه وموته، لم يخشَ موليير أن يذكر أنّ الافتتاحية هي للسيد بيلليسون. بكلّ ثقة يمكن القول إنه كان يجب بذل جهد عظيم للعثور على شخص آخر يمكنه ذكر اسم صديق فوكييه بيلليسون مطبوعاً بعد اعتقال فوكييه.

أما بول بيلليسون ذاته؛ فلم يتصرّف بشجاعة أقل، إذ كتب مقالاً كاملاً لتبرئة فوكييه بعنوان «أقوال»، مُظهراً، على هذا النحو، أنه لا يخون أصدقاءه، أيّاً كانوا. قرأ الملك مقال بيلليسون باهتمام كبير، وتصرّف معه بلطف: سجنه في الباستيل خمس سنوات فقط.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٨

مَنْ هي؟

جيرونيمو: لابأس، لابأس!

أنا أقول: زوجان رائعان! تزوّجا بسرعة.

«زواج بالإكراه»

في ٢٠ شباط عام ١٦٦٢، في تلك الكنيسة ذاتها، كنيسة «سان جيرمان دي لاكسيروا»، التي لم يتسنّ للسيد راتابون هدمها بعد، جرت مراسم زواج.

بجوار مدير فرقة «باليه رويال»، المحدودب الظهر، الذي كان يسعل، جان باتيست موليير كانت تقف، مكلّلةً بالإكليل، فتاة في العشرين من عمرها ـ ليست جميلة، كبيرة الفم، صغيرة العينين، لكن مكتنزة، وجذّابة جاذبية لا توصف. كانت الفتاة ترتدي ملابسَ «آخر موضة»، وتقف شامخة الرأس في تكبّر.

كان الأورغن يدندن فوق رأس العروسين، لكن لا أنغام الأورغن ولا اللغة اللاتينية المعروفة له جيداً كانت تصل مدارك العريس، الذي كان يحترق بهيام شيطاني تجاه عروسه. خلف العروسين كان يقف

Twitter: @ketab_n

ممثلو «باليه رويال» ومجموع الأقارب، الذين كان بالإمكان رؤية المنجّد الملكي الشيخ الأشيب جان باتيست بوكلن بينهم، ووالدة البيجاريين السيدة إرفيه ـ بيجار، ومادلين التي كانت تقف بوجهٍ غريب وكأنما متحجّر، والشاب لويس بيجار.

هيامٌ مضنٍ كان يُعذّب مدير «باليه رويال»، وها هو يحصل على غرض أمنياته، ويسوق إلى الإكليل مدموزيل مينو، التي هي أرماند بيجار ذاتها.

عقد الزواج يقول بالتحديد إنّ العروس هي مدموزيل أرماند غريزيندا كلارا إليزابيث بيجار، ابنة السيدة ماري، نسبتها قبل الزواج إرفيه، وزوجها الراحل سيور دي بيلفيل. العروس في العشرين، أو تقريباً في العشرين، من العمر.

لكن نحن، الذين تعرّفنا جيداً إلى جميع أفراد أسرة المرحوم بيجار ـ بيلفيل وعقيلته ماري إرفيه ـ بيجار، أي الابن الأكبر جوزيف والابنتين مادلين وجينوفييف والابن الأصغر لويس، نرغب في التعرّف عن قرب إلى الابنة الصغرى كذلك، أرماند، التي ستصبح الآن زوجة موليير.

إذا كان عقد الزواج، المعقود في كانون الثاني عام ١٦٦٢، يقول إنّ العروس في العشرين من العمر، أو قرابة ذلك، فهذا يعني أنّ آثار ولادتها يجب تقفّيها في عام ١٦٤٢ أو ١٦٤٣. وبالإمكان العثور على تلك الآثار. في وثيقةٍ، مؤرّخة بتاريخ ١٠ آذار عام ١٦٤٣، يرد أنّ السيدة ماري إرفيه رفضت أن ترث تركة زوجها المتوفى لأنّ التركة كانت مثقلة بالديون. في الوثيقة يتم تعداد كل أبناء ماري إرفيه، أي جوزيف ومادلين وجينوفييف ولويس، وكذلك فتاة صغيرة «لم تُعمَّد بعد»، أي حديثة الولادة.

Twitter: @ketab_n

هذه هي، بالطبع، أرماند ذاتها التي تقف تحت الإكليل الآن. كل الوقائع متطابقة. هي في قرابة العشرين، وهي ابنة ماري إرفيه. وبالتالي؛ كان كل شيء ليكون على ما يرام لولا قرينة واحدة. في وثيقة الرفض تتم تسمية أبناء ماري، بإصرار وأكثر من مرة، بـ «القاصرين». الموظف المدني الذي أعدّ الوثيقة يثير دهشةً عظيمة، وكذلك الشهود الموقّرون الذين كانوا حاضرين في هذه الأثناء، ومن بينهم يمكن الإشارة إلى نائبين عامّين، وإلى معلّم لتصنيع عربات «الكارو» وخيّاط. المسألة هي أنّ، في عام ١٦٤٣، جوزيف بيجار، الابن الأكبر، كان في السادسة والعشرين من العمر تقريباً، تليه، من حيث العمر، مادلين، الممثلة المحترفة، التي كان لها طفل في الخامسة في ذلك الوقت، والتي كانت في الخامسة والعشرين! وفق أيّ تشريع كان، وأينما كان، لا يمكن مطلقاً عدّ جوزيف أو مادلين قاصرين.

فما معنى ذلك؟ هذا يعني أنّ وثيقة عام ١٦٤٣ تتضمن معطيات كاذبة، وبالتالي لا قيمة لها على الإطلاق. وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنّ ضباب شكّ كثيف يُغلِّف هذه الفتاة السرّية، غير المعمَّدة بعد.

السيدة ماري إرفيه وُلدت عام ١٥٩٠. ينتج عن ذلك أنها قد جاءت بهذه الفتاة غير المعمَّدة إلى النور عندما كانت في الثالثة والخمسين تقريباً. وحسبما يبدو، بعد انقطاع دام ثلاثة عشر عاماً لأنّ ابنها الأخير لويس ولد عام ١٦٣٠، ومنذ ذلك الحين ما من دلائل عن أبناء آخرين لماري إرفيه. هل هذه الخصوبة المفاجئة والمتأخرة ممكنة؟ ممكنة، لكنها ضعيفة الاحتمال. إليكم ما هو مستحيل كلياً، وهو أنّ أحداً من الأصدقاء المقرّبين والمعارف الكثيرين لآل بيجار لم يذكر شيئاً قط عن

Twitter: @ketab_n

أنّ الأم العجوز للأسرة قد أهدت زوجها المتوفّى طفلاً. لم يُنسب أي طفل، في تلك الفترة، إلى ماري إرفيه في أي مكان باستثناء ما ذُكر في ورقة عام ١٦٤٣ هذه.

أجل، وكيف تمّ تسجيلها؟ أين أنجبتها ماري إرفيه؟ لا أحد يعلم. ربما تذكرون أنّ البيجاريين كانوا قد سافروا سرّاً إلى الريف مرةً في الشتاء، مطلع عام ١٦٤٣. هذه الرحلة تتطابق بدقّة مع ولادة الطفلة. لكن يطرح سؤال نفسه: لماذا كانت ماري إرفيه بحاجة إلى مغادرة باريس لكي تنجب طفلاً في ظروف تستحقّ تماماً أن تُسمّى سرّية؟

أين تمّ تعميد الطفلة؟ لا أحد يعلم. لا يُعثَر على وثيقة تعميدها في باريس على الإطلاق. وبالتالي؛ فقد عُمّدت في مكانٍ ما ليس في باريس، في ضواحي باريس، وربما بعيداً عنها، في الريف. ثمّ، لماذا أخذوا الفتاة إلى مكانٍ ما بعد ولادتها مباشرةً، لماذا سلّموها إلى أناس غرباء، ولم يُربّوها في البيت مثل الأبناء السابقين؟

ما الاستنتاج الذي قد يخطر في البال من هذه القرائن المبلبلة؟ استنتاج بسيط ومحزن: لم تُنجب ماري إرفيه أيّ طفلة في عام ١٦٤٣، وقد كذبت في وثيقة عام ١٦٤٣، ناسبةً لنفسها طفلة ليست طفلتها. ما الذي دفعها إلى القيام بذلك؟

بما أنّه لا يُعقل أن تتعهّد ماري إرفيه أبناء أناسٍ غرباء، ينبثق شكّ قوي بأنّ هذه الفتاة السرية قد وُلدت لإحدى ابنتيها العزباوتين. هاكم لماذا جرت الرحلة السرية إلى الريف، هاكم لماذا أُخفيت الطفلة، هاكم لماذا أُبعدت الفتاة! لكن أيّ الابنتين هي الأم: جينوفييف أم مادلين؟ فيما يتعلق بجينوفييف ينبغي القول إنّه لا يُعثَر، في أي مكان، على

Twitter: @ketab_n

مؤشّر واحد إلى أنّ جينوفييف قد أنجبت طفلاً. ببساطة، ما من حاجة إلى الحديث عن جينوفييف. غير المعمَّدة في البداية، مينو بعد ذلك، وأخيراً أرماند بيجار ليست خطيئة جينوفييف. وعلى العكس، الجميع كانوا مقتنعين دائماً وبإطلاق أنّ أرماند هي ابنة مادلين، ولم ينسبها أحد قط إلى ماري إرفيه. ولولا ما كشفه عقد الزواج، حيث سُجِّلت أرماند غريزيندا كلارا إليزابيث بأنها ابنة ماري إرفيه، لما ذكر أحد حتى اسم ماري إرفيه.

الأديب المعروف بروست كتب في مذكّراته ما يلي: «قال لي ديبريو إنّ موليير كان في البداية يحب الممثلة بيجار التي تزوّج بابنتها».

المؤلّف المجهول للكتاب النقدي المعنون «الممثلة المشهورة» (الحديث يجري عن أرماند بيجار ـ موليير)، كتب: «إنها ابنة المرحومة بيجار ـ الممثلة التي حققت نجاحاً هائلاً لدى الشباب في لانغيدوك أثناء الولادة الميمونة لابنتها...».

قصارى القول، أشخاص كثيرون كتبوا بعد موت موليير، وأثناء حياته كان الجميع يعلمون أنّ أرماند هي ابنة مادلين، وقد قالوا ذلك. لكن عدا عن هذه الأنباء الشفوية والكتابية، هناك سلسلة كاملة من الدلائل الدقيقة، لكن غير المباشرة، تشير إلى أنّ مادلين هي والدة أرماند.

عندما تزوّج موليير بأرماند تلقّى، كما يُلحظ من عقد الزواج، من ماري إرفيه عشرة آلاف ليرة صِداق زواج ابنتها أرماند. لكن نحن، بعد أن أسمت ماري إرفيه البالغين بالقاصرين، وسجّلت في وثيقةِ أبناءَ سريين لم يتم تعميدهم بعد، يحقّ لنا عدم تصديقها على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

ونحن لا نُصدِّقها. لم تكن ماري إرفيه تملك عشرة آلاف ليرة تركية حتى. هذا المال، حسبما عُرف، قدّمته، كصداق أرماند، مادلين بيجار، الشخص الوحيد الغني في الأسرة كلها. لكن لماذا لا يحقّ لمادلين أن تكون كريمة مع أختها المسجَّلة أختاً لها حسب الوثيقة؟ لأنَّ الكرم لدى مادلين ليس متماثلاً، هاكم فيمَ يكمن الأمر! فعندما تزوجت جينوفييف، بعد سنتين على زواج أرماند، تلقّت صداقاً مقداره خمسمائة ليرة نقداً وبياضات ومفروشات بقيمة ثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة.

عند وفاتها تركت مادلين لجينوفييف ولويس الأعرج راتباً صغيراً مدى الحياة، ولأرماند ثلاثين ألف ليرة.

عندما ظهرت، كأنما من الهواء، مدموزيل مينو في الجنوب أحاطتها مادلين برعاية فائقة بحيث إن أحداً من المحيطين لم يُصدِّق أنَّ هذه رعاية أختية. فقط الأم يمكنها رعاية طفلها على هذا النحو. هنا، بالمناسبة، يجب إضافة أنه ما من شكّ بأنّ لمينو وأرماند الوجه ذاته. في الحالة المعاكسة، كنّا سنعلم بموت مينو، ناهيكم عن أننا ما كنا لنستطيع معرفة المكان الذي جاءت منه أرماند إلى باريس.

ما الاستنتاج الذي نستخلصه؟

الاستنتاج التالي: عام ١٦٦٢ تزوّج موليير بابنة مادلين بيجار، زوجته غير الشرعية الأولى، والتي سُجِّلت، حسب الوثيقة، كذباً، على أنها ابنة ماري إرفيه.

لكنّ الأكثر أهميةً يأتي لاحقاً. إذ من هو والد أرماند؟ في البداية وقع الشكّ على إسبري دي ريمون دي موارموارون سيور دي مودين، عشيق مادلين الأول الذي بتنا نعرفه، ووالد طفلتها الأولى فرانسواز.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما تبيّن أنّ هذا الشك لا أساس له. هناك جملة من الدلائل تشير إلى أنّ مادلين كانت، في فترة ما، ترغب بشدة في أن يتوّج علاقته بها بزواج شرعي، وبمقتضى ذلك هي لم تحرص على إخفاء ولادة فرانسواز من دي مودين عن الناس بل وسجّلت هذا الحدث في وثيقة رسمية. ظهور طفل ثانٍ من دي مودين كان له أن يوطّد علاقة مادلين بدي مودين، الأمر الملائم تماماً لخططها في الزواج. حتماً ما من سبب لإخفاء هذه الطفلة وتسجيلها باسم والدتها. هناك مجال لقرائن مناقضة كلياً: لم تكن ابنة دي مودين الطفلة التي أخفتها مادلين عن الناس بمساعدة والدتها - شريكتها، والتي أنجبتها سرّاً، على ما يبدو في ضواحي باريس بالفعل، وبعد ذلك أرسلت الفتاة إلى الريف، حيث أصبحت مدموزيل مينو - كانت مادلين تخفي الطفلة عن مودين.

يكمن الأمر في أنّ الفارس دي مودين انخرط مع لويس دي بوربون والكونت دو سواسّون والدوق غيز، عام ١٦٤١، في مؤامرة ضد ريشيليو، وجُرح في معركة قرب «مارفا» في ٦ حزيران عام ١٦٤١. وقد حكم برلمان باريس، في أيلول من العام ذاته، على مودين بالموت، الأمر الذي دفع مودين إلى الاختباء، في بلجيكا في البداية، وبعد ذلك في أطراف فرنسا، متجنّباً باريس بشتى السبل، حتى عام ١٦٤٣، إلى أن توفرت له الإمكانية للعودة إلى العاصمة، حيث عُفي عنه بعد وفاة ريشيليو ولويس الثالث عشر.

تجب الإشارة إلى أنّ عائلة بيجار، محترسةً من أيّ تنكيل كان من قِبل الحكومة بسبب القرابة التي تربطها بمودين، كذلك غادرت باريس، لكنّ ترحال آل بيجار لم يحدث في الأمكنة التي كان مودين فيها.

Twitter: @ketab_n

بالتالي، جليّ أنّ مودين، البعيد عن مادلين لعامين، حين يعود إلى باريس سيجد مادلين وعلى يديها طفل غريب، وهذا لن يساعد، على الإطلاق، على تعزيز علاقة مادلين بمودين.

لم يكن مودين والد أرماند بأيّ حال من الأحوال. هذا يعني أنّ الوالد كان عشيقاً آخر، والذي كان قريباً إلى مادلين في صيف عام ١٦٤٢، عندما كانت مادلين في جنوب فرنسا. كان بمقدور مادلين التقاء كثيرين في ذلك الوقت لكن علينا التذكير بواحدٍ من هؤلاء الكثيرين، بل ونعلم كذلك أين التقت به. حدث ذلك عند ينابيع «مونفرينيه»، حيث شرب الملك لويس الثالث عشر المياه الشافية. حدث هذا في النصف الثاني لعام ١٦٤٢. ما من شكّ أبداً أنّ العشيق، الذي قابلته مادلين، إما كان مقرّباً إليها وإما أصبح مقرّباً إليها. هذا العشيق كان ضمن حاشية الملك كفرّاش ومُنجّد، وكان يُدعى... جان باتيست بوكلن، دو موليير فيما بعد!

ما الذي أريد قوله بهذا؟ لستُ أريد قول أي شيء عدا عن أنّ اللقاء في «مونفرينيه»، والتقارب الذي لا شكّ فيه بين موليير ومادلين، كان سبباً لشائعات مرعبة شاعت عن موليير.

مؤلّف «الممثلة المشهورة» كتب ما يلي: «... لقد اعتبروها [أرماند] ابنة موليير رغم أنه أصبح زوجها فيما بعد...».

بعد بضع سنوات على وفاة موليير، عندما تمّ استدعاء أرماند إلى المحكمة كشاهدة في قضية أخرى، حاول محامي أحد الأطراف الطعن في شهادة الشاهدة مؤكّداً على الملأ، بكلامٍ حاذ، أنها زوجة والدها وأرملته.

Twitter: @ketab_n

أُعطيت قيمة كبيرة لرسالة شابيل إلى موليير، المكتوبة عام ١٦٥٩، الرسالة التي تتضمّن الأسطر المُلغزة التالية: «. . . يجب أن تُري هذه الأشعار الرائعة فقط لمدموزيل مينو، حيث إنها تُصوِّركما كما أنتما. . .».

يقول بعض الشهود إنّ زفاف أرماند عُقد بعد شجارات مخيفة وثقيلة بين موليير ومادلين، وبين أرماند ومادلين فيما بعد، بحيث أصبحت حياة هؤلاء الأشخاص الثلاثة لا تُطاق، وقد أُجبرت أرماند تقريباً على الهرب إلى بيت زوجها المستقبلي.

تشير الوثائق الرسمية إلى أن جينوفييف بيجار لم تكن حاضرة، لا أثناء عقد القران ولا أثناء زواج موليير، ويعتقد كثيرون أنها قد فعلت ذلك اعتراضاً على الزواج المرعب.

باختصار، من كافة الجهات تسرّبت، مُسمِّمةً حياة موليير، الشائعات بأنه قد ارتكب سِفاح قربى محرَّم، وأنه قد تزوّج بابنته.

ما الاستنتاج الذي يمكن لي إعطاؤه في هذا الأمر؟ يجب أن أقول إنّ كل محاولات تحديد والد أرماند تكللت بالفشل. بالمناسبة، قد يفعل أحدهم ذلك، أو ربما فعل. أما أنا؛ فإني أمتنع عن التحقيق في قضية زواج موليير هذه لأني كلما توغّلت أعمق في الأمر كلما، بطريقة سحرية ما، ضاق أمامي وأظلم رواق الماضي، وكلما كان بحثي في الزوايا الخفية والقنديل في يدي بلا طائل. لقد تمزّق نسيج المسألة واهترأ، وخارت قواي تحت ثقل الوقائع غير الموثوقة والأدلة غير المباشرة والافتراضات والمعطيات المشكوك فيها. . . هذا هو استنتاجي النهائي. أنا متأكّد من أمر واحد فقط هو أنّ أرماند لم تكن ابنة ماري

Twitter: @ketab_n

بيجار قطعاً. أنا متأكد من أنها ابنة مادلين، من أنها وُلدت في السرّ، في مكان لا يعلم به أحد، وأنّ أحداً لا يعلم من هو والدها. لا توجد أيّ دلائل دقيقة على أنّ الشائعات حول سفاح المحارم صحيحة، أي أنّ موليير قد تزوّج بابنته، لكن كذلك لا يوجد أي دليل، بين يديّ على الأقل، لدحض الشائعة المرعبة عن سفاح المحارم بصورة قاطعة.

ها هو بطلي يقف تحت الإكليل مع الفتاة التي يبلغ عمره ضعف عمرها، والتي يُقال إنها ابنته. الأورغن يدندن فوق رؤوسهم بكَدَر متنبئاً بكل المصائب المحتملة لهذا الزفاف. وكل هذه النبوءات سوف تتحقق!

بعد زواجه هجر مدير باليه رويال شقّته في شارع «توما اللوفري» وانتقل مع زوجته الشابة إلى شارع ريشيليو، آخذاً معه الخادم بروفانسال، الذي سمّم حياته، والخادمة لويز ليفيير.

هناك، في شارع ريشيليو، سرعان ما بدأت الكوارث. فقد تبيّن أنّ الزوجين لا يناسبان بعضهما بعضاً على الإطلاق. الزوج، المتقادم في السنّ والمريض، كان هائماً بزوجته، كسابق عهده، لكنّ زوجته لم تكن تحبه. وحياتهما صارت جحيماً بسرعة كبيرة جداً.

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٩
مدرسة الدراماتورغ

أيّاً كان ما يحدث في شقة موليير في شارع ريشيليو فقد كانت الحياة في مسرح «باليه رويال» تجري بوتيرتها المعتادة. التحق بالفرقة ممثلون جدد هذه السنة. الأول كان فرانسوا لينوار سيور دي لا توريير، نقيب فوج خيّالة سابق، لا يتمتع بمواهب تمثيلية جيدة فحسب بل وبخبرة عملية كبيرة كذلك، الأمر الذي جعل موليير يكلّفه ببعض الوظائف الإدارية، والثاني كان الممثل الكوميدي اللامع غيليوم ماركُور سيور دي بريكُور. هذا الممثّل كان كاتب دراما كذلك، عدا عن أنه كان معروفاً كمبارزٍ خطر جرت له حوادث مؤلمة، أكثر من مرة، بسبب مبارزاته.

الموسم الذي تلا عيد الفصح عام ١٦٦٢ كان ضعيفاً لأنّ الجمهور كان قد سبق له أن شاهد مسرحيات موليير الأولى، وكانت إيراداتها تقلّ. فقط «مدرسة الأزواج» ومسرحية بوابيه «توناكسار» أدخلتا شيئاً من الحيوية. هكذا سارت الحال حتى كانون الأول، عندما خرجت مسرحية موليير الجديدة «مدرسة الزوجات»، وهي مسرحية كوميدية من خمسة فصول.

«مدرسة الزوجات»، مثلها مثل «مدرسة الأزواج»، كُتبت دفاعاً عن النساء وحقّهنّ في الاختيار في الحب، وكانت تحكي قصة أرنولف

Twitter: @ketab_n

الغيور المستبدّ، الذي كان يريد الزواج بأنياس الشابة. في هذه المسرحية، المليئة بمواقف كوميدية مضحكة، كان دور أرنولف يُدوّي بنغمةٍ متصدّعة ومُرّة.

حين انتصرت أنياس الشابة في نهاية المسرحية، هاجرةً أرنولف مع عشيقها، أصبح أرنولف، الطافح بملامح مُقزّزة مضحكة، مدعاةً للرثاء فجأةً.

ـ بأيّ مقياس يمكن قياس حبي لكِ؟ ـ فجأةً، كما لو أنه قد خلع عنه رداء الغيور الكريه، قال أرنولف بجزع. ـ كيف لي إثباته لكِ، أيتها الجاحدة؟ أأبكي دموعاً مُرّة؟ أأشدّ شعري؟ ربما تريدنني أن أقتل نفسي؟ أخبريني، أخبريني، ماذا تريدين، وأنا مستعدّ ـ أيتها القاسية ـ أن أُثبت لكِ أني أحترق في النار!

انتبه بعض الناس الفضوليين إلى مونولج أرنولف هذا وقالوا، بعضهم بتعاطف وبعضهم بتشفٍّ، إنه كان يعكس عذابات السيد موليير الشخصية. إذا كان الأمر هكذا، وهو ـ للأسف ـ هكذا بالفعل، فيمكن رؤية مدى رداءة الحياة التي كانت تجري في شارع ريشيليو.

مُثّلت «المدرسة» ببراعة، حيث بالإضافة إلى موليير الذي لعب دور أرنولف نجح بريكور، في دور الخادم ألين، نجاحاً استثنائياً.

يجب القول إنّ كل الأحداث، التي رافقت صدور مسرحيات موليير السابقة، كانت باهتة بشكل حاسم مقارنةً مع ما جرى بعد عرض «مدرسة الزوجات» الافتتاحي مباشرةً. فشخص اسمه بلابيسون، وهو زائر مواظب لصالونات باريس، ممتعضاً حتى أعماق روحه من مضمون المسرحية، كان جالساً على الخشبة، وعند كل ذروة أو نكتة لاذعة كان يتّجه بوجهه القرمزي من الغيظ نحو الصالة ويصرخ:

Twitter: @ketab_n

ـ هيا اضحكي أيتها الصالة! اضحكي!

ويبدو أنه كان يُلوّح بقضبته باتجاه الصالة في هذه الأثناء. طبيعي تماماً أنّ القهقهة في الصالة تصاعدت إلى أقصى حد من جرّاء ذلك.

أُعجب الجمهور بالمسرحية كثيراً، وإلى العرض الثاني والعروض التي تلته جاء الناس أفواجاً، مُوصلين العوائد إلى رقم قياسي ـ ألفٍ وخمسمائة ليرة في الليلة.

فماذا قال الأدباء وضليعو المسرح الباريسيون عن المسرحية؟ كان يصعب فهم كلماتهم الأولى لأنّ السُباب في حقّ موليير كان يغلي في الصالونات بحيث كان من العبث فهم أي شيء مباشرةً، بشكل عام. وانضمّ عشرات الأشخاص الجدد إلى الذين كانوا يشتمون موليير من قبل. ولا يُعلم بدقة لماذا توحّش الأدباء على هذا النحو. يؤكّد بعضهم أنّ ما أدّى بهم إلى الغيظ هو الحسد. بمرارة كبيرة يجب الإشارة إلى أنّ إنساناً كبيراً، مثل بيير كورنيل، استسلم كذلك لهذا الشعور المقزّز.

أما ما يتعلق بممثلي «أوتيل بورغون» فقد امتقعت وجوههم تماماً بعد العروض الأولى «للمدرسة». لكن يجب القول إنه كان لديهم سبب وجيه للهلع. فقد حدث شيء لم يسبق له مثيل، حيث انخفضت إيرادات البورغونيين بحدّة مع ظهور «المدرسة».

ثمّ إنه وُجد في باريس أناس سُذَّج راحوا يقولون، في كل مكان، بغضب إنّ موليير إنما صوّرهم هم بالذات في شخص أرنولف، بطل مسرحيته الكوميدية. بالطبع، كان على مسرح «باليه رويال» أن يدفع لهم مالاً لقاء الدور الإجابي الذي لعبوه في زيادة إيراداته.

زعم أحد المشاهدين أنّ «مدرسة الزوجات» تتضمن جملة من

Twitter: @ketab_n

البذاءات المتطرّفة التي تُقال على الخشبة. مفهومٌ تماماً أنه، بعد هذا الإعلان، لم تبقَ سيدة عفيفة لم تراودها الرغبة في معاينة ـ بشكل شخصي ـ كل البذاءات التي سمح موليير لنفسه بإدراجها ضمن المسرحية.

تلك البذاءات كانت التالية:

أرنولف، شاتماً السيدات العصريات، يقول إنّ تلك السيدة، ردّاً على سؤال شريكها عمّا ترغب فيه، تجيب:

ـ «تورتا» بالقشدة!

والخادم ألين، واعظاً الخادمة جورجيت، يُشبّه الزوجة بحساءٍ مخصّص للزوج.

ـ من الطبيعي ـ يُؤكّد ألين ـ أنّ الزوج الجائع لن يسمح لأحد بغمس أصابعه في الحساء.

يقول أرنولف إنّ ربيبته أنياس من البراءة بحيث إنّها تعتقد أنّ الأولاد يأتون إلى الدنيا من الأذنين.

العاشق، مستغفلاً أرنولف، تسلل إلى بيته في حضوره. حين علم أرنولف الغيور بذلك تسمّر من الخوف من فكرة أنّ شرفه قد دُنّس فحاول أن يستعلم من أنياس عمّا أخذ عشيقها منها؟ أنياس تتردد طويلاً وأخيراً تعلن أنّ حبيبها أوراك أخذ منها وشاحاً للذكرى.

لن أعمد إلى الحكم على مدى بذاءة هذا بالفعل. فليحكم على ذلك قارئ موليير.

وهكذا، أثارت المسرحية لغطاً حقيقياً، كان يصعب فيه تمييز

الأصوات الخافتة لأصدقاء موليير الذين كان بالإمكان عدّهم على الأصابع. الصوت الوحيد، الذي كان يُدوّي عالياً، كان صوت المفكّر والأديب الأكثر نبوغاً بوالو ديبريو:

فلينزف جرح حُسّادك

مثل نهرٍ عكر.

كوميديتك الرائعة

سوف تخلد لقرون!

بعد ذلك، جرت الأمور بشكل أسوأ. أديب شاب اسمه جان دونو دي فيزيه، كان أول من كتب في الصحف عن «مدرسة الزوجات». يُظهر مقال دي فيزيه أنّ روح الكاتب، أثناء كتابة المقال، كانت ممزّقة إلى نصفين. كان دي فيزيه يريد أن يقول، قبل أي شيء آخر، إنّ المسرحية الكوميدية لا يمكنها أن تحقق النجاح لكنه لم يكن قادراً على قول ذلك لأنّ المسرحية الكوميدية نجحت نجاحاً يصمّ الآذان. لذا دي فيزيه قال إنّ نجاح المسرحية الكوميدية يعود فقط إلى أنّ الممثلين قاموا بأدائها بشكل رائع، الأمر الذي يُظهر أنّ دي فيزيه لم يكن شخصاً غبياً. بعد ذلك يقول دي فيزيه إنه ببساطة يشعر بالمرارة من وفرة البذاءات الموجودة في المسرحية الكوميدية، وأشار إشارة عابرة إلى أنّ الحبكة فيها محبوكة بشكل سيئ. لكن بما أنّ دي فيزيه ـ أُكرّر ـ لم يكن غبياً، فقد كان مرغماً على الإقرار بأنّ المسرحية، رغم ذلك، كان فيها شيء ما موفّق، وأنّ بعض شخصيات موليير كانت متألّقة كما لو أنها مأخوذة من الحياة.

لكن يبدو أنّ دي فيزيه قد قال الأمر الأكثر أهميةً في خاتمة المقال؛

Twitter: @ketab_n

فقد أعلن أنّ مسرحيةً جديدة سوف تُعرَض قريباً في «أوتيل بورغون» عن «مدرسة» موليير. وقد أعلن دي فيزيه عن هذا بمكر بحيث اتّضح فوراً للجميع، رغم أنه لم يذكر اسم المؤلّف، أنّ هذه البدعة ستكون بريشة السيد دي فيزيه ذاته.

كيف كان سلوك موليير في هذه الأثناء؟ قبل كل شيء، أهدى «المدرسة» إلى زوجة حاميه، شقيق الملك، الأميرة هنرييت الإنكليزية، وفي هذا الإهداء، كعادته، سكب على الأميرة برميل كامل من التملّق. ذكية، أقولها صراحةً، خطوة ذكية! لكن موليير ارتكب، بعد ذلك، خطأً قاتلاً. ناسياً أنّ المؤلّف يجب ألاّ يخوض، بأيّ حال من الأحوال، في أيّ جدل منشور حول مؤلّفاته، موليير، وقد وصل به الحنق حدّ الجنون، قرر الانقضاض على أعدائه.

وبما أنه كان بارعاً في استخدام الخشبة؛ فقد أنزل ضربته من على الخشبة، مؤلّفاً ومُمثّلاً، في حزيران عام ١٦٦٣، مسرحية قصيرة بعنوان «نقد مدرسة الزوجات».

هذه المسرحية، التي حصلت فيها أرماند ـ موليير على دورها الكبير الأول إليزا، صوَّرت نقّاد موليير بصورة مضحكة.

سائراً في دربه المرسوم بدقة ـ مؤمِّناً مؤخرّته دائماً في القصر ـ أهدى موليير هذه المسرحية، بعبارات متملّقة ذليلة، إلى الملكة الأم آنّ النمساوية. لكنّ الملكة نادراً ما ساعدت موليير لاحقاً.

قبل كل شيء تعرّف الجمهور بابتهاج في شخصية ليزيداس السيد دي فيزيه، وقسم آخر من الجمهور راح يصرخ قائلاً إنّه ليس دي فيزيه

Twitter: @ketab_n

بل هو صورة طبق الأصل عن السيد إذم بورسو، وهو أيضاً أديب وشتّام متحمّس لموليير.

ضاقت الدنيا في عينيّ ليزيداس ـ دي فيزيه بعد عرض مسرحية «نقد»، وقد ردّ من خلال مسرحيته الموعودة. كانت تحمل اسماً معقّداً «زيليندا»، أو نقد حقيقي لـ «مدرسة الزوجات» أو «نقد النقد»، وكانت تُصوِّر شخصاً اسمه إيلومير (قوموا بتبديل مواضع الحروف وستحصلون على اسم موليير) يتنصّت على أحاديث الآخرين في حانوت للدنتيلا، حيث تجري أحداث المسرحية.

رغم محاولات «أوتيل بورغون» لإخراج المسرحية فإنه ـ رغم ذلك ـ لم يقم بإخراجها لأنها، عند معاينتها عن قرب، بدت مليئة بالهراء، فاكتفى دي فيزيه بطباعة مؤلَّفه ونشره في باريس، حيث تبيّن أنّ مسرحية «زيليندا» ليس فيها من النقد بقدر ما فيها من الوشاية العادية جداً.

قال دي فيزيه إنّ الوصايا العشر القديمة التي قرأها أرنولف لأنياس شعراً، حين كان يوشك على الزواج، لم تكن في حقيقتها سوى محاكاة هجائية جليّة للوصايا العشر. السيد دي فيزيه، كما ترون، ردّ على السيد دو موليير بمنتهى الجدية.

ـ السافل! ـ همس دو موليير ممسكاً رأسه بيديه. ـ أولاً، هي ليست عشر! يبدأ أرنولف بالحادية عشرة...

حين تتزوج العروس الرائعة
زواجاً شريفاً،
من الملائم تذكيرها...

ـ إنه يبدأ بالحادية عشرة! ـ قال موليير لممثّليه.

Twitter: @ketab_n

ـ يبدأ ـ قالوا لموليير بصوت خافت، ـ لكنه لا يقول كلمة واحدة سوى: القاعدة الحادية عشرة ـ وبالتالي، أيها المعلم، تُستَظهَر عشر وصايا بالضبط.

وأنا أضيف إلى ذلك أنه لحظٌ عظيم أنّ دي فيزيه، على ما يبدو، لم يكن يعلم من أين اقتبس موليير قواعد الزواج العشر هذه! إذ إنّ موليير اقتبسها عن أعمال آباء الكنيسة القدِّيسين.

أحداث تلك الفترة طارت أبعد، واضطرم الحسد تجاه موليير أكثر فأكثر بين الأدباء. أحد أسباب ذلك كان واقع أنّ الملك، الذي، كما يتبيّن، كان يتابع باهتمام عمل ممثله الكوميدي، كافأه براتب مقداره ألف ليرة سنوياً لقاء عمله ككاتب كوميدي كبير، في الفترة التي تلت ظهور «مدرسة الزوجات». وهذا الراتب لم يكن كبيراً لأنّ العلماء والأدباء كانوا يُعطَون أكثر من ذلك بكثير، لكنّ مكافأة موليير أدّت بالأدباء إلى الشعور نحوه بشعور أقرب إلى القرف.

العلاقة بين بيير كورنيل وموليير انهارت نهائياً. الحقيقة أنّ الذنب لم يكن ذنب الراتب بقدر ما كان ذنب النجاح العجائبي «للمدرسة»، وكذلك ذنب قرينة صغيرة أخرى؛ فموليير، دون أيّ نوايا شريرة وإنما من قبيل المزاح، أورد بيت شعر من مسرحية كورنيل التراجيدية «سيرتوريوس» في خاتمة المشهد الثاني «للمدرسة»، واضعاً هذا البيت على لسان أرنولف مما أسبغ على كلمات كورنيل مِسحةً كوميدية.

لا يبدو أنّ هذا التافه ـ أرنولف الذي يُردّد كلمات بومبي موجِّهاً كلامه لأنياس: «كفى! أنا السيّد! امتثلوا لأمري!» ـ قد أساء إلى كورنيل مطلقاً لكنّ كورنيل، بغضّ النظر عن ذلك، احتدّ بشدة لأنّ أشعاره التراجيدية تُعامَل على هذا النحو.

Twitter: @ketab_n

كانت دروس موليير اللاحقة أثقل وطأة. بين الطبقة الراقية قيل إنّ موليير، في «نقد مدرسة الزوجات» قد صوَّر، بشكل مضحك، شخصيتين هما: جاك دي سوفريه، فارس من أخوية مالطا، والدوق دي لا فياد، مارشال فرنسا وقائد فوج الحرس الفرنسي. وقد مرّ الأمر مع جاك دي سوفريه على ما يرام لكن مع دي لا فياد انتهى بصورة سيئة. فهذا، محرَّضاً من كل الجهات، اقتنع أخيراً بأنه، هو بالتحديد، قد شُخِّص في مسرحية «نقد» في صورة ماركيز يُكرّر، بغباءٍ وغضب، العبارة ذاتها «تورتا بالقشدة!»، وفي حمأة غضبه أهان موليير إهانةً ثقيلة. فعندما التقى لا فياد بالدراماتورغ في «غاليري فِرساي»، تظاهر بأنه يريد معانقة موليير، وبأزرار قفطانه الغالية الثمن جرح وجهه مُدمياً إياه.

من المحزن التفكير في أنّ موليير لم يردّ على إهانة الدوق بشيء. هل كان للجبن دور هنا، أم أنه الفرق في الوضع الاجتماعي بين الممثل والدوق، أم، ربما، خشيته من استجلاب غضب الملك على نفسه، الذي كان يلاحق المبارزات بضراوة (وموليير ذاته سخر من المبارزين في مسرحياته الكوميدية)؟ لكنّ موليير لم يدعُ الدوق إلى المبارزة. غير أنه لا بدّ من افتراض أنه لو حدث ذلك لتوقّف نشاط موليير إلى الأبد بعد «نقد مدرسة الزوجات» لأنّ لا فياد كان سيقتله دون شكّ.

لم تصل مسرحية دي فيزيه إلى خشبة الأوتيل لكنّ ساخراً آخرَ من موليير في مسرحية «نقد»، إدم بورسو، كان أسعد حظاً. فمسرحيته، المسماة «صورة الفنان»، أو نقد مضاد لـ «مدرسة الزوجات»، مُثِلت من قِبل البورغونيين. في «الصورة» صوَّر بورسو موليير كشخصية مريبة إلى أقصى حدّ، وكذلك ذكّر بالوصايا العشر مثل دي فيزيه.

Twitter: @ketab_n

لكنّ الملك تعامل مع الأنباء المتعلقة بالوصايا بحياد، وفي باريس راحوا يقولون إنه، على ما يبدو، كان يتابع، باهتمامٍ كبير، الحرب المستعرة بين موليير وجيش كامل من أعدائه، وإنّ الملكَ ذاته قد نصح موليير بمهاجمة أعدائه من على الخشبة ثانيةً. آخ، نصيحة سيئة قدّمها الملك لموليير.

السيد دو موليير كتب مسرحية عنوانها «ارتجالية فرساي»، وقام بعرضها في ١٤ تشرين الأول عام ١٦٦٣. مُثِّلت «بروفة» المسرحية لأجل الملك بحيث إنّ ممثّلي «باليه رويال» صوّروا أنفسهم. لكن تلك «البروفة» كانت بالنسبة إلى موليير مجرّد مقدمة لمباشرة الهجوم على خصومه البورغونيين.

المسألة هي أنهم بدأوا يتحدّثون عن الممثّل المُهان المشوّه الوجه بشكل أسوأ فأسوأ. بات معروفاً في باريس، بالطبع، أنّ موليير ليس سعيداً في زواجه. الفتّانون السفلة نشروا شائعة بأنّ أرماند تخون موليير منذ زمن بعيد. وكان سرّ موليير المُميت يكمن في أنه، هو ذاته الذي يسخر من أمثال سغاناريل وأرنولف، كان غيوراً لا براء له. بالإمكان تخيّل الانطباع الذي تركته عند موليير هذه الفضيحة التي عيّرته أمام الجميع. قرّر موليير أنّ البورغونيين كانوا وراء هذه الفضيحة، وبحقدٍ ثمل راح يسخر منهم في «ارتجالية فرساي».

ـ من منكم يُشخّص الملوك؟ ـ قال موليير مُقلّداً نفسه، ـ كيف؟ هذا الشاب الرشيق؟ إنكم تمزحون؛ فالملك يجب أن يكون ضخماً وبديناً، كأربعة أشخاص معاً! اللعنة! يجب أن يكون للملك «كِرش»! يجب أن يتمتع الملك بمؤخرة كبيرة لكي يملأ العرش!

Twitter: @ketab_n

وهكذا؛ فقد انحطّ إلى درجة أنه سخر من العيوب البدنية لزاكاري مونفلوري!

بعد ذلك بدأ يسخر من غناء الممثلة بوشاتو والممثلين أوتروش وفيليه.

وهنا نال موليير، بصورة غير مباشرة، من المراكزة كذلك قائلاً عنهم ما يلي:

ـ كما كنا نرى في المسرحيات الكوميدية القديمة خادماً ـ مُهرّجاً يُضحك المشاهدين، في المسرحيات المعاصرة لا بدّ من مركيز يُسلّي الجمهور.

ثم حان دور إدم بورسو، وقد تجاوزت الحملة على بورسو حدوداً لا يمكن لأيّ دراماتورغ أن يسمح بها لنفسه في التعامل مع دراماتورغ آخر. لا يجوز، بالفعل، تصحيف نسبة شخص آخر على الخشبة: «بر.. برُو.. بروصو...»، وتسمية بورسو «الكويتب». أجل، لا شكّ في أنّ الملك قد قدّم لموليير نصيحة غير موفّقة! لكن جليٌّ أنّ بطلنا قد شعر بنفسه كذئبٍ وحيد يشعر بتنفس كلابٍ سريعة تلاحقه إلى جحره الذئبي.

وقد انقضّوا على الذئب معاً: دي فيلييه مع دي فيزييه قاما بتأليف مسرحية عنوانها «انتقام المراكزة»، والشاعر بالإهانة حتى أعماق روحه بسبب والده الشيخ مونفلوري الأصغر، أنطوان جاكوب، كتب مسرحية عنوانها «ارتجالية قصر كونديه». في «انتقام المراكزة» تمّ التعامل مع موليير ببساطة شديدة، مُسمّين إياه البذيء، سارق أفكار الكتّاب الآخرين، القرد والخرتيت، وفي «الارتجالية» أعاد، بشكل كامل،

Twitter: @ketab_n

أنطوان مونفلوري لموليير ما كاله موليير للشيخ مونفلوري في «ارتجاليته». فقد سخر مونفلوري من موليير في دور يوليوس قيصر، وليس دون مبرّر، فمن المعروف أنّ موليير قد لعب هذا الدور بشكل سيء جداً.

بعد ذلك، مسرح «المستنقع» أيضاً انخرط في المطاردة، وكال الشتائم لموليير في إحدى المسرحيات.

أخيراً، شخص اسمه فيليب دي لا كروا كتب عملاً بعنوان «حرب كوميدية»، أو دفاعاً عن «مدرسة الزوجات»، حيث أشار بحقّ إلى أنه في الوقت الذي يرقد فيه أبوللو في السماوات ينهش فيه الكتّاب والممثلون بعضهم بعضاً كالأبالسة. بالمناسبة، أقرّ دي لا كروا وصرّح على لسان أبوللو أنّ المسرحية، التي بسببها اندلعت الحرب، أي «مدرسة الزوجات»، مسرحية جيدة.

انتهى عام ١٦٦٣ المشؤوم بجنحةٍ مظلمة ارتكبها الشيخ مونفلوري الساخط، حيث كتب شكوى رسمية ضدّ موليير يتّهم فيها مونفلوري موليير بالزواج بابنته.

صعقت هذه الشكوى موليير تماماً، ولا أحد يعلم ما الذي قاله موليير للملك لكي يُبرّئ نفسه من تهمة سفاح المحارم، لكن لا شكّ في أنه قد تمكّن من تبرئة نفسه. لكن ربما قدّم الوثيقة التي سُجّل فيها أنّ أرماند بيجار هي ابنة ماري إرفيه ـ بيجار. اعتبر الملك إثباتات موليير مقنعة تماماً، ولم تُرفع أيّ قضية، وعندها بدأت الحرب العظيمة بين موليير وأعدائه تخمد.

وقد حصل فيها بطلي على المرض ـ أصبح يسعل سعالاً مريباً ـ

Twitter: @ketab_n

والتعب وحالة روحية غريبة، حيث فقط لاحقاً عُرف أنّ لهذه الحالة تسمية ملهمة جداً ـ السوداء. وعلى كتفيه خلّد كاتبين هزيلين: دي فيزيه وإدم بورسو، اللذين كانا يحلمان بالمجد، وحصلا عليه بفضل موليير. إذ لولا ظروف صراعه معهما لكان من النادر، ربما، أن نتذكّر اسمي دي فيزيه وبورسو، بل وأسماء كثيرين غيرهما.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٠

العرّاب المصري

بلغ موليير ذروة الشُّهرة في عام ١٦٦٤، ودودة الملل تنهشه، وعلى وجهه ندوب أزرار دي فياد، وقيل إنّ هذه الشُّهرة قد طارت من فرنسا وعبرت إلى البلدان الأخرى مُحلِّقةً فوق سلسلة جبال الألب.

رغم صعوبة حياة الزوجين موليير؛ فقد جاءهما إلى الدنيا ابن في ١٩ كانون الثاني عام ١٦٦٤. في الفترة الفاصلة بين ولادة الطفل وتعميده أعدّ موليير وأخرج مسرحيته الكوميدية الجديدة «زواج بالإكراه». فعلياً، هي مسرحية من فصل واحد لكنّ موليير، إذ كان يعلم مدى حبّ الملك للباليه، أدرج فيها الكثير من عروض الباليه الراقصة مُطيلاً إياها إلى ثلاثة فصول.

الفلورنسي، سَميّ موليير، موسيقار البلاط النابغة جيوفاني باتيست لوللي هو الذي كتب موسيقى مسرحية «الزواج»، ومايسترو الباليه الملكي بوشان هو الذي صمّم لها الرقصات. احتاجت المسرحيةُ عمليةَ مونتاج معقّدة، أُنفق عليها الكثير من المال، لكنّ هذا المال لم يذهب سدى.

Twitter: @ketab_n

لكي يُرضي الملك أدرج موليير قسم الباليه في المسرحية، ولإرضاء ذاته أدرج في المسرحية الكوميدية فيلسوفين مضحكين. لم ينسَ الكليرموني القديم دروس الراحل غاسّيندي، وشخّص على الخشبة عالمين بليدين - أحدهما بانكراس من المدرسة الأرسطية، والآخر مارفوريوس من مدرسة الشكاك القديم بيرّون.

الأول راح ينطق بهراءٍ عجيب مضحكاً المشاهدين إلى حدّ الجنون. أما الثاني، فعلى العكس من الأول، كان شحيح الكلام وشكّاكاً إلى درجة أنه نصح سغاناريل بالشكّ حتى في ما لا يمكن لإنسان له عينان الشكّ فيه. وهكذا، فإنّ سغاناريل، قادماً من مكانٍ ما، يجب عليه، بدلاً من أن يقول: «لقد جئت»، أن يقول: «يبدو أنني قد جئت»، الأمر الذي أثار لدى سغاناريل العقلاني استغراباً في محلّه بالطبع.

المشهدان الرائعان مع هذين المتحذلقين أثارا انزعاج كلية الفلسفة في باريس، وليس مفهوماً سبب عدم تحوّله إلى مشادّة كبيرة لأنّ - كما سبق أن قلت - الضحك من فلاسفة المدرسة الأرسطية كان بمنتهى الخطورة.

ربما كان الدافع لتأليف «زواج بالإكراه» المغامرة القريبة العهد للكونت فيليبار دي غرامون التي ضجّت في باريس. هذا الكونت كان ناجحاً نجاحاً استثنائياً لدى السيدات بحيث إنّ حكايات مغامراته أنهكت الملك فأمر دي غرامّون بالسفر إلى إنكلترة لبعض الوقت. لكن ما إن وصل الكونت إلى إنكلترة حتى غزا قلب فريلينا، ابنة آل هاميلتون.

المجتمع اللندني، الذي لا يعرف دي غرامّون جيداً، راح يتحدث عن أنه سيتزوجها، غيرَ أنّ الكونت، حين أزف الوقت، عزم على السفر

Twitter: @ketab_n

إلى موطنه فرنسا، ناهيكم عن أنه، حين ودّع الفتاة، لم يقل كلمة واحدة تُرى فيها نيّة الزواج.

وصل الكونت إلى ميناء «دوفر»، وكان يستعد لركوب السفينة عندما ظهر فجأةً على رصيف الميناء أخوا الفتاة هاميلتون. كانت النظرة الأولى كافية لكي يدرك الكونت أنّ الأخوين مقبلان على أمرٍ جادّ؛ فتحت معطفي الأخوين كانت تتدلى نهايات السيوف، كما افتُرض، لكن فضلاً عن السيوف كانت معهما مسدسات كذلك. حيّا الأخوان غرامّون بالانحناء، لكن بلطفٍ بدا لغرامّون مبالغاً فيه.

ـ أيها الكونت ـ قال الأكبر سنّاً ـ ألم تنسَ شيئاً في لندن؟

شعر الكونت بالريح التي كانت تهبّ باتجاه الوطن هبوباً جيداً. رنا إلى أشرعة السفينة، وإلى المسدسات، وفكّر: «لا شكّ في أنني، حتى لو تمكّنت من إطلاق النار على الأخ الأكبر، فسيتوجّب عليّ التعارك مع الثاني مباشرةً. سوف تحدث جلبة مضجرة في الميناء، وأسوأ ما في الأمر أنها ستحزن معاليه. وإضافةً إلى هذا كله، الفتاة هاميلتون فتاة فاتنة!..».

والكونت أجاب آل هاميلتون بتهذيب:

ـ أجل أيها السيدان، لقد نسيت الزواج بأختكما. لكني سأعود فوراً إلى لندن لكي أُصلح الأمر. وخلال فترة قصيرة أصبح غرامّون متزوجاً.

لكن من المحتمل كذلك أنّ موليير لم يقتبس مادة مسرحيته الكوميدية من مغامرات فيليبار دي غرامّون وإنما من كتاب الهجّاء المعروف رابلييه الذي صوّر فيه مغامرات شخص اسمه بانورج.

عُرضت المسرحية الكوميدية ـ الباليه الفاخرة في ٢٩ كانون الثاني

Twitter: @ketab_n

في المخادع الملكية في اللوفر بتألّق كبير، ناهيكم عن أنّ في جزء الباليه شارك مؤدٍّ يمكن القول بثقة أنْ ليس أيّ دراماتورغ يمكنه الحصول على مثله ـ في أحد عروض الباليه، في المشهد الثاني، رقص المصري الأول، ملك فرنسا، مع المركيز فيلروا. هاكم إلى أيّ درجة كان يحب الباليه! وبالإضافة إلى الملك، شارك في المسرحية شقيق الملك، الذي لعب دور أحد المعجبين بزوجة سغاناريل، وعدد من رجال البلاط الذين مثّل ثلاثة منهم أدوار غجر وأربعة أدوار شياطين. اعترف الجميع بشكل حاسم أنّ أفضل الجميع في المسرحية كان المصري الأول. نحن نصمت، لكننا نسرّ لأنفسنا أنّ الأفضل في العرض كان سغاناريل بأداء موليير، وبانكراس مع مارفوريوس بأداء بريكور ودي كروازي.

نُقلت المسرحية من «اللوفر» إلى الخشبة الأم في «باليه رويال»، بصيغتها ذات الفصل الواحد، من دون الباليه الباهظة التكاليف، لكنها لم تحقق نجاحاً يذكر.

منح الملكُ نفسَه إمكانية التنعّم مرة أخرى بالفن المحبّب لديه، راقصاً في ١٣ شباط في باليه آخر أخرجه البورغونيون المتهالكون غيرةً تجاه موليير، حيث شارك في افتتاحية الباليه ديزيه وفلوريدور الشهيران. أما موليير فقد توفّرت له الإمكانية للعودة إلى الريبرتوار المعتاد وإلى شؤونه العائلية.

هذه الأمور كانت مليئة بخفايا وأحزان مظلمة، وفقط وميض القناديل في كنيسة «سان جيرمان دي لاكسروا»، تلك الكنيسة ذاتها، في ٢٨ شباط، كان يُبدّد بعض الشيء ظلمة حياة موليير الذي كان في حالة سوداوية. ففي ذلك اليوم تمّ تعميد ابن موليير البكر. كل شيء كان

Twitter: @ketab_n

معدّاً بفخامة وأبّهة. عند حوض المعمودية كان يقف حارس مسلّح ببلطة حربية طويلة، وكان وجه القسّ يعبّر عن اضطراب غير عادي.

المسألة هي أنّ موليير قد نال تشريفاً استثنائياً؛ فقد وافق الملك على أن يكون عرّاب الطفل. نيابةً عن العرّاب العظيم حضر الدوق دي كريكي، وعن الإشبينة صاحبة الجلالة هنرييت حضرت دوقة أورليان، زوجة الماريشال دو بليسي. أُطلق على الطفل، كما هو مفهوم تماماً، اسم لويس.

ترك التعميد انطباعاً كبيراً في باريس، والشتائم في حقّ موليير خفّت كثيراً. صار طيف الملك يتراءى للجميع من وراء كتفي مدير الفرقة، وكثيرون ممّن يحبّون الوقوف في طرف المنتصر راحوا يقولون، بمبالغة، إنّ الذين في القصر لم يعودوا يستمعون إلى مونفلوري ووشاياته، وإنهم تقريباً طردوه شرّ طردة.

في ذلك الوقت قام موليير بتغيير مكان إقامته، الأمر الذي بدا غريباً جداً للكثيرين. فقد هجر شقته في شارع «ريشيليو» وانتقل مع زوجته إلى مكان إقامته القديم عند زاوية «الساحة الملكية» وشارع «توما اللوفري»، وراح يعيش هناك في منزل واحد مع مادلين بيجار والسيدة دي بري. المعارف الطيبون استخلصوا من هذا استنتاجاً مفاده أنه قد تصادق من جديد مع صديقته المخلصة والرائعة السيدة دي بري، وأضاف آخرون: «. . . ومع مادلين كذلك!».

لا أعلم إن كان هذا قد حدث، وليس أمراً مريحاً نَبْش الحياة الشخصية للآخرين، لكن لا شكّ في أنّ موليير لم يعد قادراً على البقاء مع زوجته بمفردهما في الشقة المستقلة في شارع «ريشيليو».

Twitter: @ketab_n

بعد انتقاله واصل موليير، بغضّ النظر عن حالة روحه المثقلة، العمل باندفاعٍ على عملٍ كبير. وقد ألّف هذا العمل في السرّ، ويُقال إنّ قلّة قليلة كانت تعلم بشأنه. كان من بينهم الناقد والشاعر بواللو ديبريو الذي، رغم فارق السنّ الكبير (كان يصغر موليير بأربعة عشر عاماً)، بات أفضل أصدقاء بطلنا، كما سبق أن قلت، وإحدى أذكى وأروع نساء فرنسا، نينون دي لانكلو، الملقّبة بأسبازيا الفرنسية، التي قرأ موليير في صالونها ـ ليس بغرض البوح ـ مقتطفات من مسرحيته الكوميدية الجديدة.

وقد أخبر موليير بمنتهى الإخلاص الملك، الذي بات يتابع بعين الرضا أعمال إشبينه الذي فتنه بباليهاته، أنه يكتب مسرحية كوميدية كبيرة عن المُراءاة والنفاق. الملك، الذي اعتاد على توقّع أروع الملاهي والتسالي من مدير الفرقة، أعجبه الأمر كثيراً، وأشاع رجال الحاشية أنّ موليير قد قرأ في الخفاء على مسمع الملك بعض المشاهد، وأنّ الملك قدّم له نصائحَ بالغة الأهمية. لم يقدّم الملك أيّ نصائح، فقد كان منشغلاً في حلقة وزرائه الأبرز من حيث العقل والقدرات بشؤون الدولة، منتظراً انتهاء إنجاز قصر فيرساي.

أصبح القصر جاهزاً في الربيع، وحينذاك ثار حدثٌ لم يسبق له مثيل في المسرح الفرنسي.

حين حلّ شهر أيار المشرق، مَثُل الملك أمامنا، لكن ليس في هيئة الأب بالمعمودية ولا في صورة المصري. حقاً تلزم ريشة جان راسين الرائعة، الذي كتب مدائح متفوّقة في بداية مسيرته الأدبية، لتصوير ما حدث في فيرساي في بداية شهر أيار عام ١٦٦٤.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الوقت، أي في ربيع عام ١٦٦٤، أُنهي إنجاز قصر فيرساي، وعندها بدأت احتفالات فيرساي الضخمة.

عبر الممر الفسيح، بين جدران الخضرة المقصوصة، كان يسير موكب يتقدّمه ملك فرنسا معتلياً صهوة جواد. كانت أشعة شمس الربيع تضرب درع الملك مباشرةً. وكانت عدّة الحصان تتوهّج بالذهب، وعلى خوذة الملك كانت تلمع ماسات. وعلى خوذات الحرس كانت الأرياش ترفرف، وجياد الحرس الأصيلة كانت ترقص تحتهم.

كانت فرق الأوركسترا تسير، والأبواق فيها تزعق بصوتٍ عالٍ بحيث إنّ أصواتها كانت تُسمع في باريس، على مبعدة عشرين كيلومتر. بين جوقات الموسيقى كانت تسير عربات، يرتقي إحداها، واضعاً «ماكياج» الإله أبوللو، شارل فارليه دي لاغرانج. في العربات التالية كان يجلس الممثّلون، مرتدين بزّات تصوِّر رموز دائرة البروج. كان يسير، راجلين وراكبين، أناسٌ يرتدون أزياء فرسان وزنوج وآلهة. وكان يُرى بينهم على عربة إله الغابات «بان» بأقدام معزاة، يشخّصه السيد دو موليير.

ما الذي كان يعنيه هذا كله؟ كانت أبواق المنادين تبلّغ العالم أجمع انطلاق «ملاهي الجزيرة الساحرة» ـ احتفالات فيرساي العظيمة، التي أعدّ لها الدوق دي سان إنيان بأمرٍ من الملك.

وقد تجاوز الدوق كلّ التوقّعات. حيث أخذ كل ما هو جيد لأجل هذه الاحتفالات. فقد جهّز فيغاراني الآلات للعروض المسرحية، وقصّ البستانيون في بحر خضرة فيرساي مسارح كاملة زيّنوها بضفائر وزخارف من الزهور. كما أعدّ خبراء الألعاب النارية انفجارات ألعاب نارية لم يُرَ

Twitter: @ketab_n

لها مثيل من حيث السطوع والقوة. وحين بدأت احتفالات فيرساي، انهمرت على حدائق فيرساي شهبٌ متنوّعة الألوان، ومن السماء كانت تتهاوى نجوم هادرة، ومن بعيد كانت غابة فيرساي تبدو وكأنها تحترق.

عمل موليير لأجل هذا العيد كالممسوس، وخلال فترة قصيرة، مقتبساً الحبكة عن الدراماتورغيين الإسبان، كتب مسرحية بعنوان «أميرة إيليد». كان الوقت المتوفّر له للعمل من القِصَر بحيث «فَتَلَ رأسه». في نهاية المطاف، وبعد أن افتتح المسرحية بالشعر، تخلّى عن الشعر في الفصل الثاني وأنهى العمل نثراً، الأمر الذي أكسبها هذا الشكل الغريب.

في هذه المسرحية الطريفة والفارغة مثّلت أرماند بيجار دور أميرة إيليد. حينها رأى القصر كله الموهبة الهائلة التي تتمتع بها زوجة الممثل الكوميدي المعروف، وماهية المدرسة التي اجتازتها لديه. كان تمثيلها مذهلاً، وحشود الفرسان أحاطت بالمرأة الطريفة اللاذعة اللسان الملفَّعة بحريرٍ ليمونيٍّ مخيطٍ بالذهب والفضة.

قدّمت «أميرة إيليد» للملك متعة عظيمة، وجلبت على المؤلِّف مصيبة جديدة. الفرسان، الخطرون من حيث فتوتهم وجمالهم وثرائهم، أفسدوا عليه الأعياد نهائياً. وقد وُلدت أقاويل حول زوجته فوراً، منذ اليوم الأول. جميعها كانت على شكل إشفاق مسموم أو تلميحات غير جميلة سرعان ما بلغت أذني موليير، وهو لم يعضّ وإنما كشّر عن أسنانه بذئبية فحسب. وإضح أنه قد اعتاد أشياء كثيرة، بعد حرب السنة السابقة مع البورغونيين، ولم يعد يدهشه أن يمشي بين الناس عارياً

Twitter: @ketab_n

تماماً. عدا عن ذلك، هوت عليه المصائب؛ فقد توفي العرّاب الملكي لويس مباشرةً بعد عرض «أميرة إيليد» الافتتاحي.

الاحتفالات في ذلك الوقت جرت في مجراها المعتاد. وفي المسارح الوردية عزفت الأوركسترا ألحان لُوللي، وانهالت النيران من السماء، واليوم السادس المقدَّر للهو كان يقترب. في ذلك اليوم، ١٢ أيار، مُحذِّراً الملك من أنّ المسرحية ليست جاهزة بعد، عرض موليير أمام الملك والحاشية ثلاثة فصول من مسرحيته السرية التي تدور حول مراءٍ عنوانها «طرطوف، أو المنافق».

سوف أوجز. في هذه المسرحية تمّ تصوير شخص محتال، كذّاب، سافل، واشٍ وجاسوس، منافق، فاجر ومغوي زوجات الآخرين، لا براء له. هذا الشخص، الذي من الواضح أنه يشكّل خطراً على المجتمع من حوله، لم يكن سوى... قسّ. كانت مواعظه مليئة بعبارات شريفة معسولة، ناهيكم عن أنه كان يُرفق أفعاله الدنيئة، في كل خطوة، باقتباسات من... الكتاب المقدّس.

لا أجد حاجة لإضافة شيء إلى ما قيل. فقد عُرضت المسرحية بحضور الملك والملكة ـ الأم ونساء متدينات وعدد لا يحصى من حاشية البلاط الذين كان من بينهم عدد كبير من الأعضاء الغيورين للجمعية الدينية «جماعة القربان المقدّس» التي ذاع صيتها منذ فترة قريبة، والتي صعّدت من نشاطها لحماية الدين وطهارة الخُلُق في الدولة إلى درجة أنّ الحكومة حاولت إغلاقها في إحدى المرات.

بدأت المسرحية باهتمام مبتهج ومتعاطف سرعان ما حلّ محله سخطٌ عظيم. عند نهاية الفصل الثالث لم يعد الجمهور يعرف نوايا

Twitter: @ketab_n

السيد موليير، بل خطر لبعضهم أنه ربما ليس بكامل قواه العقلية على الإطلاق.

بين الشخصيات الدينية يُصادف شتى الأشخاص بالطبع، كرئيس الدير روكِت الذي أصبح فيما بعد أسقف «أوتين»، والذي تعرّف إليه موليير في زمن «لانغيدوك» الذي لا يُنسى، وذلك حين اشتُهر روكِت بين الرعية كلها بسلوكه الشنيع المثير للاستغراب، أو المحامي السابق شاربي الذي تحوّل إلى واعظٍ ومغوٍ لزوجة طبيب القصر، أو الأب الفرنسيسكاني البوردوفي المعروف إيتيه الذي اشتُهر أثناء «الفروند» بخيانات لم يُسمع لها مثيل من قبل، وآخرون غيرهم. لكن، رغم ذلك، أن يتم تشخيص ما شخّصه موليير على الخشبة... لا، وافقوني، هذا مبالغ فيه للغاية!

المراكزة الدنيويون، الذين عانوا كثيراً، اعتادوا أنّ الملك قد تركهم فريسة سهلة لموليير. السغاناريلات والحانوتيون أيضاً نالوا نصيبهم... لكن موليير، في «طرطوف»، اقتحم مجالاً لم يكن عليه اقتحامه!

زادت حدة السخط بسرعة غير عادية، وانعكس صمتاً مطبقاً. حدث شيء لم يسبق له مثيل. الممثّل الكوميدي من «باليه رويال» بضربةٍ واحدة من ريشته خرّب احتفالات فرساي وأوقفها: الملكة ـ الأم غادرت فرساي بجلبة!

فيما بعد، اتّخذت الأحداث طابعاً بالغ الجدية. أمام عيني الملك ظهر فجأةً رداءٌ ناريّ اللون، والذي مَثُل أمامه لم يكن سوى أسقف مدينة باريس الكاردينال أردوين دي بومون دي بيريفيكس، وتوسّل الملكَ بإلحاحٍ شديد وبطريقة مؤثّرة لإيقاف عرض «طرطوف» فوراً.

Twitter: @ketab_n

«جماعة القربان المقدّس» تحدثت عن أمرٍ واحد فقط ـ عن أنّ موليير بالغ الخطورة. كانت هذه هي المرة الأولى، وربما الوحيدة، التي يشعر فيها الملك بالاستغراب بعد عرضٍ مسرحيّ.

وها قد حانت لحظة بقاء الإشبينين على انفراد. راحا يتأملان بعضهما بعض الوقت. لويس، الذي كان يتمتع منذ طفولته بالقدرة على التعبير بإيجاز ووضوح، شعر أنّ الكلمات تخونه.

ماطّاً شفته السفلى، رمق الملك مواربةً الممثل الشاحب وفي رأسه تدور الفكرة التالية: «لكنّ السيد موليير هذا يشكّل ظاهرة هامّة بما يكفي!».

حينها، سمح الإشبين ـ الممثل لنفسه بقول ما يلي:

ـ وإذاً فخامتكم، أطلب بمنتهى الإذعان السماح بعرض «طرطوف».

أذهلت الدهشة الإشبين ـ الملك.

ـ لكن يا سيد موليير ـ قال الملك، ناظراً بفضولٍ هائل إلى عينيّ محدِّثه ـ، الجميع، بصوتٍ واحد، يؤكّدون أنّ المسرحية تحتوي على السخرية من الدين والتقوى!

ـ أتجرّأ على إعلام معاليكم ـ مختنقاً أجاب الفنان، إشبين الملك ـ أنّ هناك تقوى صادقة وتقوى كاذبة. . .

ـ هذا صحيح ـ أجاب العرّاب دون أن يبعد نظره عن موليير ـ لكن، رغم ذلك، اعذرني على صراحتي، الجميع يقولون إنّ، في مسرحيتكم، ليس بالإمكان معرفة نوع التقوى التي تسخر منها، الصادقة أم الكاذبة؟ لأجل الله اعذرني؛ فأنا لستُ ضليعاً في هذه المسائل. ـ أضاف الملك اللبق كما هي حاله دائماً.

Twitter: @ketab_n

صمتا. ثم قال الملك:

ـ لذا أرجو ألاّ تعرض هذه المسرحية.

مُنهياً الاحتفالات بهذه الدرجة من الإخفاق، توجّه الملك في ١٦ أيار إلى «فونتِنبلو»، وفي إثره سافر موليير، وفي إثر موليير سافرت حكاية «طرطوف» التي ازدهرت أكثر.

في «فونتِنبلو»، بين الآخرين، شاهد «أميرة إيليد» رسول بابا روما وقريبه الكاردينال كيجي الذي قدم إلى فرنسا لإجراء مباحثات. نالت «الأميرة» إعجاب الكاردينال، وموليير دبّر الأمور بحيث وافق الكاردينال على قراءة «طرطوف». قرأ موليير المسرحية للكاردينال، ولدهشة الجميع، قال المندوب البابوي بلطف إنه لا يرى في المسرحية الكوميدية ما لا يمكن القبول به، وإنه لا يلاحظ فيها ما هو مهين للدين. بعث نقد الكاردينال الكثير من الأمل في نفس موليير، ولاحت إمكانية تحصيل حماية للمسرحية من قِبل العرش الأقدس. لكنّ هذا لم يحدث، للأسف. إذ ما كاد الملك يستقرّ في «فونتِنبلو» كما ينبغي حتى قُدِّم له مؤلَّف خوري كنيسة القديس بارثولومي الأب بيير روليه، الذي طُبع في باريس بسرعة كبيرة جداً. وقد عُنون هذا المؤلَّف على النحو التالي: «إلى الأمجد بين ملوك العالم كافة لويس الرابع عشر»، وكان يتعلق بمسرحية «طرطوف» بالطبع.

الخوري المحترم كان شخصاً دمويّ المزاج، وقد عبّر عن نفسه بوضوحٍ تام. حسب رأيه، موليير ليس إنساناً على الإطلاق بل هو شيطانٌ متجسّد في جسد إنسان يرتدي ملابس البشر. وبمقتضى ذلك، رأى بيير روليه أنّ نار جهنم مضمونة لموليير تماماً في كل الأحوال،

Twitter: @ketab_n

وبالتالي يجب حرق موليير المعني مع «طرطوفه» أمام الشعب كله، دون انتظار نار جهنم هذه.

موليير، بعد اطّلاعه على مؤلّف الأب بيير، قدَّم فوراً التماساً إلى الملك طالباً الحماية بعبارات يائسة، مُشبِّهاً الملك بالله.

لم يكن لويس الرابع عشر يطيق أن يُشار له إلى كيفية وجوب التصرّف مع أحدهم. لذا فإنّ روليه مع مشروعه «أوتودافيه» لم يحقّق أيّ نجاح حاسم. فضلاً عن أنّ روليه مع اقتراحه السخيف قوبل بشكل سيء.

هنا، بالمناسبة، وُجِد حام آخر لمسرحية «طرطوف»، بالإضافة إلى كاردينال روما. وكان الفظّ السمج الحديث، لكن الذكي ومحبّ الاستطلاع، كونديه العظيم. أثناء عرض «طرطوف» كان الإيطاليون يعرضون المسرحية الهزلية «سكاراموش الناسك» التي صُوِّر فيها راهبٌ بأشدّ الأشكال سلبية. الملك، الذي ظلّ في حالة عدم الفهم فيما يتعلق بحكاية «طرطوف»، قال لكونديه الذي شاهد «سكاراموش»:

ـ لستُ أفهم لماذا انقضّوا هكذا على «طرطوف»؟ إذ إن «سكاراموش» تتضمن أموراً أكثر حدةً بكثير.

ـ هذا لأنّ، فخامتكم، ـ أجابه كونديه ـ في «سكاراموش» يسخر الكاتب من السماء والدين اللذين لا يعنيان هؤلاء السادة في شيء لكنّ موليير في «طرطوف» يسخر منهم هم أنفسهم. هذا هو سبب حنقهم، «سيور»!

لكن حتى خطبة كونديه لم تساعد موليير. فماذا فعل كاتب المسرحية المشؤومة؟ هل أحرقها؟ خبّأها؟ لا. متمالكاً نفسه بعد

Twitter: @ketab_n

صدمات فرساي، الدراماتورغ غير التائب جلس يكتب فصلي «طرطوف» الرابع والخامس.

حامي موليير الأورلياني، بالطبع، جعل موليير يعرض «طرطوف» لأجله، وذاك قام بعرض ثلاثة فصول منها في الصيف، في قصر «فيليه كوتيريه»، وحين أنهى المسرحية قام بعرضها كاملةً في «رينسي»، لدى كونديه.

صحيح أنّ المسرحية مُنعت لكن لم يكن هناك أي مجال لإيقاف انتشارها، وقد انتشرت نسخها في فرنسا. فضلاً عن أنّ أنباءها وصلت إلى البلدان الأوروبية الأخرى. في ذلك الوقت، في روما، كانت تعيش ملكة السويد، التي تخلّت عن العرش، كريستينا أغسطس، وهي امرأة رفيعة الثقافة بصورة غير عادية، محبة للفنون والعلوم. قبل ذلك كانت الملكة تقيم في فرنسا، وقد ميّزت إقامتها في فرنسا بأن أرسلت إلى عشيقها المركيز جيوفاني الموهيلدي قتلةً، حيث قتلوا المركيز في نهاية عام ١٦٥٧.

المعتنقةُ الكاثوليكيةَ حديثاً، الملكة السابقة كريستينا أثارت مسرحية «طرطوف» اهتمامها كثيراً وطلبت رسمياً من فرنسا أن تتلطّف بتأمين نسخة عن المسرحية لأجلها ـ كانت الملكة تريد عرضها في الخارج. حينها وجدت السلطات الفرنسية نفسها في وضع حسّاس لكنها، رغم ذلك، تمكّنت، بذرائع ما، من رفض طلب الملكة.

حين عاد موليير المريض، الذي كان يسعل وبات يرتعد عند رؤية الناس، إلى شؤونه في «باليه رويال» وجد أنّ إيرادات المسرح تنخفض. صحيح أنّ «أميرة إيليد» كانت تسير بنجاح لكنّ ثمنها كان باهظاً.

Twitter: @ketab_n

المسرحية العصرية، التي قبل المسرح بعرضها، للدراماتورغ من الطراز الأول جان راسين «تيبائيد» لم تكن تعطِ عوائد كبيرة. موت «طرطوف» مزّق المدير من كل النواحي.

معانياً مصيبة أخرى ـ إذ توفي غرو رينيه دوبارك البدين، مستبدلاً إياه بفنان كوميدي جديد، هو يوبير المتخصص بتأدية أدوار العجائز ـ بدأ موليير يفكّر بوجوب استبدال «طرطوف».

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢١

فليقصف الرعد موليير!

انهمك موليير في دراسة السيّر الأسطورية الإسبانية. مخاصماً زوجته، جلس في مكتبه، وهو يغمغم ويسعل، منكبّاً على مجلّدات وراح يُلطِّخ ورقةً. كان طيف المغوي الفاتن دون جوان يتنسّج أمامه أثناء سهره الليلي، مومئاً إليه. أعاد قراءة مسرحية الراهب غبريّيل تيليز المعروف بالاسم المستعار تيرسو دي مولينا، ثم قرأ مسرحيات الإيطاليين عن دون جوان نفسه. كان الموضوع «يتسكّع» في كافة الجهات، ويجتذب الجميع، بمن فيهم الفرنسيين، وفي لندن منذ عهد قريب، وفي فرنسا قام الفرنسيون بتمثيل مسرحية عن دون جوان أو «الضيف الحجري»، التي تحوّلت بين يدي أول مترجم للمسرحية الإسبانية، الذي فهم كلمة «ضيف» على أنها «مأدبة»، إلى «المأدبة الحجرية».

افتتن موليير به وراح يكتب دون جوانه الخاص، وقد ألّف مسرحية جيدة جداً ذات خاتمة فنطازية غريبة، حيث ابتلعت نيران الجحيم دون جوانه.

عُرض العرض الافتتاحي في ١٥ شباط عام ١٦٦٥. وقد لعب

Twitter: @ketab_n

لاغرانج دور دون جوان، ولعب موليير دور خادمه سغاناريل، يوبير ـ بييرو، دون لويس ـ بيجار الأعرج، ديمانش ـ دو كروازي، لاراميه ـ السيد دي بري، الفلاحتان اللتان أغواهما دون جوان، شارلوت وماتورين، لعبت دورهما السيدتان دي بري وأرماند التي كانت حامل في شهرها الرابع من جديد.

بلغت عوائد العرض الأول لمسرحية «دون جوان، أو الضيف الحجري» ألفاً وثمانمائة ليرة. ثم ارتفعت العوائد وبلغت ألفين وأربعمائة ليرة.

سحرت مسرحية «دون جوان» الباريسيين. وكان متوقَّعاً أنّ المؤلِّف، الذي تلقّى ضربة قوية بسبب «طرطوف»، سوف يتوب فوراً ويُخرج للجمهور عملاً لا يتعرّض للأديان ويكون مقبولاً تماماً. لكنه ليس فقط لم يفعل ذلك، بل إنّ الشغب الذي حدث من جرّاء «دون جوان» إن لم يكن أكثر فلم يكن أقلّ من الشغب الذي جرى بسبب «طرطوف»، خاصةً وأنّ مسرحية «دون جوان» دوّت من على الخشبة في حين أنّ «طرطوف» علمت بها حلقة محددة من الناس.

الغيورون على الأخلاق شعروا بالحنق تماماً، ثم تحوّل حنقهم إلى غضب. ظهرت أولى المقالات عن «دون جوان». شخص اسمه باربيه دوكور، مُوقِّعاً باسم روشمون المستعار، طالب بعقوبة لموليير تكون عبرةً مُذكِّراً، في هذه الأثناء، بأنّ الإمبراطور أغسطس أعدم مهرّجاً لأنه سخر من جوبيتر. إضافةً إلى أغسطس ذكّر أيضاً بتيوديسيوس الذي كان يلقي بالكتّاب أمثال موليير فرائسَ للوحوش.

بعد روشمون كتب كاتب آخر مشيراً إلى أنه سيكون أمراً جيداً لو أنّ

Twitter: @ketab_n

صواعقَ تضرب المؤلّف مع بطله. على إثر هذا الكاتب ظهر ثانيةً، للمرة الأخيرة هذه المرة، صديقنا القديم الأمير الورع كونتي. في مقالته المتخصصة، المكرّسة للمسرحية الكوميدية والممثلين، أعلن أنّ «دون جوان» عبارة عن مدرسة علنية تماماً للكفر، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الأمير كان يجادل بذكاءٍ شديد.

ـ لا يجوز، في الواقع ـ قال هو ـ جعل دون جوان يتلفّظ بأقوالٍ وقحة، وتكليف الخادم الأحمق بالدفاع عن الدين والمبدأ الإلهي. إذ أنّى له مواجهة خصمه المتألّق؟

بشكل عام، الأمنيات بأن يقصف رعد السماء مدير «باليه رويال» دوّت أكثر فأكثر. الانطباع الأقوى في المسرحية كلها أحدثه حقاً المشهد الغريب بين دون جوان والفقير الذي، رداً على سؤال دون جوان: ما عملك؟ أجاب أنه يُصلّي طوال اليوم لأجل رفاهية الناس الذين يعطونه شيئاً. ردّاً على ذلك صرّح دون جوان بأنّ الإنسان الذي يُصلّى لأجله طوال اليوم لا يمكن أن يعيش حياةً سيئة. لكنّ الفقير اعترف بأنه محتاج جداً. حينها قال دون جوان إنّ هذا يعني أنّ التماساته تكافأ بشكل سيء في السماء، ومنحه «لويدوراً»[١] شريطة أن يكفر بالله. رفض الفقير القيام بذلك، ودون جوان أعطاه هذا «اللويدور» حباً بالإنسانية، حسب تعبيره.

هذا المشهد جعل حتى الذين يتفقون مع موليير نسبياً يقفون ضدّه، والضربة القاضية التي وجّهها المؤلّف لبطله لم ترضِ أحداً بصورة

(١) Louis d'or (بالفرنسية، وتعني: «لويس الذهبي»)، وهي عملة نقدية ذهبية فرنسية قديمة.

Twitter: @ketab_n

نهائية. قصارى القول، لم تعش مسرحية «دون جوان» على الخشبة زمناً طويلاً، وبعد العرض الخامس عشر لها تمّ منعها.

هذا لا يمنع إضافة أنّ موليير، بسبب «دون جوان»، قد تخاصم مع شريحة كاملة من العلماء في باريس، وبالتحديد مع الأطباء الذين وجّه إليهم سخريات لاذعة في المسرحية الكوميدية. مكتسباً، على هذا النحو، أعداءً جدداً، دخل موليير موسماً أعجفاً. كان الصيف المملّ طويلاً وكئيباً. يحدث في البيت أن يتشاجر مع زوجته الحامل التي أصبحت عصبية المزاج، ويشتم، بغضب ودون جدوى، من جرّاء انخفاض الإيرادات في الصندوق. لكنّ مصارعة هذا الانخفاض بعد فقدان «طرطوف» و«دون جوان» كان صعباً جداً.

عندما كان مزاجه النفسي يغدو لا يُطاق على الإطلاق كان يهبّ لنجدته النبيذ ومجموعة صغيرة مؤلَّفة من رفاق المدرسة القدماء لموليير وكلود شابيل، بالإضافة إلى لافونتين وبوالو والنجم الصاعد جان راسين، وكانت تجتمع إما في حانة «الكبش الأبيض» الصغيرة أو في حانة «كوز الشوح». كان يترأس هذه الاجتماعات شابيل الصاخب الذي يحب الشرب أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. أكبر الظنّ أن هذه المجموعة، خاصةً وأنّ على رأسها موليير، لو أنها ظهرت، في أيامنا هذه، في أيّ مطعم من مطاعم فرنسا لكانوا استضافوها مجاناً!

كانت شؤون المسرح تجري في مجراها المعتاد في ذلك الوقت. في حزيران، بموجب أمر الملك، عُرضت في فرساي مسرحية «المرأة اللعوب» التي كتبتها امرأة ـ دراماتورغ هي مدموزيل دي جاردِن. عُرضت المسرحية في المسرح المفتوح في الحديقة، حيث أذهل الممثلين عدد أشجار البرتقال التي تزيّن المسرح.

Twitter: @ketab_n

في ٤ آب وضعت أرماند حملها وأنجبت لزوجها ابنة. عرّاب الفتاة أصبح صديقنا القديم إسبري ريمون دي مودين، والعرّابة كانت مادلين. رواية العاشقين القديمين انتهت منذ زمنٍ بعيد؛ فالآن كانت تربط دي مودين ومادلين صداقة هادئة وكئيبة، وعلى شرف العاشقين السابقين، الإشبين والإشبينة حالياً، أطلقوا على الفتاة اسم إسبري ـ مادلين، جامعين اسميهما.

بعد مرور بضعة أيام على ولادة ابنة آل موليير حدثَ حدثٌ بارز أنعش الفرقة كثيراً. في يوم الجمعة الذي لا يُنسى، في ١٤ شباط عام ١٦٦٥، عندما كانت الفرقة في «سان جيرمان آن ـ ليه»، أعلن الملك للسيد دو موليير أمره السامي: من الآن فصاعداً ستصبح الفرقة تحت الإشراف الشخصي للملك، وسيغدو اسمها فرقة الملك في «باليه رويال». وبموجب ذلك سيتم تخصيص راتب للفرقة مقداره ستة آلاف ليرة سنوياً.

كان ابتهاج الفرقة عظيماً جداً، وتوجّب الردّ على عطف الملك كما ينبغي. ولكان موليير ردّ دون إبطاء لولا ظرف واحد: كان يعاني مرضاً شديداً؛ فقد كان جسده كله يرتعش، وظهرت لديه آلام مضنية في بطنه، ذات منشأ عصبي على ما يبدو، لم تكن تغادره على الإطلاق تقريباً. بالإضافة إلى أنه كان يسعل أكثر فأكثر، وكان يبصق دماً أحياناً. بسبب ذلك تمّ استدعاء لجنة أطباء استشارية (كونسِلتو) لمعاينة موليير.

لكن ما إن تحسّنت صحة موليير حتى أظهر خبرةً في حقل الدراماتورغية أضمن لكم أنّ أيّ دراماتورغ آخر في العالم لا يمكنه

Twitter: @ketab_n

إظهارها. كيف يمكن إنجاز شيء كهذا؟ لستُ أفهم: خلال خمسة أيام قام بتأليف، والتدرّب على، وعرض باليه كوميدي من ثلاثة فصول مع افتتاحية. هذه المسرحية، التي عُرضت في ١٥ أيلول في فرساي، والتي اسمها «الحب الشافي، أو الأطباء»، نالت رضا الملك إلى حدّ كبير. ثم نُقلت إلى «باليه رويال»، وأعطت إيرادات مقبولة هناك، وقد حدثت حولها كذلك المشادّة المعتادة لموليير.

هذه المرة أُهينت كلية الطب الفرنسية برمّتها بصورة جدية لأنّ في المسرحية تمّ تشخيص أربعة أطباء، وكلهم كانوا دجّالين أصيلين.

ما الذي دفع موليير إلى التشاجر مع الأطباء؟ شاعت في باريس حكاية رخيصة مفادها أنّ زوجته أرماند قد تشاجرت مع صاحبة الشقة، وهي زوجة طبيب، وأنّ موليير لهذا السبب بصق على الأطباء. قيل إنّ تلك زادت إيجار شقة أرماند، وإنّ موليير، لهذا السبب، قام بطرد زوجة الطبيب من المسرح، وكانت لدى الزوجة بطاقة دعوة مجانية أعطتها لها دوبارك... باختصار، شائعة حمقاء، وليس هذا هو الأمر على الإطلاق.

بتنا نعلم أنّ موليير كان مريضاً طوال الوقت، مريضاً ميؤوساً منه بصورة دائمة، منحدراً بالتدريج إلى سوداوية منهكة. فراح يبحث عن المساعدة ولاذ بالأطباء، لكنه لم يتلقّ منهم أيّ مساعدة. وللأسف، كان محقاً في تهجّماته على الأطباء لأنّ عصر موليير كان أحد أسوأ العصور في تاريخ هذا الفن العظيم، أي الطب. الأطباء الموليريون، في معظم الحالات، كان علاجهم فاشلاً، ويستحيل إحصاء مآثرهم

Twitter: @ketab_n

كلها. فقد قتلوا غاسّيندي بالحجامة، كما سبق أن ذكرنا. ومنذ عهدٍ قريب جداً، في العام الماضي، أرسل أحد الأطباء إلى الآخرة أفضل أصدقاء موليير، لو فاييه، ساقياً إياه، ثلاث مرات، شراباً مُقيّئاً لا يُسمح بإعطائه على الإطلاق في حالة مرض لو فاييه.

قبل ذلك، عندما تسببوا بموت مازارين، الأطباء الأربعة، الذين تمّ استدعاؤهم إلى الكاردينال للمشورة، أصبحوا محلّ سخرية الباريسيين لأنهم وضعوا أربعة تشخيصات مختلفة. قصارى القول، كان عصر موليير عصراً مظلماً في الطب.

أما ما يخصّ العلامات الخارجية المحض، التي تُميّز الأطباء، فيمكن القول إنّ الناس الذين يتجولون في باريس على البغال، ويرتدون سراويل طويلة كالحة اللون، ويطلقون لحاهم، ويتكلمون برطانة مبهمة، هم، ببساطة، يستجدون ارتقاء الخشبة في المسرحية الكوميدية، بطبيعة الحال. وفي «الحب الشافي» شخّصهم موليير جميعاً في شخص أربعة منهم. وقد ابتدع أسماءهم لأجل موليير، الذي راح يضحك على العشاء، بوالو، مستفيداً من اللغة اليونانية. الطبيب الأول كان يُدعى ديفوناندرِس الذي يعني «قاتل البشر»، والثاني بايس الذي يعني «الذي ينبح»، والثالث موكروتون الذي يعني «بطيء الكلام»، وأخيراً، الرابع تومِس الذي يعني «الحجّام».

حدث شغب كبير لأنّ الجمهور تعرّف فيهم مباشرةً أربعة من أطباء البلاط: إلي بيدا سيور دي فوجيريه، جان إسبري، غينو وفالو، بل إنّ الأخير لم يكن يُعدُّ طبيب القصر فحسب بل كان الطبيب الأول للملك.

Twitter: @ketab_n

بعد مرور أربع سنوات على عرض المسرحية تسبّب فالو هذا بموت زوجة شقيق الملك هنرييت، لكن ليس بالحجامة وإنما وصف لها شراب الأفيون الذي ما كان يجب وصفه لها.

جرى «كونسِلتو» الأطباء الأربعة على الخشبة مصحوباً بضحكٍ هائل من قِبل الجمهور، ولا غرابة في أنّ الكراهية تجاه موليير بلغت درجة غير عادية بعد عرض «الحب الشافي».

وقد عدّلت إيراداتها بشكل كبير عوائد مسرح «باليه رويال». صحيح أنّ دوراً ليس أقلّ، في هذا الخصوص، لعبته بعض مسرحيات الكتّاب الآخرين، ومن بين هؤلاء الكتّاب يجب الإشارة إلى عدو موليير السابق دونّو دي فيزيه. الذي تمكّن أخيراً من كتابة مسرحية جيدة، هي «الأم اللعوب». فقد تصالح معه موليير، وأخذ المسرحية لإخراجها، حيث حققت مسرحية دي فيزيه النجاح.

عُقِد رجاء كبير على مسرحية جان راسين «الاسكندر العظيم». تمّ التدرّب على المسرحية، وقدّم «باليه رويال» عرضها الافتتاحي في ٤ كانون الأول عام ١٦٦٥.

لكن حينها أقدم صديق موليير الشاب على تصرّفٍ أثار استغراب موليير كثيراً. فرقة «باليه رويال»، في كانون الأول ذاته، علمت بهلع أنّ «أوتيل بورغون» قد بدأ التدرّب على «الاسكندر العظيم»، وأنّ هذا يحدث بمعرفة راسين. لاغرانج، الذي لعب دور الاسكندر، بات يعلم أنه سيتوجّب عليه منافسة فلوريدور، ومدير «باليه رويال» ببساطة راح يشدّ شعره لأنه بات واضحاً تماماً أنّ إيرادات «الاسكندر» سوف تقلّ في حال عُرضت في الوقت نفسه في «أوتيل بورغون».

Twitter: @ketab_n

عندها طُلب إلى راسين تفسير المبرّرات التي أعطى بموجبها مسرحية قيد العرض لمسرحٍ منافس؛ فادّعى أنّ أداء «الاسكندر» في «باليه رويال» لا يعجبه، وأنّ هذه المسرحية سوف تنتشر بشكل أفضل في «أوتيل بورغون»، حسب رأيه.

حينها تمزّقت الصداقة بين الدراماتورغييَن، كما لو بسكين، ولم يعد موليير يطيق راسين.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٢
العاشق الصفراوي

«اذهب للبحث عن مكانٍ قصيٍّ منعزل في الأرض. . .»

«مبغض البشر»

بعد خيانة راسين مرض موليير من جديد، وصار طبيبه الدائم موفيلين يزوره أكثر، ويبدو أنه لم يكن يفهم عمله بشكل سيء. لكن حتى موفيلين كان صعباً عليه تحديد مرض مدير «باليه رويال» بدقة. الأصح القول إنه كله كان مريضاً. ولا شكّ في أنه، إلى جانب الآلام البدنية، كان يضنيه مرضٌ نفسي كان ينعكس في النوبات العنيفة للمزاج النفسي الكئيب. احتجبت باريس برمّتها بشبكة رمادية مزعجة. أصبح المريض يتغضّن ويرتعش، وغالباً ما كان يجلس في مكتبه مُشعَّث الشعر مثل طائر مريض. في لحظات أخرى كان يستحوذ عليه الغيظ وأحياناً الغضب. وفي لحظات كتلك كان يفقد السيطرة على نفسه، ويغدو لا يُطاق في التعامل مع الأقرباء، وأحياناً كان يحتدم غيظاً بسبب أمرٍ تافه؛ فيضرب خادمه.

كانت معالجة موليير بالغة الصعوبة. كان يطلب الأدوية، وموفيلين

Twitter: @ketab_n

كان يصف له بوفرة كل العقاقير الممكنة، ويُحدِّد إجراءات طبية، لكنّ المريض لم يكن يُطبِّق توصيات الطبيب بدقة. كان المريض موسوساً جداً، ويحاول أن يفهم ما الذي يحدث في داخله، فكان يقيس نبضه بنفسه، ويوحي لنفسه أفكاراً كَدِرة.

في كانون الثاني عام ١٦٦٦ أنزل راسين بموليير ضربةً قاضية؛ فقد أعلنت الأرملة دوبارك أنها ستنتقل إلى «أوتيل بورغون». حين سمع هذا الخبر صرّح موليير بحقد أنْ لا شيء يثير الدهشة في ذلك، وأنه يفهم أنّ العشيق راسين قد أغوى تيريزا ماركيزا.

سواء ساعدته أدوية موفيلين أم أن جسده قد أبلّ من عارض المرض من تلقاء ذاته؛ فقد عاد موليير، في أواخر شباط، إلى العمل في المسرح بشكل منتظم. وخلال أشهر الربيع كتب مسرحية جديدة أسماها «مبغض البشر، أو العاشق الصفراوي». هذه المسرحية كانت عن إنسانٍ شريف مناهض لكذب البشر، ووحيدٍ نتيجةً لذلك بالطبع. كان على طبيب موليير دراسة هذه المسرحية بشكل جيد؛ فقد انعكس فيها، دون شكّ، المزاج النفسي لمريضه. لكن ربما كان الدكتور موفيلين يعرف المسرحية.

رغم أنّ العارفين من الناس كانوا يعتبرون «مبغض البشر» أحد أقوى مؤلّفات موليير لكنه لم يلقَ نجاحاً كبيراً لدى الجمهور؛ فقد مرّ العرض الافتتاحي بفتور. أحد المشاهدين، من معارف راسين، راغباً في إبهاجه، أخبره أنه حضر العرض الافتتاحي، وأنّ «مبغض البشر» قد أخفقت. لا بدّ حقاً من الإشارة إلى ما ردّ به راسين على الشخص الكاره لموليير؛ فقد قال:

Twitter: @ketab_n

ـ هل كنت حاضراً حقاً؟ أما أنا فلم أكن. لكنني لا أصدقك. لا يُعقل أن يكتب موليير مسرحية رديئة. اذهب لمشاهدتها مرة أخرى.

تميّز افتتاح «مبغض البشر» بحادثة سبّبت القلق لموليير. لكننا نعلم أنه يصعب تصوّر مسرحية موليبرية دون ذلك. الباريسيون، كعادتهم، راحوا يبحثون عن الشخصيات التي تُشخّصها هذه المسرحية، وأشاعوا أن بطل المسرحية ألتسيست ليس سوى مُربّي ولي العهد الدوق دي مونتوزيبه. وقد وصلت هذه الشائعة أذني الدوق مباشرة. وهو لم يكن لديه أي تصوّر عن مسرحية موليير لكنه قرّر فوراً أنّ موليير إذا كان قد شخّصه فبصورةٍ مضحكة بالطبع. احتدم الدوق غيظاً وأعلن أنه سيضرب موليير بالعصا حتى الموت عند أول لقاءٍ به. نُقلت تهديدات الدوق إلى موليير من قِبل الأصدقاء الخدومين، وأثارت لدى الشخص، الفاقد مسبقاً لتوازنه النفسي، رعباً لا يُصدَّق.

صار موليير يحرص بشتى السبل على ألاّ يلتقي مونتوزيبه، لكنّ هذا اللقاء المحتوم حصل. فعندما شاهد الملك «مبغض البشر» كان مونتوزيبه أيضاً حاضراً العرض. قرر موليير الابتعاد خلف الكواليس، لكن عند انتهاء العرض جاءوا إليه وأخبروه أنّ الدوق مونتوزيبه يطلب حضوره لكي يتحدث إليه. حينها بلغ هلع موليير مستوىً غير طبيعي، وتوجّب على الرسل المدهوشين أنّ يؤكّدوا له أنّ مونتوزيبه لا ينوي له أيّ شرّ. حينذاك مَثُل موليير، شاحباً ويداه ترتعشان، أمام الدوق. عندها حلّ الاستغراب محلّ الخوف لديه لأنّ مونتوزيبه عانقه وبدأ يشكره بأفضل العبارات، قائلاً إنه يسرّه أن يكون نموذجاً لصورة إنسانٍ فاضل مثل ألتسيست. في أثناء ذلك قال الدوق للدراماتورغ الكثير من

Twitter: @ketab_n

المجاملات، ومنذ ذلك الحين أصبح يعامله بإعجاب غير عادي. الأكثر إثارةً للاهتمام هو أنّ موليير، حين أبدع ألتسيسته، لم يكن الدوق مونتوزييه يخطر على باله على الإطلاق.

لكن رغم نجاحها في البلاط، ورغم المواصفات الجيدة للمسرحية، لكنها لم تعطِ إيرادات جيدة في «باليه رويال»، والممثلون راحوا يحومون حول مديرهم، وبتوسّل يسألونه عملاً جديداً متذرّعين بأنّ حتى مسرحية بيير كورنيل العجوز «أتيللا»، التي كان موليير يعرضها في «باليه رويال»، ليست مضمونة كثيراً لأجل المستقبل.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٣

«الكلافيسين»[١] السحري

حصل الممثلون على العمل الجديد الذي طلبوه، وفي ١٦ آب عام ١٦٦٦ قاموا بتمثيل مسرحية هزلية جديدة لموليير عنوانها «طبيب رغماً عنه». كانت المسرحية الهزلية رائعة، وقد أعجبت الباريسيين كثيراً، وكانت إيراداتها رائعة، إذ بلغت قرابة سبعة آلاف ليرة في الموسم. لكنّ موليير أعلن، وهو يهزّ كتفيه، أنّ هذه المسرحية الهزلية ضعيفة وتافهة، وأنه يجب التفكير ليس بالمسرحيات الهزلية وإنما بالتحضير للأعياد الاحتفالية التي تبدأ في شهر كانون الأول في «سان جيرمان أن ليه». هنا ينبغي الإشارة إلى حدثٍ كبير جرى قبل هذه الاحتفالات بفترة طويلة، وإلى مسرحية «طبيب رغماً عنه» في تلك السنة بالتحديد.

كانت هناك في فرنسا، في ذلك الحين، فرقة للأطفال تحمل اسم فرقة ممثّلي ولي العهد الكوميديين. كانت تقودها السيدة ريزين زوجة عازف الأورغن ريزين. مَثَّلت الفرقة في الريف لفترة من الزمن وبعد ذلك جاءت إلى باريس. يبدو أنّ زوج السيدة ريزين كان يتمتع بمواهب

---

(١) Clavecin (بالفرنسية): وهي آلة وترية ـ مفاتيحية قديمة، هي سلف البيانو.

Twitter: @ketab_n

عظيمة في الاختراع، وقد وظّفها كما يجب حيث اخترع، في نهاية المطاف، «كلافيسيناً» سحرياً كان قادراً على عزف مقطوعات موسيقية مختلفة، حسب اختيار ريزين، دون أن تلمسها يد البشر على الإطلاق. بطبيعة الحال أثارت الآلة السحرية لدى الجمهور انطباعاً مذهلاً، وحين بلغت أخبارها الملك أمر بعرض «الكلافيسين» في القصر. كانت نتيجة هذه التظاهرة مبكية؛ فقد سقطت الملكة مغشياً عليها عند صدور أول أصوات الآلة التي كانت تعزف من تلقاء ذاتها. الملك، الذي من الواضح أنه يصعب فَتْنه بالأعاجيب المريبة، أمر بفتح الآلة، وحينها، على مرأى من المشاهدين الفاغري الأفواه، سحبوا من «الكلافيسين» صبياً متألّماً مُعذَّباً وقذراً بصورة غير عادية، كان يعزف على المفاتيح الداخلية.

كان الصبي يُدعى ميشيل بارون. وكان ابن ممثل «أوتيل بورغون» الكوميدي الراحل أندريه بارون، وكان عضواً في فرقة السيدة ريزين للأطفال.

قدّم المراهقون عدة عروض في «باليه رويال»، حيث تبيّن أنّ اليتيم بارون البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة كان يتميّز بجمال نادر، بالإضافة إلى مواهب في التمثيل لم يُرَ لها، على الأرجح، مثيل من قبل.

أعلن موليير أنّ هذا الصبي سيكون النجم القادم للمسرح الفرنسي. فسحب بارون من عهدة السيدة ريزين وأخذه إلى بيته ليقوم بتربيته. منفصلاً عن زوجته، وغير مرتبطٍ بها سوى بالشقة المشتركة والأعمال المسرحية، المدير المتوحّد والمريض تعلّق بالصبي الموهوب. فاعتنى به كابنه، وحاول تقويم طباعه العنيفة والسليطة، وعلّمه فنّ المسرح حيث حقّق نتائج كبيرة جداً خلال فترة قصيرة.

Twitter: @ketab_n

كُوفِئ موليير على ذلك بأوّل دَين، هو الشائعة الأشنع بين كل الشائعات التي انتشرت عن موليير في أيّ وقتٍ كان. فحين رأى الناس الطيبون مدى رِقّة موليير مع بارون بدأوا يقولون إنّ الممثل الكوميدي لا يحب الصبي محبة أبوية على الإطلاق وإنما يحبه حباً شاذاً، وإنه قد أغوى بارون وأفسده.

كانت مسألة إقامة بارون في منزل موليير صعبة لأنّ أرماند لم تحبّ الولد. وكان يصعب فهم السبب. من المحتمل جداً أنّ دوراً كبيراً في هذا لعبته حقيقة أنّ موليير بدأ يكتب لأجل بارون دوراً خاصاً هو دور ميرتيل في الأنشودة الرعوية الملحمية «ميليسيرت» التي أعدّها موليير لأجل الأعياد الملكية في كانون الأول.

هذه الاحتفالات التي تُدعى «آلهة الباليه» بدأت في سان جيرمان في كانون الأول. الباليه الكبير «ليبريتّو»، الذي كتبه «الليبريتّي» المحترف إسحق دو بينسيراد، حقق نجاحاً كبيراً خاصةً وأنّ الملك ذاته قد رقص فيها مرةً أخرى، وقد راقصته مدموزيل لافاليار. لكن حين حان وقت «ميليسيرت» عُرضت مرة واحدة فقط، وقُطِعت العروض اللاحقة لأرماند وبارون. إذ قبل عرض «ميليسيرت» مباشرةً، مغتاظةً من حقيقة أنها، في «ميليسيرت»، قد تراجعت إلى المرتبة الثانية، حيث حصلت على دور صغير هو دور راعية الغنم إِروكسين، قامت أرماند بصفع بارون على خده.

الولد، المغرور مثل شيطان، هرع إلى موليير وأعلن، بصورة قاطعة، أنه سيترك الفرقة. كاد موليير يبكي وهو يتضرّع إليه أن يبقى لكنّ بارون أصرّ على موقفه، وبالكاد استطاع موليير إقناعه بعدم قطع

Twitter: @ketab_n

العرض الافتتاحي على الأقل، وبلعب دور ميرتيل. وافق بارون على ذلك فلعب الدور مرة واحدة، ثمّ واتته الجرأة للذهاب إلى الملك يشكو أرماند، ويسأله السماح له بترك فرقة موليير. وقد سمح له الملك بذلك، فعاد بارون إلى وضعه الأول، أي أنه ذهب إلى السيدة ريزين.

حزن موليير حزناً لا يوصف. لم يكن هناك من يحلّ محلّ بارون في دور ميرتيل، وتوجّب عليه إيقاف عرض «ميليسيرت»، وخلال فترة قصيرة أطلق موليير أنشودة رعوية فارغة وتافهة بعنوان «كوريدون» فيها غجرٌ يرقصون وسحرة وعفاريت وشخصيات من هذا القبيل. عُرضت «كوريدون» في مهرجان «آلهة الباليه» لكن فقط حقيقة أنّ لُوللي ألّف لأجلها موسيقى رقيقة جداً هي التي أنقذت العمل.

إضافةً إلى «كوريدون» عرض موليير في المهرجان عملاً ثالثاً هو باليه ـ كوميدي من فصل واحد بعنوان «الصِّقلّي، أو حبّ فنّان»، وقد عُرضت في ٥ كانون الثاني عام ١٦٦٧.

بعد احتفالات «سان جيرمان» أصبح موليير طريح الفراش، فقد مرض مرضاً شديداً هذه المرة، حيث حدث له نزيف رئوي. عندها شعر المقرّبون إلى موليير بالقلق الشديد، وأمره الأطباء بمغادرة باريس دون إبطاء. كانت هذه نصيحة جيدة. أخذوا موليير إلى قرية وأصبحوا يعالجونه بشكل صحيح، ساقين إياه حليباً. وقد تمكنوا من جعله يقف على قدميه في شهر حزيران، وبالتالي تمكّن من العودة إلى المسرح والتمثيل في موسم الصيف.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٤

بُعث ومات من جديد

«غريبٌ أنّ كوميديينا لا يستطيعون الاستغناء عن الحكومة على الإطلاق. من دونها لن تُحْبَك لدينا أيّ دراما»

غوغَل «تجوال مسرحي»

كانت سنة ١٦٦٧ سنة هامّة، ولم تكن تشبه قط السنة الباهتة التي سبقتها. الشخصان اللذان أتحرّى حياتيهما، ملك فرنسا ومدير فرقة «باليه رويال»، أعدّا فكرتين في تلك السنة.

كانت فكرة الملك عظيمة، كما ينبغي التوقّع، وتتلخّص في أنّ زوجته ماري تيريز، ابنة الملك الإسباني فيليب الرابع الذي توفي قبل سنتين، لها حقّ وراثي في الأملاك الإسبانية الواقعة في «الأراضي المنخفضة» [هولندة ـ م.] وقد باشر إعداد هذه الفكرة إعداداً دقيقاً.

أما فكرة الممثّل الملكي فكانت أقل أهميةً بالطبع لكنها لم تجتذبه بدرجة أقل من انجذاب الملك إلى فكرة ضمّ أراضٍ جديدة إلى فرنسا. عندما اختفت، بتأثير العلاج، البقع الوردية المريبة من على خدي

Twitter: @ketab_n

موليير، وفقدت عيناه بريق الحمّى السيء، تناول من الخزانة مخطوطة «طرطوف» وبدأ يقوم بتصحيحها. بدايةً استبدل باسم طرطوف اسم بانولف، ثم خلع ملابس الكهنوت عن بانولف وحوّله إلى إنسان دنيوي. بعد ذلك طرح الكثير من اقتباسات الكتاب المقدّس، وبشتى الوسائل خفّف من المواضع الحادّة، وعمل على الخاتمة كما ينبغي.

إنها خاتمة رائعة. فعندما كان المحتال طرطوف، الذي أصبح بانولف، ينتصر ويدمّر الناس الشرفاء، وبدا أن لا نجاة منه على الإطلاق، حضرت النجدة، وجاءت من قِبل الملك بالطبع. ضابط شرطة فاضل، كأنما سقط من السماء، لا يقبض على المجرم في اللحظة المناسبة والأخيرة فحسب بل ويتلو مونولوجاً ملهماً يُرى منه أنه ما دام الملك على قيد الحياة فلن يُقلق الناس الشرفاء شيء، ولن يُفلت أيّ محتال من نظرات الملك النسرية. المجد لضابط الشرطة! والمجد للملك! فلولاهما لما علمت حقاً كيف كان السيد دو موليير سينقذ «طرطوفه». تماماً كما أني لا أعلم كيف ـ في بلادي البعيدة والباردة ـ كان سينقذ ناقد آخر مسرحيته المعروفة جيداً «المفتش»[1] لو لم يطر على جناح السرعة، في اللحظة المناسبة، من سان بطرسبورغ، دركيٌّ على رأسه ذيل حصان.

بعد إنهاء التصحيحات ومراجعتها برضا، بدأ المؤلّف يحوم حول الملك بمكر. وذاك، بدوره، مرتقياً إلى علوٍّ كبير، صار يطوف في الجوّ بسلاسة دون أن يبعد عينيه عن الهولنديين الجاثمين تحت قدميه.

(١) يقصد الكاتب الروسي المعروف نيكولاي غوغَل.

Twitter: @ketab_n

وبينما كان المحامون الإسبان يُبرهنون، بشكل دقيق ومُفصّل، أنّ ماري تيريز، وبالتالي لويس الرابع عشر، لا يمكن لهما إطلاقاً ادّعاء الحقّ في الأملاك الإسبانية، الملك، مقرّراً أنّ الأمر سيطول كثيراً، سحبه من حقل القانون. كل شيء بات جاهزاً لديه. فوزراؤه عقدوا اتفاقية مع البرتغال وإنكلترة ودول أخرى، وفجأةً حلّ صمتٌ شرير في الجو، والذي يعقبه ضجيج هائل عادةً. بدأ الهيجان في باريس: الفرسان المرتدون ملابسَ فاخرة أصبحوا جديين فجأةً، وبدأوا يتجنّبون اللهو، وارتدوا المعاطف العسكرية.

اعتبر مدير فرقة «باليه رويال» أنّ اللحظة ملائمة. فمثُل أمام الملك مبتسماً بإغواء، وأراه المخطوط، وأخبره كيف أنه قام بتصحيح المسرحية. رنا الملك إلى الممثل الكوميدي بتعاطف وقال، وهو يفكّر في شيء آخر ربما، شيئاً ما غير محدّد، من قبيل أنه شخصياً ليس لديه شيء ضد هذه المسرحية... لمعت عينا موليير، واختفى فوراً من أمام عيني الملك.

مباشرةً حلّ محلّ الفارس دو موليير المارشال تورينّ الذي استدعاه الملك، ولم يلحقوا في إسبانيا و«الأراضي المنخفضة» أن يدركوا ما حدث حتى كان الخيّالة الفرنسيون ينقضّون على «الأراضي المنخفضة». لقد بدأت الحرب.

بعيداً عن هدير المدافع كان السيد موليير وممثّلوه، وهم في حالة من الاضطراب العظيم، يجرون بروفات «طرطوف» تحت اسم جديد «الكذّاب».

في ١٥ آب، يوم العرض الافتتاحي الذي لا يُنسى، تدفّق الجمهور

Twitter: @ketab_n

إلى «باليه رويال». بلغت الإيرادات ألفاً وتسعمائة ليرة، وكان النجاح هائلاً. لكن في اليوم التالي حضر ممثل عن برلمان باريس وسلّم السيد موليير أمراً رسمياً من غيليوم دو لاموانون، رئيس البرلمان، بإيقاف عرض «الكذّاب» فوراً.

هرع موليير إلى الدوقة الإسبانية، وهي أخت أحد المقرّبين إلى الرئيس. أجاب ذاك أنه، بكل أسف، لا يمكنه فعل شيء إذ لا يوجد إذن من الملك بعرض «الكذّاب». حينها توجّه موليير إلى الرئيس، مصطحباً معه صديقه المخلص بوالو الذي كان على علاقة جيدة بلاموانون. استقبل الرئيس السيد موليير استقبالاً رائعاً، فلم يُعذّب الكاتب بأيّ ملامات على كفره، ولم يُسمّ مسرحيته بالخطيرة، بل، على العكس، احتفى بعبقرية السيد موليير ناطقاً بكلّ المجاملات الممكنة. كان لاموانون بمنتهى اللباقة لكنه، عند انتهاء الحديث، رفض السماح بعرض «الكذّاب» رفضاً قاطعاً قبل أن يبتّ الملك بهذا الأمر.

لم يناضل موليير بهذا العناد في سبيل أيٍّ من مسرحياته كما فعل مع «طرطوف». فقد استدعى رفيقه المخلص، تلميذه وصديقه لاغرانج، ومعه سيور لا توريلّر، وطلب إليهما ركوب عربة البريد فوراً والطيران إلى فلورنسا، حيث مقرّ قيادة الملك.

لاغرانج ولا توريلّر أخذا معهما ألف ليرة ووضعا في حقيبةٍ التماس موليير المطوّل، الذي يرجو الملك في خاتمة التماسه حمايته، هو موليير، من الحقد المسعور لأمثال «طرطوف» الذين، في ظلّهم، يستحيل حتى التفكير في تأليف مسرحيات كوميدية، بما فيها أكثرها براءةً. في هذا الالتماس أكّد موليير للملك أنه أراد، بمسرحيته هذه،

Twitter: @ketab_n

فقط الترويح عن الملك بعد حملته المجيدة، وأنه أراد شيئاً واحداً فقط ـ جعل الذي ترتعد فرائص أوروبا كلها عند ذكر اسمه يبتسم. . . عانق موليير لاغرانج ولا توريلّر، وفي ٨ آب العربة، التي حملتهما إلى فلورنسا، اختفت في سحابة غبار الطريق.

كلمتا «طرطوف» و«الكذّاب» لم تزولا عن الألسن في باريس، وفي ١١ آب دوّت الأخبار. باريس كلها راحت تقرأ رسالة المطران. كانت الرسالة مؤثّرة جداً وتبدأ على النحو التالي:

«حيث إنّ مخبرنا قد أبلغنا أنه، في الخامس من الشهر الجاري، في أحد مسارح المدينة تمّ عرض مسرحية كوميدية، بعنوان جديد هو «الكذّاب»، هي الأشدّ خطورةً والأكثر ضرراً على الدين لكونها، بدعوى إدانة النفاق والتقوى الكاذبة، تُقدّم مبرّراً لإدانة كل الذين يعثرون على التقوى الحقّ كذلك. . .».

في باريس راحوا يتأوهون، ويقرأون الرسالة. شعر أعداء موليير بالفرح، وهواة المسرح، الذين لم يتسنّ لهم التواجد في المسرح في الخامس من الشهر، شعروا بالأسف. وقال المطران في رسالته، بعد ذلك، إنه ـ إذ يعلم مدى خطورة إهانة التقوى خاصةً في الوقت الذي يُعرّض فيه الملك العظيم حياته للخطر في سبيل البلاد، وفي الوقت الذي يجب فيه تلاوة صلوات ملتهبة لأجل الحفاظ على شخصه المقدّس ولكي يوهَب النصر ـ هو المطران، لا يمنع فحسب عرض هذه المسرحية الكوميدية، سواء علانيةً أم في مجالس خاصة، بل ويمنع قراءتها والاستماع إليها تحت طائلة الحرمان من الكنيسة. وقد أمر المطران رئيسا كنيستي القديسة مريم المجدلية والقديس سيفيرين بمتابعة تنفيذ أمره.

Twitter: @ketab_n

«طُبعت في مطابعنا بباريس عام سبعةٍ وستين وستمائة وألف، في الحادي عشر من آب».

الوزن النوعي لهذه الرسالة كان كبيراً جداً، وكان مفهوماً حتى للسُذَّج من الناس، وفهم الباريسيون أنّ قضية «الكذّاب» خاسرة. لكن موليير حاول محاولةً أخرى بعد للدفاع عن إبداعه العزيز. أحد أصدقائه ـ وربما عدد منهم ـ نشر رسالةً دفاعاً عن «الكذّاب». يُقال إنّ موليير ذاته شارك في كتابتها. لكنّ هذه الرسالة لم تساعد قط. عندها اشمأزّ موليير من باريس. فأوقف العروض في «باليه رويال» إلى حين عودة لاغرانج وتوريلّر، وتوجّه إلى قرية «أوتايل» في ضواحي باريس، وهناك استأجر شقّةً من السيد دي بوفور لقاء أربعمائة ليرة في السنة. قدّم دي بوفور لموليير مطبخاً وغرفة طعام وغرفة نوم وغرفتين في العليّة، وحقّ التنزّه في الحديقة. فضلاً عن أنّ موليير استأجر، بمبلغٍ منفصل مقداره عشرين «إكو»، غرفةً في حال زيارة أحد أصدقائه له في «أوتايل». وقد اتّفق مع أرماند على أن يصطحب معه إسبري ـ مادلين وأن يعهد بها إلى «بنسيون» خاص في «أوتايل». كذلك اشترط أن تأتي الطباخة لافوريه إلى «أوتايل» لكي تطبخ له في الحالات التي يكون فيها هناك ضيوف لدى موليير، ولأجل الخدمات اليومية استأجر الخادمة مارتينا. إلى العلية الأوتايلية جلب معه بلوتارخ وأوفيد وهوراس وقيصر وهيرودوتس، وكذلك بحثاً في الفيزياء كتبه صديقه روو، عليه إهداء المؤلّف إلى موليير.

على هذا النحو اختفى مؤلّف «طرطوف» من باريس.

بالمناسبة، الغرفة المخصّصة للضيوف القادمين لم تفرغ لفترة

Twitter: @ketab_n

طويلة، فقد نزل فيها صديقه المخلص والحقيقي كلود شابيل. وعند قدومه كان يمكث فيها طويلاً محيطاً نفسه بزجاجات النبيذ. بهذا كان يواسي زميل الدراسة، وكان يتنزّه معه في حديقة السيد بوفور المصفرّة. في أيلول، بعد اصفرار أوراق الشجر في تلك الحديقة كلياً، وصل لاغرانج وتوريلّر إلى «أوتايل»، حتى دون أن ينفضا عن نفسيهما غبار الطريق. أخبر الممثلون ـ السعاة المدير، وهم يعانقونه، أنّ الملك بصحة جيدة، وأنّ الحملة مظفّرة، والقلاع والمدن تسقط تحت قدميه. أما فيما يتعلق بـ«طرطوف»؛ فقد تقبّل الملك الالتماس بتعاطف لكنه أمر بتأجيل مسألة عرضها إلى حين عودته من الحرب. خاض الملك حربه ببسالة وانتصر فيها، والسيد دو موليير حارب أيضاً، ببسالة ليست أقل، في سبيل «طرطوفه» لكنه هُزم. لقد بَعث إليعازره لكنه عاش مساء ٥ آب فقط.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٥

أمفيتريون

لم يكن موليير يحب القرى والطبيعة. فممثلنا كان شخصاً مدنياً حقيقياً، كان ابن باريس. لكنّ حياته الزوجية البائسة والعمل المستمر لسنوات عديدة أنهكاه، وبات المنفى الأوتايلي ضرورياً له. فحصر علاقته بباريس، متواجداً في المسرح وفي البلاط فقط، والأيام الخالية من العروض المسرحية كان يمضيها في العليّة الأوتايلية، ناظراً إلى كيفية تغيّر حديقة دو بوفور مع تغيّر أوقات السنة. وقد انتقل شابيل إلى «أوتايل» نهائياً، وإضافةً إليه كان يأتي أصدقاء آخرون بين الحين والآخر: بوالو ولافونتين، اللذان كان ينضم إليهما أحياناً الكونت غييراك، الدبلوماسي والعاشق الكبير لأعمال موليير، والكونت دي جونزاك، صديق شابيل.

كانت المجموعة تأتي إلى «أوتايل» لكي تنتزع موليير من عمله، ولتثرثر عن المواضيع الأدبية، ولتقرأ قصائد رديئة لآخرين، ولتؤلّف أرجوزات هجائية بما فيها في حقّ مطران باريس. كانت الاجتماعات تنتهي عادةً بالعشاء في غرفة شابيل، فقد أحبّ الجميع وجبات العشاء هذه، خاصةً جونزاك.

Twitter: @ketab_n

من أجل إحدى وجبات العشاء اشترى شابيل ـ لسبب ما ـ حصتي نبيذ، وكان موليير يشعر بحال سيئة فرنا إلى المجموعة المرحة للحظة فقط، ورفض احتساء الشراب، وذهب إلى غرفته. أما البقية فقد تناولوا العشاء حتى الثالثة صباحاً، وفي الثالثة صباحاً اتضّح لهم أنّ الحياة تثير القرف. استلم ناصية الحديث عموماً شابيل. كانت قرية «أوتايل» نائمة منذ زمن بعيد، والديكة كانت قد صاحت منذ زمن بعيد.

ـ الكلّ باطل، باطل الأباطيل! ـ قال شابيل بحقد، مشيراً بإصبعه إلى مكان ما.

ـ نحن متفقون معك كلياً، ـ قال رفاق الشرب، ـ أكمل يا شابيل!

عندها سكب شابيل على نفسه كأس النبيذ الأحمر، الأمر الذي فاقم من غضبه، وواصل قائلاً:

ـ لم نعد نرى شيئاً جيداً، ـ وافقه بوالو ناظراً حوله بمرارة.

ـ العلم، الأدب، الفن، كلها أباطيل، أشياء فارغة! ـ صرخ شابيل ـ هذا الكرب والظلم والبؤس الذي يحيط بنا من جميع الجهات. ـ وهنا بكى شابيل.

بعد أن هدأ الأصدقاء المتكدّرون من روعه قليلاً، اختتم كلامه بنداءٍ حارّ:

ـ ماذا علينا أن نفعل أيها الأصدقاء؟ إذا كانت الحياة هاوية مظلمة فيجب الرحيل عنها دون إبطاء! يا أصدقائي، فلنذهب لنغرق أنفسنا، انظروا، هناك، خلف النافذة، نهرٌ يدعونا إليه!

ـ سوف نتبعك، ـ قال الأصدقاء، والمجموعة كلها بدأت تتمنطق بالسيوف وترتدي المعاطف للذهاب إلى النهر.

Twitter: @ketab_n

تصاعد الضجيج. عندها فُتح الباب، وعلى العتبة ظهر موليير، ملتحفاً بمعطفه، معتمراً قلنسوة النوم، وبقية شمعة في يده. رأى غطاء السّفرة وقد سُكب عليه النبيذ الأحمر، والزيت العائم في القناديل. فسأل:

ـ ماذا يحدث لديكم؟

ـ حياتنا لا تُطاق. ـ قال له شابيل باكياً، ـ وداعاً إلى الأبد يا موليير. سنذهب لنغرق أنفسنا.

ـ هذه فكرة جيدة، ـ أجاب موليير بحزن، ـ لكن ليس حسناً من جانبكم أنكم نسيتموني. فأنا صديقكم.

ـ إنه محقّ! كانت هذه خَنْزرة من جانبنا! ـ صرخ جونزاك المختلّ التوازن. ـ فلتذهب معنا يا موليير.

حينها بدأ الأصدقاء يُقبّلون موليير، وصاحوا:

ـ هيا!

ـ وإذاً، إن كان لا بدّ من الذهاب فلنذهب، ـ قال موليير ـ لكن هاكم فيمَ الأمر يا أصدقاء. الغرق ليلاً بعد العشاء ليس أمراً حسناً لأنّ الناس سيقولون إننا قد فعلنا ذلك ونحن سُكارى. لا تُفعَل الأمور هكذا. سوف نضطجع الآن، وننام حتى الصباح، وفي الساعة العاشرة، بعد أن نستحمّ ونتأنّق، سنذهب إلى النهر ورؤوسنا شامخة بفخر حتى يرى الجميع أننا قد أغرقنا أنفسنا كمفكّرين حقيقيين.

ـ هذه فكرة عبقرية! ـ هتف شابيل، وقبّل موليير ثانيةً، مُضجِعاً رأسه بين الكؤوس.

Twitter: @ketab_n

أهدر موليير، بمساعدة مارتينا وخادمين آخرين، قرابة ساعة لكي يُحرّروا الغرقى المستقبليين من السيوف و«الباروكات» والقفاطين، ولإعداد أسرّة للجميع. وبعد أن رُتِّب كل شيء، ذهب إلى غرفته، لكن، بما أنّ نومه قد خُرق فقد جلس يقرأ حتى شروق الشمس.

لكنّ الانتحار الجماعي أُلغي ـ لسببٍ ما ـ في الصباح التالي. لكنْ لا أحد يعلم لماذا ظلّت هذه الحادثة مغفلة.

يُقال إنّ هناك حكاية ممتعة في الأدب الهندي، لكنها ليست لائقة كثيراً، عن كيفية إغواء أحد الآلهة زوجةَ إنسانٍ، بعد أن اتّخذ شكله في غيابه. حين عاد الزوج، ولمعرفة أيهما الزوج الحقيقي، أقامت المحكمة مبارزة جنسية بين كلا المدَّعَين، حيث انتصر الإله بالطبع.

محور العمل الفنّي الشائع عن الإله الذي يتّخذ هيئة إنسان عُولِج من قبل الكاتب اليوناني يوريبيديس والروماني بلوت. وقد انشغل الفرنسيون كذلك بهذه الحبكة، وكتب الدراماتورغ روترو مسرحية بعنوان «القرينان» عُرِضت عام ١٦٣٦. مقتبساً عن أعمال هؤلاء الكتّاب المعدودين، كتب موليير، بأشعار جيدة ذات أوزان أصيلة، مسرحية كوميدية بعنوان «أمفيتريون»، وعرضها، للمرة الأولى، في ١٣ كانون الثاني عام ١٦٦٨. وقد عُرضت تسعٍ وعشرين مرة في ذلك الموسم، وبلغت إيراداتها أعلى الإيرادات. المرتبة الثانية، من حيث عدد العروض، شغلتها مسرحية «الأرملة العصرية» لدي فيزيه الذي حُبِّب إليه المسرح، ومسرحيتا «الصقلّي» لموليير و«أتيللا» للهجّاء كورنيل. لكنها كانت متأخرة كثيراً عن «أمفيتريون» من حيث الإيرادات.

وفق عادته في إهداء المسرحيات إلى ذوي المقامات الرفيعة، أهدى

Twitter: @ketab_n

موليير «أمفيتريون» إلى الأمير الألمع كونديه، مُرفقاً هذا الإهداء بملاحظات طريفة عن أنّ اسم كونديه العظيم، بالطبع، كان الأصحّ وضعه في مقدمة جيش لا في مقدمة كتاب.

كان شهر أيار عام ١٦٦٨ أحد أعظم شهور حُكم لويس الرابع عشر. حيث ضمّ الملك إلى فرنسا جزءاً من «الفلاندر»، وعقد اتفاق سلام في «إيلا ـ شابيل». ومن أجل الاحتفال بالنجاحات العظيمة تمّ تنظيم احتفالات في جنائن فرساي المخرّبة، من جديد. ودراماتورغ البلاط موليير كتب، لأجل هذه الاحتفالات، مسرحية كوميدية ذات ثلاثة فصول نثراً بعنوان «جورج داندِن، أو الزوج المخدوع»، والتي أدّى فيها دور برجوازي ـ إذ يتمنّى قرابة الأرستقراطيين ـ تزوّج بأرستقراطية وصار إنساناً شقياً لأنّ الزوجة كذبت عليه بوقاحة.

عندما أصبحت المسرحية جاهزة، وعلم أصدقاء موليير بمضمونها، حذّروه من أنّ هناك شخصاً في باريس سيتعرّف نفسه، دون شكّ، في شخص جورج داندِن، وأنه سيثير جلبة مرعبة، وسيقوم بأعمال عدائية ما. شكرهم موليير على هذا التحذير وقال إنه سيجد وسيلة ما لمصالحة هذا الشخص مع المسرحية. في ذلك المساء، المدير الواسع الخبرة، حين التقى في العرض البرجوازيَّ الذي قد يتعرّف نفسَه في شخص داندِن، دنا منه وسأله متى لديه وقت فراغ، وقال بتهذيب إنه يرغب في قراءة مسرحيته الجديدة في بيته. البرجوازي المصدوم أعلن أنه متفرّغ في أيّ لحظة، غداً مساءً مثلاً، ومباشرة بعد العرض ذهب يدعو الضيوف إلى منزله.

ـ هل تأتي لزيارتي غداً؟ ـ كان يقول متنقّلاً من أحد أطراف باريس

Twitter: @ketab_n

إلى طرفها الآخر. ـ لنتسامر. أجل، بالمناسبة، ـ كان يضيف بتجهّم ـ سألني موليير السماح له بقراءة مسرحيته الجديدة لديّ.

في اليوم التالي شقّ موليير طريقه بالكاد إلى الطاولة في مضافة البرجوازي لكثرة الناس، وصاحب البيت، منذ تلك القراءة، أصبح معجباً مخلصاً لموليير.

الضليعون من الناس كانوا مهتمين بمسألة المكان الذي استقى منه موليير مادة «جورج داندِن». قال بعضهم إنه أخذها عن بوكاتشيو، وأضاف آخرون أنّ بوكاتشيو قد اقتبس موضوعه عن حكاية شعرية من القرن الثاني عشر.

لكنّ مؤلّف هذه المجموعة الشعرية من القرن الثامن عشر اقتبس حكايته عن الهنود، مستقياً إياها من عملٍ كتب قبل ميلاد المسيح بمائة عام، ـ هكذا قال فريق ثالث.

فريقٌ رابع، الأكثر ثقافةً، أضاف إلى هذا كله أنّ هذا العمل، الذي كُتب بالهندية في البداية، تُرجم إلى الفارسية، ومن الفارسية إلى العربية، ومن العربية إلى العبرية القديمة، ومن العبرية القديمة إلى السريانية، ومن السريانية إلى اليونانية، وأخيراً من اليونانية إلى اللاتينية في القرن الثامن عشر.

لكن إذا كان الأمر قد وصل إلى اللغة السريانية ـ سنقول نحن، كفريق خامس ـ فإنّ مسألة سرقة موليير الأدبية يجب اعتبارها منتهية. يجب افتراض أنّ موليير، ببساطة، قد كتب مسرحية كوميدية جيدة عنوانها «جورج داندِن».

على إثر «داندِن»، خلال فترة وجيزة، تبعتها أخرى، يمكنني القول

Twitter: @ketab_n

إنها مسرحية كوميدية قيّمة جداً، عنوانها «البخيل». للانتهاء من مسألة الانتحال مباشرةً، أقول إنّ موليير قد اقتبسها عن الكاتب الروماني بلوت. أيّ المسرحيتين أفضل؟ مسرحية موليير، باتفاق الجميع، أقوى بكثير. استقبل الجمهور «البخيل» ببرود، ولم تعطِ إيرادات كبيرة. يُقال إنّ سبب ذلك هو أنّ الجمهور في زمن موليير لم يكن قد اعتاد بعد على المؤلَّفات النثرية، وكان يُفضّل المسرحيات المكتوبة شعراً.

بالتالي، يمكن القول إنّ هواء «أوتايل» كان له تأثير جيد على موليير المريض: كان عام ١٦٦٨ عاماً مثمراً.

في الأيام الأخيرة لتلك السنة، بالتحديد في ١١ كانون الأول، رحلت عن الحياة تيريزا ماركيزا دوبارك، مُمجّدةً ذاتها قبل الموت عبر أداء «أندروماك» لراسين في «أوتيل بورغون». غادرت العالم راقصة لامعة، والتي أصبحت في سنّ النضج ممثلة تراجيدية كبيرة. ودو موليير غفر للممثلة الكوميدية الخائنة خياناتها كلها، وتمنّى السلام لرفاتها.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٦
الانبعاث العظيم

مَنْ سينير الدروب الملتوية لحياة التمثيل؟ من يُفسّر لي لماذا المسرحية، التي كان عرضها ممنوعاً في أعوام ١٦٦٤ و١٦٦٧، بات عرضها مسموحاً في عام ١٦٦٩؟

مطلع ذلك العام استدعى الملك موليير وقال له:

ـ أسمح لك بعرض «طرطوف».

أمسك موليير بقلبه لكنه عاد إلى رشده، فانحنى للملك باحترام وخرج. وباشر البروفات فوراً. عُهد بدور طرطوف إلى دو كروازي، بينما لعب موليير دور أورغون، يوبير ـ السيدة بيرنيل، توريلّر ـ كليانت، لاغرانج ـ فالير، السيدة دي بري ـ ماريانا، وأرماند ـ إلميرا. العرض الافتتاحي للمسرحية المُبعَثة، التي أصبح اسمها الآن «طرطوف أو الكذّاب»، أُقيم في ٥ شباط. سيكون من المجحف القول إنّ المسرحية كانت ناجحة، إذ كان عرض «طرطوف» الافتتاحي حدثاً مسرحياً في باريس، وبلغت إيراداته أرقاماً لم يسبق لها مثيل، حيث بلغت ألفين وثمانمائة وستين ليرة.

في يوم العرض الافتتاحي بالذات كتب موليير رسالةً إلى الملك:

Twitter: @ketab_n

«سيور! طبيبٌ نزيه جداً، لي شرف العلاج على يديه، وعدني بإطالة عمري ثلاثين سنة أخرى إذا ما سألتُ سموَّكم مكرمةً لأجله. وقد قلت له ردّاً على ذلك إنني لن أسألكم الكثير، وسأكون راضياً إذا ما مننتم عليّ ولو بعدم قتلي.

هذه المكرمة يا سيدي هي منصب المُشرّع في مُصلّى فينسين العائد لكم، الشاغر في الوقت الحالي. أأجرؤ على سؤال سموّكم هذه المكرمة أيضاً بالتحديد في يوم الانبعاث العظيم لمسرحية «طرطوف» الذي تمّ بفضل إحسانكم؟ فبفضلها تصالحتُ مع المنافقين، وبفضلها سوف أتصالح مع الأطباء.

لا شكّ أنّ هذا الفضل كثير عليّ دفعة واحدة لكنه ربما لا يكون كثيراً بالنسبة إلى سموّكم! سأنتظر ردّكم على سؤالي مع رجائي الموقّر».

يتعلق الحديث بمنصب المشرّع لأجل ابن الدكتور موفيلين.

استدعى الملك موليير، ومرة أخرى، مثلما حدث قبل عدة سنوات، بعد العرض الأول لثلاثة فصول من «طرطوف»، ظلاّ بمفردهما. رنا الملك إلى موليير وفكّر: «لقد شاخ كثيراً!».

ـ وما الذي يفعله هذا الطبيب من أجلنا؟ ـ سأل الملك.

ـ سيور! أجابه موليير. ـ نحن نثرثر عن شتّى المسائل، وبين الحين والآخر يصف لي أدوية بانتظام، ولا أتناولها بذات الانتظام الذي يصفها فيه لي، ودائماً أبلّ من المرض، سموّكم!

ضحك الملك، وابن الطبيب موفيلين حصل فوراً على منصب المُشرّع المطلوب.

Twitter: @ketab_n

عُرضت «طرطوف» خلال الموسم سبعاً وثلاثين مرة، وعندما أُجريت الحسابات مع انتهاء الموسم تبيّن أنّ إيرادات «البخيل» بلغت عشرة آلاف وخمسمائة ليرة، وإيرادات «جورج داندِن» ستة آلاف، و«أمفيتريون» ألفين ومائة وثلاثين ليرة، و«مبغض البشر» ألفين، و«رودوغون» لبيير كورنيل بلغت إيراداتها مبلغاً مثيراً للاستغراب مقداره ثمانٍ وثمانين ليرة، و«طرطوف» خمسة وأربعين ألفاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٧
السيد دي بُوروسنياك

ـ لكن يدهشني عدم الالتزام بالأنظمة القضائية في هذا البلد.

ـ أجل، فقد أخبرتكم أنهم هنا يشنقون الشخص أولاً، وبعد ذلك ينظرون في القضية!

«السيد دي بوروسنياك»، المشهد الثالث

بدأ الناس الذين عاشوا مع بطلي يغادرون العالم الواحد تلو الآخر. فبعد مرور عشرين يوماً على عرض «طرطوف» الافتتاحي توفي والد موليير الهرم جان باتيست بوكلن. آخ، لقد مرّ زمن طويل حين كان الممثل الكوميدي المبتدئ يهرع فيه إلى أبيه سائلاً إياه مبلغاً من المال، مثيراً لديه الهلع. قبل انتهاء حياة الأب كان كل شيء قد تغيّر؛ فالابن المشهور أغاث، أكثر من مرة، بوكلن الشيخ في الظروف الصعبة.

وهكذا؛ فقد رحل الأب، واستمرّ الابن بالعمل. في ربيع عام ١٦٦٩ أمر لويس بتنظيم احتفالات في «شامبور»، ومن أجل هذه الاحتفالات ألّف موليير باليه ـ هزلي بعنوان «السيد دي بوروسنياك».

كان الحديث يجزي عن نبيل من مدينة «ليموج» اسمه بوروسنياك، سخر منه أهل باريس وخدعوه حين وصوله إلى باريس. وقد قال

Twitter: @ketab_n

الباريسيون، ويبدو أنّ هناك أساس لكلامهم، إنّ الشخصية الأصلية، التي كانت سبب تشخيص بوروسنياك على الخشبة، كان متواجداً في باريس في ذلك الحين. أحد الليموجيين، عند قدومه إلى باريس، حضر العرض في «باليه رويال»، وأثناء جلوسه على الخشبة راح يتصرّف بقلة أدب. فلسببٍ ما تشاجر مع الممثلين وشتمهم بأكثر الأشكال فظاظةً، الأمر الذي دفع موليير إلى جعله أضحوكة الجميع. قيل إنّ الضيف الريفي، أثناء مشاهدته «بوروسنياك»، تعرّف ذاته فيه، فانزعج إلى درجة أنه كان يريد رفع دعوى قضائية على موليير لكنه ـ لسبب ما ـ لم يفعل.

قال آخرون إن تصوير شخص ليموجي بصورة مضحكة على الخشبة كان عملاً انتقامياً من طرف موليير لأن أهالي «ليموج»، في وقتٍ من الأوقات، صفّروا له وقذفوه بالتفاح. لكنّ هذا ضعيف الاحتمال، إذ لا يعقل أن ينتقم موليير من أمرٍ حدث قبل عشرين سنة، ناهيكم عن أنه لم يُقذف بالتفاح في «ليموج» وحدها.

كون الليموجيين كانوا موضع سخرية، وليس من قبل موليير فقط بل كذلك من قِبل كتّاب آخرين، هذا صحيح، وسبب ذلك هو أنّ الليموجيين كانوا بالفعل يتميزون بسمات مزعجة ومضحكة وفظّة جداً، والتي، بالطبع، كانت تلفت أنظار الباريسيين الفطنين واللاذعين. هذا هو سبب تصوير موليير الليموجيين مبتدعاً لهم أسماء مضحكة وفظّة.

منذ أن تعرّض موليير، للمرة الأولى، للأطباء في مسرحياته الكوميدية لم يكفّ عن العودة إليهم، واجداً في كلية الطب ذخيرة لا تنفد لأجل السخرية. وفي «بوروسنياك» أدخل مشاهد فيها أطباء

Twitter: @ketab_n

وصيادلة مضحكون. لكن، إلى جانب الأطباء، نال بالسخرية من المحامين كذلك. على هذا النحو يمكننا رؤية أنّ موليير، في وقتٍ من الأوقات، لم يدرس الحقوق عبثاً، وأنه استخدم معرفته للضحك من المتلاعبين بالقضايا.

مسرحية موليير الهزلية ـ وفق جميع الآراء ـ كانت سطحية وفظّة، لكنها مضحكة. وقد لعب موليير ذاته دور بورروسنياك بينما لعب يوبير دوراً نسائياً مضحكاً هو دور لوسيت ـ الغاسكونيّة الملفّقة. وقد عُرضت المسرحية الهزلية، للمرة الأولى، في ٦ تشرين الأول عام ١٦٦٩ في «شامبور» لأجل الملك، ثم نُقلت إلى خشبة «باليه رويال»، حيث حققت نجاحاً رائعاً. وقد بلغت إيراداتها أعلى الإيرادات في الموسم، متفوقةً حتى على «طرطوف»، وتلت «طرطوف»، متأخرةً بشكل كبير، «جورج داندِن» و«الطائش». وكان الموسم الذي عُرضت فيه «بورروسنياك» رائعاً لأنّ من بين ثلاثين مسرحية تمّ عرضها كانت اثنتا عشرة لموليير.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٨

المصري يتحول إلى نبتون
نبتون إلى أبوللو أبوللو إلى لوي

الملك، الذي يعترف فقط بالأمور غير العادية في كل ما يباشر به. . .

هذا الاستهلال، الذي أرجو ألاّ يثير خوف القارئ، ليس لي وإنما لدراماتورغ البلاط موليير، لكن أنا سوف أكمل. وهكذا، متطلّعاً إلى الأمور غير العادية، أمر الملك، في مطلع عام ١٦٧٠، بإقامة أعياد فخمة في «سان جيرمان آن ليه»، وتسميتها «اللهو الملكي».

بموجب ذلك، الفرقة الملكية بقيادة موليير وصلت إلى «سان جيرمان»، في ٣٠ كانون الثاني، لكي تعرض هناك باليه ـ كوميدي من خمسة فصول عنوانها «العشاق الرائعون». راجياً إبهاج الملك بأفضل ما يكون، تفوّق موليير على نفسه في مسرحيته التي اقترح الملك ذاته موضوعها. في المسرحية الكوميدية الفخمة وفي الفواصل المُلحقة لم يكن هناك ضباط وكهنة وأميرات فحسب بل و«نيمفات» و«تريتونات» وجنود يركبون خيولاً خشبية وكذلك تماثيل خشبية راقصة.

Twitter: @ketab_n

موليير ذاته مثّل في «العشاق» دور مهرج البلاط كليتيداس، وفي عروض الباليه شارك الكثير من فرسان البلاط، حيث راحوا يُشخّصون آلهة البحر و«التريتونات»، وهم جالسون على الصخور، وقد أظهر موهبةً كبيرة في ذلك الكونت دو أرمانياك والمركيز دو فيلروا وجينفاني - الأكبر والأصغر - وكثيرون غيرهم. على هدير الأبواق وقرع محارات اللؤلؤ صعد من لجّة البحر الإله نبتون، حيث تعرّف فيه الجميع الملك. بعد ذلك، أثناء العرض الإضافي، بدّل الملك ملابسه، وفي الفاصل الإضافي الأخير، وسط الأنوار البنغالية، ظهر على أنه إله الشمس أبوللو، الذي رقص مصحوباً بهمسات النبلاء المبتهجة.

سار كل شيء بسهولة غير عادية، وفي الأيام التالية بدا أن الجوقة التي تثني على الملك لن تسكت، ثم ستنهال القصائد الجميلة، والنساء سوف يتنهدن وهن يتحدثن عن فتنة الملك في الملابس الإغريقية. لكن جرت حادثة غير متوقعة على الإطلاق أحزنت السيد دو موليير كثيراً. ففي اليوم التالي، بعد العرض الافتتاحي، فجأةً بدأت الهتافات الحماسية لرقص الملك تخفت، وبعد ذلك خمدت نهائياً. في مجلة البلاط، لسببٍ ما، لم يتم ذكر كلمة واحدة عن مشاركة الملك في التمثيل. وبعد عدة أيام، عن أسئلة الناس الساذجين حول مشاعر الملك بعد تمثيله في المسرح، رجال البلاط الأعلى مقاماً كانوا يجيبون بجفاء:

- فخامته لم يشارك في التمثيل.

وقد توضّح الأمرِ بسرعة كبيرة. حيث تبيّن أنه، بعد العرض مباشرةً، وقعت بين يدي الملك مسرحية راسين التراجيدية «بريتانيكوس»

Twitter: @ketab_n

التي كتبها لتوه، والتي تتضمّن ـ بالمناسبة ـ السطور التالية حول الإمبراطور الروماني نيرون:

إنه يُمثّل أمام الرومان

مُبدّداً صوته في المسرح

ويقرأ الأشعار حتى تُحب

بينما الجنود يحرسونه من المُصفّقين! . .

هذا هو مجمل الأمر. لكن ما إن قرأ لويس الرابع عشر هذا الموضع حتى توقّف عن التمثيل مباشرةً.

ـ فلتأخذ الحمّى جان راسين هذا! ـ قال مدير باليه رويال بصوتٍ أبحّ، وهو يسعل ويبصق.

حين انتهت احتفالات «سان جيرمان»، استغرق موليير في مشاغل موسم الصيف الدوري. في نيسان تقاعد من الفرقة الأعرج لويس بيجار، الملقّب بالسليط. لقد عمل الممثل الأعرج القدم مع موليير مدة خمسٍ وعشرين سنة. حيث بدأ صبياً، ورافق موليير على البغال في الحرّ عبر دروب الجنوب، وأدّى أدوار الخدم الشبان المضحكين. وعندما شارف نشاطه على الانتهاء تمجّد بأداءٍ لا مثيل له في دور ـ «الكلب الأعرج»، كما عبّر غارباغون ـ الخادم الداهية لافليش في مسرحية «البخيل». لقد تعب لويس السليط، والفرقة في جلسة احتفالية برئاسة موليير كتبت وثيقة تلزمها بدفع راتب تقاعدي مدى الحياة للويس بيجار مقداره ألف ليرة ما دامت الفرقة قائمة. ولويس بيجار أُحيل على التقاعد.

من أجل استكمال الفرقة دعا موليير اثنين من ممثلي الأقاليم، رجل

Twitter: @ketab_n

وزوجته. جان بيتيل، كنيته بوفال، بدأ سيرته المهنية بمهنة مُطفئ شموع، وبعد ذلك انتقل إلى حرفة التمثيل. زوجته، جانّا دو بوفال، كانت متخصصة في أداء أدوار الملكات في المسرحيات التراجيدية وأدوار الخادمات في المسرحيات الكوميدية. وقد توجّب على موليير بذل الكثير من الجهد لتدريب الزوجين على أسلوبه وتخليصهما من الطرق الريفية على الخشبة.

كان يجب أن يمضي عام ١٦٧٠ برمّته تحت شعار الملاهي والأعياد المستمرة لدى الملك في مختلف أماكن إقامته. لكن سلسلة هذه الملاهي قطعها بعد فترة قصيرة حدث مفجع، فقد ماتت بين يدي الطبيب الفاشل فالو زوجة الأورلياني هنرييت. اكتسى القصر بالحداد. وتلا الواعظ بوسويه على قبر المتوفاة خطبة زاخرة بشتى العبارات الجميلة التي أسالت الدموع من أعين رجال البلاط. وقد توقف الحزن في ذات اليوم الذي يفترضه «الإتيكيت»، ومن جديد بدأت الاحتفالات. وفي غابات «شامبور» نُفخ في الأبواق وخرجت الحاشية إلى الصيد. موليير ولوللي، اللذان اكتسبا المزيد من المجد والقوة في البلاط، تلقيا أمراً بتأليف مسرحية كوميدية مضحكة مع الموسيقى من أجل احتفالات «شامبور»، لكن بشرط لا رجعة عنه، وهو أن يتم تشخيص الأتراك فيها.

فحوى الأمر هو أنّ الملك، في خريف السنة الماضية، استقبل في فرساي السفارة التركية برئاسة شخص اسمه سليمان آغا. وقد نُظِّم الاستقبال بعناية كبيرة. فقد أُجبر الأتراك، أولاً، على الانتظار طويلاً، وثانياً، تمّ استقبالهم في «غاليري» القصر الجديد، المزخرف بأبهة

Twitter: @ketab_n

خارقة. وكان الملك جالساً على العرش مرتدياً حلّة موشّاة بماسات بقيمة أربعة عشر مليون ليرة.

لكن الدبلوماسي المخضرم سليمان آغا أذهل البلاط الفرنسي أكثر بكثير مما راهنوا على إذهاله. فقد كانت تعابير وجه سليمان آغا وكأنما في تركيا كلهم يرتدون بزّات موشّاة بماسات كبيرة بقيمة أربعة عشر مليون ليرة. عموماً الأتراك الماكرون لم يرتبكوا على الإطلاق.

لم يعجب سلوك الوفد التركي الملك، ورجال البلاط، المعتادون على ملاحظة أدنى تغيير في تعابير وجهه، سخروا من الأتراك لعام كامل قدر استطاعتهم. لذا أُمر الموسيقي والدراماتورغ بإدخال مشهدٍ تركي ساخر إلى المسرحية حتماً. وقد ضُمَّ إلى المؤلِّفين، كمستشار، الفارس، الذي تواجد في الشرق من قبل، لوران دارفيو الذي كان عليه تزويدهما بشواهد تتعلق بعادات تركيا وأخلاقياتها. انعزل موليير ولوللي ودارفيو في «أوتايل»، وأعدّوا مخطط المسرحية. يجب القول إنّ موليير عمل بمشاعر ليست واضحة تماماً، بل حتى بمشاعر مثقلة. فقد بدأ يدرك أنّ قسمي الموسيقا والباليه سيكونان القسمين الرئيسين في المسرحية في المستقبل بينما قسمه الدراماتورغي سيتراجع إلى المرتبة الثانية. بدأ يحترس من قوة ونفوذ لوللي عارفاً مدى التأثير الهائل الذي تبديه موسيقا جيوفاني باتيست على الملك.

على هذا النحو تمّ تأليف مسرحية «البرجوازي النبيل». في هذه المسرحية يتم تشخيص برجوازي اسمه جوردِن تولّع بفكرة لذيذة بأن يغدو أرستقراطياً، وأن يدخل العالم الراقي بشكل طبيعي. إلى جانب جوردِن تمّ تصوير مركيز اسمه دورانت، حيث كان بالإمكان القول مسبقاً إنّ كراهية الأرستقراطيين لموليير ستصبح أقوى إلى درجة

Twitter: @ketab_n

لامتناهية، فقد صوّر دورانت هذا في هيئة نذلٍ عديم الشرف كلياً، وعشيقته المركيزة دوريمينا كانت، في أحسن الأحوال، شخصاً مريباً.

وماذا عن الأتراك الموصى عليهم؟ الأتراك كانوا موجودين. فقد اقتيد جوردِن برأسٍ حليق، على أنغام الموسيقا خرج الأتراك، وبينهم المفتي وقد ثُبِتت على قبّعته شموعٌ مشتعلة. كان الأتراك في المراسم يتمايلون بشكل لا بأس به، فقد كانوا إما ينحنون وإما يرفعون رؤوسهم وهم يهتفون لسبب ما: هُو.. هُو.. هُو. وجعلوا جوردِن يركع ووضعوا القرآن على ظهره، وغير ذلك من هذا القبيل. عموماً يجب الإشارة إلى أنّ القسم التركي من مسرحية «البرجوازي النبيل» لا يثير لديّ أيّ بهجة على الإطلاق. غير أني سأدع الآخرين يحكمون ما إن كان هناك أي شيء طريف في هذه القصيدة الثُمانية التي يخاطب بها المفتي جوردِن. في هذه القصيدة الثُمانية مُزجت كلمات برتغالية وإسبانية وإيطالية، حيث وُضعت الأفعال كلها، لسببٍ ما (ربما بهدف الإضحاك)، دون تصريف:

إذا كان عَرَفَ،

أنت أجابَ.

إذا كان لا عرفَ،

صمتَ، صمتَ،

أنا المفتي.

وأنت من كانَ؟

لا فهمَ

صمتَ، صمتَ.

Twitter: @ketab_n

قصارى القول، ما كنت لأشكر الفارس لوران دارفيو على نصائحه، ولا موليير، الذي في كان في منتهى التعب والاضطراب، على تأليف الفاصل الإضافي الذي أفسد المسرحية الكوميدية، ولا البلاط على توصيته. عموماً، أرى أنه سيكون الأفضل لو لم يتوجب على الدراماتورغيين قبول أيّ توصية من أحد!

عُرضت مسرحية «البرجوازي النبيل» في «شامبور»، للمرة الأولى، في ١٤ تشرين الأول عام ١٦٧٠، واستحوذ رعبٌ مظلم على موليير بعد العرض: لم يقل الملك أيّ كلمة حول المسرحية. قائماً بخدمة الملك، كفرّاش، أثناء العشاء الفاخر بعد العرض، كان موليير شبه ميت. وسرعان ما أعطى صمت الملك نتائج باهرة، إذ لم يبقَ شخص لم يشتم مسرحية موليير (ليس في حضور الملك، بالطبع).

ـ بالله عليكم، يا سادة اشرحوا لي ـ هتف أحد رجال البلاط ـ ما معنى هذا الهراء كله، كل هذه الـ«غالابا، باباﻻلا، بالابا»، التي يصرخ بها الأتراك؟ ما هذا؟

ـ إنه لغو ـ قالوا له، ـ موليير كم نضبت قريحته تماماً، وقد حان الوقت لانتزاع المسرح منه.

للأسف! ينبغي الاعتراف بأنّ هذه الـ«بالابا» لا معنى لها بالفعل، ولا ظُرف فيها على الإطلاق.

في ١٦ تشرين الثاني أُقيم عرض ثانٍ، ومرة أخرى حضره الملك. وعند انتهاء المسرحية استدعى الملك موليير إليه.

ـ أريد أن أُحدّثك عن مسرحيتك يا موليير. ـ بدأ الملك الحديث:

«هيا، اقتلني!» ـ قرأ الجميع في عيني موليير.

Twitter: @ketab_n

ـ لم أقل لك شيئاً بعد العرض الافتتاحي لأني لم أكن قادراً بعد على تكوين رأي عنها. ممثلوك يمثلون بشكل جيد جداً. لكني أرى أنك كتبت مسرحية لا مثيل لها، ولم تُسلّني أيٌّ من مسرحياتك كما فعلت هذه.

ما إن أخلى الملك سبيل موليير حتى أحاط به جميع رجال البلاط، وبدأوا يُهيلون المدائح على المسرحية. الملفت للنظر أنّ أكثر من مدحها هو الذي قال في اليوم السابق إنّ قريحة موليير قد نضبت. هاكم أقواله حرفياً:

ـ موليير لايُضاهى! ـ قال هو ـ والله، هناك مقدرة كوميدية غير عادية في كل ما يكتبه. إنه، أيها السادة، أقوى بكثير من الكتّاب القدماء!

الملفت للاهتمام، في هذه الحالة، ليس هذا الشخص المذبذب في أحكامه، وإنما الملك بشكل رئيس. لسبب ما لستُ متأكداً من أنّ مسرحية «البرجوازي النبيل» قد أعجبته، ومن أنه لم يُعطِ رأيه فوراً لأنه لم يفهم المسرحية. يبدو لي أنه أعطى رأياً مُشجّعاً عن المسرحية فقط لأنه علم أنهم قد بدأوا يضطهدون موليير، وأراد إيقاف ذلك فوراً. بالمناسبة، هذا شكّي أنا، ولستُ أفرض رأيي على أحد.

أُعيد عرض المسرحية الكوميدية في «شامبور»، ثم في «سان جيرمان»، وفي أواخر تشرين الثاني بدأ موليير بعرضها في «باليه رويال»، حيث حققت نجاحاً كبيراً، وبلغت إيراداتها أكثر من أربعة وعشرين ألف ليرة في موسم عام ١٦٧٠، محققةً المركز الأول من حيث الإيرادات. ومن هذه الناحية، حلّت في المركز الأخير مسرحية

Twitter: @ketab_n

«طبيب رغماً عنه» التي قدّمت للصندوق حصيلة مضحكة مقدارها مائة وتسعين ليرة.

جلب عام ١٦٧٠، في عداد الأحداث الأخرى، الأحداث التالية: توفيت الأرملة بيجار عن عمر بلغ سبعين سنة، وهي ذاتها التي كانت نسبتها قبل الزواج إرفيه، والدة مادلين، التي ألّفت تلك الوثائق الغريبة. وكانت واحدة من القليلين الذين عرفوا سرّ ولادة أرماند، وقد حملته معها إلى القبر.

كما جرت حادثة موت أخرى اقتلعت من صفوف «أوتيل بورغون» ديزييه العظيمة.

في هذا العام بالتحديد صدرت في الصحف مسرحية نقدية مشهورة، تهجو موليير، عنوانها «إيلومير المُوَسْوَس». كاتب هذا العمل كان لي بولانجيه دي شالوسيه. في «إيلومير» عُولجت وهُتكت مجمل حياة وأعمال موليير. إن كلمة «الموسوس» ذاتها في العنوان تظهر مدى كره الكاتب لموليير، والمحتوى يدلّل على أنّه كان يعرف، بدقة، وقائع كثيرة من حياة موليير. موليير، بالطبع، اطّلع على هذا العمل لكنه لم يردّ على كاتبه بشيء في أيّ موضع كان.

المفرح في هذه السنة تركتُه إلى النهاية متعمّداً: في عيد الفصح مَثُل أمام موليير، بعد أربعة أعوام من التجوال في الأقاليم، البالغ سنّ الرشد والمتألّق جمالاً، ذو السبعة عشر عاماً، بارون. وقد قبله موليير في الفرقة مباشرةً، وعيّن له راتب ممثّل كامل، وأعطاه دور دوميسيان في مسرحية بيير كورنيل «تيت وبيرينيس». وقد حلّت هذه المسرحية في المركز الثاني، بعد «البرجوازي النبيل»، من حيث عدد العروض والإيرادات.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٢٩

إبداع مشترك

تلقّى موليير من الملك أمراً بكتابة مسرحية رائعة مع باليه من أجل مهرجان عام ١٦٧١، الذي كان يجب أن يجري في «تويلري». وقد باشر موليير بتنفيذ الأمر فوراً، وبدأ بكتابة مسرحية «بسيشي». لكن كلما عمل أكثر كلما داهمه الخوف أكثر لأنه رأى أنه لن يلحق في المدة التي حدّدها الملك. كان المرض يقهره أكثر فأكثر، وأحياناً كان يُجبَر على ترك العمل والاستسلام للسوداوية. حينها قرر اللجوء إلى آخرين لمساعدته. كانت علاقته مع بيير كورنيل قد استقامت منذ زمن بعيد، بعد اختصامهما في زمن «مدرسة الزوجات». الآن جمع بين موليير وكورنيل عدم الود المشترك تجاه راسين. كان نجم كورنيل العجوز قد بدأ يخبو، وكان راسين يرتقي أعلى فأعلى. كانت أعمال راسين تُعرَض في «أوتيل بورغون»، وموليير أصبح يعرض أعمال كورنيل لديه، في «باليه رويال».

دعا موليير كورنيل للعمل معاً على «بسيشي»، والشيخ، المحتاج إلى المال، قبل الاقتراح عن طيب خاطر. وقد قسّما العمل على النحو التالي: وضع موليير خطة المسرحية مع الباليه في خمسة فصول، وكتب

Twitter: @ketab_n

المقدمة والفصل الأول والمشهدين الأولين للفصلين الثاني والثالث. والباقي كله كتبه كورنيل، ممضياً قرابة خمسة عشر يوماً في ذلك. الشيخ، ذو الخمسة والستين عاماً، تعامل مع مهمته بصورة رائعة. لكن حتى كلا المعلّمين معاً ما كان لهما أن ينجزا العمل في الوقت المطلوب. لذا تمّت دعوة شخص ثالث، هو الشاعر والدراماتورغ القدير فيليب كينو الذي ألّف كل قصائد أغاني هذه المسرحية.

المقدمة، التي كُتبت من أجل هذا الباليه ـ الكوميدي، مثيرة للاهتمام؛ حيث قيل فيها بحذرٍ بالغ إنّ السيد موليير، في هذا العمل، لم يكن حريصاً على الدقة الدراماتورغية بقدر حرصه على فخامة المسرحية وجمالها. يُقال إنّ هذه المقدمة تعود إلى موليير ذاته.

أُخرجت مسرحية «بسيشي» في «قصر تويلّر» إخراجاً رائعاً، فقد وُضعت تحت تصرّف موليير أفضل آلات المسرح وآلات الطيران. وقد أدى الأدوار الرئيسة فيها: بسيشي ـ أرماند، آمور ـ بارون. وكلاهما أظهرا مستوىً رفيعاً من التمثيل إلى درجة أنهما أذهلا المشاهدين. لكن العرض الأول لمسرحية «بسيشي» في البلاط، في ١٧ كانون الثاني، جلب على موليير جرحاً بليغاً جديداً. في باريس انتشرت شائعة، وتعزّزت بقوة، بأنه لم يبقَ أيّ أثر لنفور أرماند السابق من بارون الوقح الذي كان يوماً ما صبياً، وأنها قد وقعت في حب الممثل الجميل والعظيم، وأصبحت عشيقته. موليير المريض والهرِم لم يردّ على ذلك بأيّ شكلٍ كان، وفي أيّ مكانٍ كان.

ابتداءً من ١٥ آذار بوشر بترميم كبير في «باليه رويال». من جديد أُعيد بناء المقصورات والشرفات كلها، وأُصلح السقف وزُخرِف، وأُعيد

Twitter: @ketab_n

تجهيز الخشبة بحيث أصبح بالإمكان الآن نصب آلات مسرحية معقدة جديدة.

حينها بدأت الفرقة تسأل المدير نقل «بسيشي» إلى خشبة «باليه رويال». وبعد تردّدٍ طويل قُرِّر القيام بذلك، بغضّ النظر عن المشقّات الكبيرة المتعلقة بإعادة صنع ونصب آلات جديدة وديكورات فخمة. لكن في نهاية الأمر تمّت معالجة ذلك كما عُولجت معضلة أخرى: قبل «بسيشي» لم يعزف الموسيقيون ولم يُغنِّ المغنّون أمام الجمهور قط. فقد كانوا يعزفون ويغنّون، مختفين في المقصورات، خلف الشّباك والستائر. لقاء أجرٍ مرتفع أمكن إقناع المُغنّين والموسيقيين بأن يؤدّوا علناً أمام الجمهور على الخشبة. تمّ التدرّب على «بسيشي» قرابة شهرٍ ونصف، وعُرض العرض الافتتاحي لها في ٢٤ تموز. كلّ الجهود والنفقات تبرّرت تماماً. فالعرض، خالباً الألباب بفخامته، اجتذب الجمهور أفواجاً إلى «باليه رويال»، حيث عُرضت المسرحية حوالى خمسين مرة خلال الموسم، وبلغت إيراداتها سبعة وأربعين ألف ليرة.

في الفترة الفاصلة بين عرض «بسيشي» في البلاط وبين عرضها الافتتاحي في «باليه رويال»، مثّلت فرقة موليير، بنجاح متوسط، مسرحيته الهزلية «حِيَل سكابين»(١). وقد اعتُبرت هذه المسرحية الهزلية فظّةً وليست جديرة بريشة موليير. علامَ بُني هذا الرأي؟ لستُ أفهم. ففي رأيي، في «سكابين» تجلّى موليير الكوميدي بشكل رائع، وبعدم إنصاف تامّ لامَ بوالو صديقه، شاكّاً بأنه ينحدر لكي يلائم أذواق

(١) في قاموس المسرح.ترجمها مؤنس الرزّاز «نفايات سكابان»، وربما كان الخطأ خطأ المؤلفين «جون غاسنر» و«إدوارد كون».

Twitter: @ketab_n

الجمهور، وشتم المشهد الذي يوضع فيه شخص في كيس ويُضرب بالعصي، قائلاً إنّ هذا تقليد عديم الذوق. أعتقد أنّ بوالو مخطئ: إنها مسرحية هزلية مضحكة ومحبوكة حبكةً رائعة، ولا تُفسدها خاتمتها اللاواقعية بعض الشيء. ممثّلو «باليه رويال» بقيادة موليير ـ سكابين مثّلوا المسرحية الهزلية بصورة رائعة (لعب بارون ولاغرانج دور العاشقين أوكتاف ولياندر).

«حيل سكابين» كانت سبباً جديداً للاتهام بالهذر. وقيل إنّ موليير قد سرق، مثل نهّابٍ ماهر، واستقى من مسرحية سيرانو دي بيرجيراك «المتحذلق المخدوع» مشهدين من «الرواق التركي» ومشهد من «زيربينيتّا وجيرنيت». ردّاً على هذا الاتّهام قال موليير إنّ هذه المشاهد هي مُلكٌ له بموجب القانون.

فحوى الأمر أنّ موليير قد ساعد بيرجيراك في كتابة «المتحذلق المخدوع».

في هذه السنة لم يرتح موليير. مرة أخرى جاءت توصية جديدة من الملك. ففي «سان جيرمان» كان يجب أن تجري، في نهاية السنة، احتفالات بمناسبة عقد قران شقيق الملك الوحيد. بدأ موليير يعمل بعجلة على مسرحية كوميدية بعنوان «الكونتيسة دي سكاربانيا»، التي أخذ مادتها من ملاحظاته حول الأقاليم. وقد أُعجب البلاط بالمسرحية الكوميدية خاصةً وأنها اشتملت على فواصل وباليه.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٣٠
مشاهد من الحديقة

حديقة في «أوتايل». خريف. أوراق تخشخش تحت الأقدام. شخصان يمشيان في ممشى بين الأشجار. الأكبر سناً يتّكئ على عصا، محدودب الظهر، يرتعش بعصبية ويسعل. للأصغر سناً وجهٌ ورديّ هو وجه إنسان يفهم في النبيذ فقط. يُصفِّر بين حين وآخر ويشرب نفايةً ما:

ـ ميردونذِن، ميردونذِن. . .

يجلسان على مقعد، وفي البداية يتحدثان عن أمورٍ تافهة: الأصغر سنّاً، ذو الستة وأربعين عاماً، يقول إنه، مساء البارحة، انهال على خادمه لكماً لأنّ هذا الخادم نذل.

ـ لكن الخادم لم يكن ثملاً البارحة. ـ قال الأكبر سنّاً وهو يسعل.

ـ هراء! ـ صرخ الأصغر سناً ـ إنه نذل، أقولها ثانيةً!

ـ أوافقك، أوافقك، ـ أجاب الأكبر سنّاً بصوتٍ أبحّ ـ أريد فقط أن أقول إنه نذلٌ صاحٍ.

كانت السماء الخريفية صافية فوق حديقة «أوتايل».

بعد قليل من الوقت ينتعش الحديث أكثر، وعبر نافذة البيت

Twitter: @ketab_n

بالإمكان رؤية الأكبر سناً يقول شيئاً ما بإلحاح للأصغر سناً، وهذا نادراً ما يُعلّق على كلامه.

الأكبر سناً يقول إنه ليس قادراً على نسيانها، وليس قادراً على العيش من دونها. ثم يبدأ بلعن حياته ويُعلن أنه شقي.

آخ، إنه لأمر مرعب أن يغدو المرء نجيَّ أسرار الآخرين، خاصةً الأسرار الزوجية. الأصغر سناً يتململ بقلق ويحاول فهم مشاعره: أجل، إنه يشفق لحال الأكبر سناً، عدا عن أنه يرغب كثيراً في النبيذ. أخيراً يبدأ، بحذر، بإدانة تلك المرأة التي لا يستطيع الأكبر سناً العيش دونها. إنه لا يقول شيئاً بشكل صريح لكنه... يلامس، بعض الشيء، بعض المسائل المستعصية... متملّصاً، يمرّ على «بسيشي» مرور الكرام... احفظني يا رب، فهو لن يجرؤ على قول أي شيء عن أرماند و... بارون. لكن عموماً...

ـ اسمح لي أن أكون صريحاً! ـ يقول أخيراً. ـ فهذه حماقة في نهاية المطاف! لا يجوز لك، في واقع الحال، في سنك العودة إلى زوجتك التي... رغم ذلك، عذراً منك، لا تحبك.

ـ لا تحبني. ـ يُكرّر الأكبر سناً بصوتٍ خافت.

ـ هي شابة، مغناج و... اسمح لي... تافهة.

ـ تكلم، ـ يردّ الأكبر سناً محشرجاً، ـ يمكنك قول كل ما تريد، إني أكرهها.

يُلوّح الأصغر سناً بيديه، مُفكّراً: «آخ، لعنة الله على هذه البلبلة! تارةً يحبها، وتارةً يكرهها!».

ـ أتعلم أني سأموت قريباً؟ ـ يقول الأكبر سناً، ثم يضيف هامساً: ـ فأنت تعلم أيّ مرضٍ مستعصٍ أنا مصاب به.

Twitter: @ketab_n

«آه يا إلهي، لماذا جئت إلى الحديقة؟» ـ يفكّر الأصغر سناً، ويقول جهراً:

ـ ما هذا الهراء! أنا أيضاً لستُ على ما يرام. . .

ـ أنا في الخمسين، لا تنسَ! ـ يقول الأكبر سناً متوعّداً.

ـ يا ربي، البارحة كنت في السابعة والأربعين، ـ ينتعش الأصغر سناً، ـ ويستحيل، في واقع الأمر، أن يزداد عمر الإنسان عامين ما إن تكون حالة روحه سيئة!

ـ أريد الذهاب إليها، ـ يُكرّر الأكبر سناً برتابة، ـ أريد العيش في شارع «توما» ثانيةً!

ـ لأجل كل ما هو مقدّس، أرجوك، غادر الحديقة! الطقس بارد. في نهاية المطاف، لا يهمني. لكن حاول أن تتصالح معها. رغم معرفتي أن شيئاً لن ينتج عن ذلك.

يعود الاثنان إلى المنزل. الأكبر سناً يختفي وراء الباب.

ـ استلقِ في الفراش يا موليير! ـ يصرخ الأصغر سناً في إثره. يقف قرب الباب قليلاً ويفكّر. تُفتح النافذة، ويظهر منها رأس الأكبر سناً دون «باروكة» ومعتمراً قلنسوة.

ـ شابيل، أين أنت؟ ـ يسأل الشخص الذي في النافذة.

ـ ماذا؟ ـ يجيب الأصغر سناً.

ـ ورغم ذلك، ما رأيك، ـ يسأل الشخص الذي في النافذة، ـ أأعود إليها؟

ـ أغلق النافذة! ـ يقول الأصغر سناً، وهو يشدّ على قبضتيه.

Twitter: @ketab_n

تُغلق النافذة، الأصغر سناً يبصق ويختفي خلف زاوية المنزل. بعد قليل يُسمع صوته منادياً على الخادم:

ـ هيه، يا صاحي! إليّ!

في اليوم التالي كانت الشمس تشتعل بقوة أكبر، ليست كشمسٍ خريفية. الأكبر سناً يسير في الممشى بين الأشجار لكنه لا يجرّ قدميه، ولا يخرق أوراق الشجر العطنة بعكازه. بجواره يمشي شخص أصغر سناً، لكنه شخص آخر، فهذا أصغر بكثير. له أنف حادّ طويل، وذقن مربعة الشكل، وعينان ساخرتان.

ـ موليير، ـ يقول الأصغر سناً، ـ عليك أن تترك الخشبة. صدّقني، ليس حسناً أن يكون مؤلِّف «مبغض البشر». . . مبغضاً للبشر! أوه، هذا مُعبِّر! برافو، إنه لا يريد التفكير في أنه، بوجهٍ مصبوغ، لتسلية الجمهور، يضع أحدهم في كيس! لا يليق بك أن تكون ممثِّلاً. ليس مقبولاً أن تمثّل، صدّقني.

ـ عزيزي بوالو، ـ يردّ الأكبر سناً، ـ لن أهجر الخشبة.

ـ يجب أن تكون سعيداً من أنهم يُقدِّمون أعمالك!

ـ إنها لا تُقدِّم لي شيئاً، ـ يردّ الأكبر سناً، ـ لم يتسنَّ لي قط في حياتي كتابة شيء حقّق لي أدنى قدر من السعادة!

ـ يا للتصابي! ـ يصرخ الأصغر سناً. ـ أرجو أن تعلم، يا سيد، أنني، عندما سألني الملك عمّن أعتبره الكاتب الأول في المملكة، قلت إنه أنت، موليير!

الأكبر سناً يضحك، ثم يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ أشكرك من قلبي، أنت صديق حقيقي يا ديبريو، أعدك بأني، إذا ما سألني الملك من هو الشاعر الأول، سأقول له إنه أنت!

ـ أنا أتحدث جادّاً! ـ يصرخ الأصغر سناً، فيدوّي صوته في حديقة السيد دو بوفور الخالية والرائعة.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٣١

مادلين ترحل

عندما حلّ شتاء عام ١٦٧١، تصالح موليير مع زوجته، وصادقها من جديد. فقد غادر «أوتايل»، وعاد إلى باريس. في هذه الأثناء أنهى العمل على مسرحية «نساء عالمات»، التي لم يكتبها بناءً على توصية، وإنما كتبها لنفسه. وقد عمل عليها بشكل متقطّع، فتارةً يعود إليها، وتارةً يتركها.

في الوقت الذي كان يكتب فيه «نساء عالمات»، في البيت الذي كان يعيش فيه مع أرماند، في غرفة صغيرة في الطابق العلوي، كانت مادلين بيجار تعاني مرضاً شديداً. وكان سبق لها أن تركت المسرح، بعد أن لعبت دورها الأخير نيرين في «السيد بوروسنياك»، ناطقةً كلماتها الأخيرة على الخشبة.

ـ كيف نسيتَ هؤلاء الأطفال المساكين؟ ابنتنا مادلين الصغيرة التي تركتها لي عربون إخلاصك؟ تعالي يا مادلين، يا طفلتي! أَخجِلي أباك على انعدام ضميره! لا، لن تفلت من بين يديّ! سوف أُري الجميع أنني زوجتك، وسأُحصّل على أن يشنقوك!

مادلين لم تغادر المسرح فقط، فقد نبذت العالم برمّته، وأصبحت

Twitter: @ketab_n

متدينة بصورة غير عادية، وبدأت تصلّي باستمرار، نادبةً خطاياها، وكانت تُكلّم القس فقط أو كاتب العقود. وفي كانون الثاني عام ١٦٧٢ ساءت حالها تماماً. ورقدت في الفراش، حيث عُلّق صليب فوق موضع الرأس، دون حراك تماماً.

في ٩ كانون الثاني أَملت وصيتها التي، بموجبها، منحت أرماند كل الثروة التي جمعتها خلال حياتها، وخصصت لجينوفييف ولويس راتباً صغيراً. كما أخذت كل الأمور الأخرى بالحسبان، فقد حجزت لنفسها مسبقاً قدّاساً جنائزياً، وأمرت بإعطاء ٥ «سو» يومياً لخمسة فقراء على شرف ندوب ربنا الخمس. مُعدّةً نفسها، على هذا النحو، للموت، استدعت أرماند وموليير وحلّفتهما بذاك الرب ذاته بأن يعيشا في وئام.

في ٩ شباط عام ١٦٧٢ تلقّت الفرقة من الملك أمراً بالسفر سريعاً إلى «سان جيرمان». في منتصف شباط، الرسول، القادم إلى «سان جيرمان»، أعلم موليير بأنّ حالة مادلين سيئة جداً. فانطلق مسرعاً إلى باريس ولحق أن يغمض عينيّ صديقته الأولى، وأن يدفنها. وقد سمح مطران باريس بدفن مادلين كما ينبغي، حسب الطقوس المسيحية، بناءً على أنها تركت مهنة التمثيل، وأنها عُرفت كامرأة ورعة. وقد دُفنت مادلين دفناً مهيباً، بعد القدّاس في كنيسة «سان جيرمان دي لاكسروا»، في «مقبرة القديس بولس»، بجوار أخيها جوزيف ووالدتها ماري إرفيه.

توفيت مادلين في ١٧ شباط عام ١٦٧٢، وبعد شهر تقريباً، في «باليه رويال»، عُرض العرض الافتتاحي لـ«نساء عالمات». الأعلى ثقافةً بين الباريسيين رفعوا هذه المسرحية عالياً جداً، إلى مستوى أقوى أعمال موليير. آخرون انتقدوا موليير بحدّة قائلين إنه يحطّ من قدر النساء في عمله، حيث يبدو أنه يشير إلى أنّ تعليمها يجب ألاّ يتعدى المطبخ.

Twitter: @ketab_n

في المسرحية تتمّ السخرية من شخصين على قيد الحياة: عدو بوالو، مؤلّف «أهجوة الأهاجي»، الدكتور في اللاهوت فرانسوا كوتِن، والآخر هو صديقنا القديم جيل ميناج. الأول شُخِّص باسم تريسّوتان، والثاني باسم فاديوس.

في الوقت الذي كان فيه الممثلون يُمثّلون «نساء عالمات» في «باليه رويال»، بنجاح متوسط، خيّمت سحابة على البلاد فجأةً، وفي ٧ نيسان نشبت الحرب مع «الأراضي المنخفضة». مرة أخرى، كما حدث في زمن «طرطوف»، انطلق الجيش الفرنسي إلى الشرق، والمدينة تلو المدينة بدأت تسقط تحت قدمي لويس الرابع عشر. بعيداً عن مخاطر الحرب، جان باتيست موليرنا كان منشغلاً بشؤونه الشخصية. فقد أصبح الآن شخصاً غنياً، جمع ثروة لا بأس بها خلال فترة عمله في المسرح. فضلاً عن أنّ تركة مادلين زادته ثراءً. فاستأجر شقة كبيرة في شارع ريشيليو، وأثثها أثاثاً فاخراً غير باخلٍ بالمال. الطابق السفلي للشقة ذات الطابقين خُصِّص لأرماند، واستقرّ موليير في الطابق العلوي. حين بات كل شيء جاهزاً، وأصبحت الأشياء في أماكنها في المسكن الجديد، تيقّن دو موليير من أنّ ضجر «أوتايل» قد تبعه إلى باريس كذلك. فقد انتقلت الهواجس والهموم معه إلى غرفته العلوية.

لم يسر عام ١٦٧٢ بشكل جيد. أصبح نفوذ لوللي في البلاط مرعباً، وحصل على امتياز كل الأعمال الدراماتورغية التي كتب لها الموسيقا. كان معنى ذلك أنّ لوللي قد أُعطي حقوق تأليف الكثير جداً من أعمال موليير لأنّ لوللي قد كتب لها بالتحديد الموسيقا.

حينها سرت القشعريرة في ظهر موليير، وشعر تماماً بأنّ القامة

Twitter: @ketab_n

الهائلة التي كانت تُظاهره قد هجرته فجأةً. لا حاجة لأنْ يكذب على نفسه؛ فقد قلاه الملك. بمَ يمكن تفسير ذلك؟ بأنّ كل شيء في الدنيا له نهاية، بما في ذلك تعلّق أقوياء العالم الطويل الأمد. من يفهم ما الذي يحدث في أنفس أهل السلطان؟ الموسيقي المتوسط المستوى لوللي، الخلوّ من أفكار خاصة عميقة، الخاضع كلياً لإرادة الملك، استحوذ الآن على عطف لويس.

مرّ الصيف كئيباً. الزوج والزوجة تقاربا ثانيةً، وكانا ينتظران طفلاً، لكنّ علاقتهما الداخلية لم تستوِ قط، ولم يعد هناك شكّ الآن بأنها لن تستوي أبداً. في ١٥ أيلول أنجبت أرماند صبياً. فعُمِّد في عُجالة، وأُطلق عليه اسم بيير جان باتيست أرمان، لكن الطفل عاش أقل من شهر. في الشتاء أغلق موليير على نفسه في الأعلى، وراح يكتب مسرحية كوميدية مضحكة بعنوان «المريض بالوهم». ولكي يستقلّ عن لوللي، كلّف موسيقياً آخر بكتابة الموسيقا لها هو شاربانتيه.

في «المريض بالوهم» يسخر موليير من الهلع اللامعقول لدى الناس: سخر من الخوف من الموت والوسواس المثير للشفقة. يبدو أنّ كرهه للأطباء قد بلغ أعلى الدرجات لأنه صوّرهم في المسرحية الكوميدية مسوخاً حقيقيين ـ جهلة، متبطلين، جشعين، متخلفين. المقدمة، التي كتبها موليير، تظهر أنه قام بمحاولة لاستعادة عطف الملك:

«بعد الجهود المضنية والمظفّرة والمجيدة لملكنا الأعظم سيكون من الإنصاف أن يعمل كل من يتمتع بموهبة الكتابة على تمجيد اسمه أو الترفيه عنه. هذا بالذات ما أريد القيام به، وهذه المقدمة عبارة عن محاولة لتمجيد المنتصر العظيم، والمسرحية الكوميدية التي تلي المقدمة عليها أن تُسلّي الملك بعد جهوده النبيلة».

Twitter: @ketab_n

المشهد الافتتاحي كان يجب أن يؤدّيه الآلهة الميثيولوجيون: فلورا وبان والفونات. وكان على الجوقة الختامية أن تُنشد:

فليُرجع الصدى ألف مرة:

لويس هو الأعظم بين الملوك!

سعيدٌ من يكرّس حياته لأجله!

لكن حدث أمر غريب، ولم تُقدَّم هذه الافتتاحية. قيل إنّ السعادة الحربية، أثناء تأليف الافتتاحية بالذات، قد خانت الملك، وتوجّب على موليير حذفها، وقيل كذلك إنّ الملك قد كفّ عن الاهتمام بإبداع ممثله الكوميدي. وبدقة، المسرحية لم تُعرَض في البلاط، وإنما في «باليه رويال»، حيث ظهرت افتتاحية جديدة، مختلفة كلياً عن سابقتها. فقد خرجت راعية واحدة فقط وأنشدت الافتتاحية الجديدة التي اشتملت على الكلمات التالية:

لا أريد أن يكون لي شأن معكم

أيها الأطباء الجهلة الفارغون!

تُرى هل يمكن شفاء مرضي العُضال

بالكلمات اللاتينية؟

في يوم الجمعة، ١٠ شباط عام ١٦٧٣، جرى العرض الأول لمسرحية «المريض بالوهم»، حيث حققت نجاحاً كبيراً. الأمر ذاته حدث في العرضين الثاني والثالث. العرض الرابع قُرِّر أن يكون في ١٧ شباط.

Twitter: @ketab_n

الفصل ٣٢

الجمعة الرديئة

أرغان: وهل هذا خطِر: أن يكون المرء ميتاً؟

توانيتّا: لا، لا. أي خطر في هذا؟ تمدد هنا بسرعة!

«المريض بالوهم».

كان يوماً شباطياً رمادياً. في الطابق الثاني للمنزل، الواقع في شارع ريشيليو، في المكتب على السجادة المغسولة كان يمشي، وهو يسعل ويئنّ، شخص يرتدي رداءً زمرّديّ اللون فوق ملابسه الداخلية. رأس الشخص كانت مربوطة على طريقة النساء بوشاح حريريٍّ للنوم. في الموقد كان الحطب يشتعل بمرحٍ شديد، وكان النظر إلى النار مريحاً، بعيداً عن عتمة شباط الكَدِرة خلفَ النوافذ.

كان الشخص يذرع المكتب، متوقفاً بين الحين والآخر لينظر إلى الصورة المعلَّقة قرب الحائط. في هذه الصورة رُسِم وجهٌ يشبه وجه صقر صيد محارب، بباروكة لها شعر كثّ ذو حلقات كبيرة، منسدل على كتفين رجوليتين، شخصٌ له عينان منتفختان صارمتان وذكيتان.

Twitter: @ketab_n

أسفل صورة الشخص، في طرفها، توضّع شعار مَخيط مع ثلاث وردات.

الشخص المرتدي رداءً كان يُكلّم نفسه بصوتٍ خافت، مبتسماً بألم من أفكاره بين الفينة والأخرى. حين دنا من الصورة شعر بالراحة، وغطى عينيه بباطن يده، ضيّق عينيه ونظر إلى الصورة بحبّ.

ـ صورة جيدة ـ متأمّلاً قال الشخص ذو الرداء، ـ لا بدّ من القول إنها صورة جيدة جداً. كونديه العظيم! ـ قال بتأثّر، ثم كرّر لاشعورياً عدة مرات: ـ كونديه العظيم... كونديه العظيم... وهمهم ثانيةً: ـ الصورة... الصورة... أنا سعيد لأني حصلت على هذه الصورة!

ثم عبر الغرفة وجلس في مقعد قرب الموقد لبعض الوقت، حرَّر قدميه العاريتين من خفّي الليل، ومدّهما نحو النار المنعشة.

ـ يجب أن أحلق ذقني، ـ قال بشرود وهم يمرّر يده على خده الخشنة. ـ لا، لا حاجة لذلك. ـ أجاب نفسه بنفسه، ـ الحلاقة اليومية متعبة جداً.

بعد أن أدفأ قدميه انتعل خُفّيه وتوجّه نحو خزانة الكتب وتوقّف قرب الرفّ الذي توضّعت عليه المخطوطات. كان طرف إحدى الأوراق يتدلّى من فوق الرفّ. انتزع الشخص المخطوط من طرفه وقرأ عنوانه ـ «كوريدون». ضاحكاً بحنق، أراد أن يُمزّق المخطوط لكنّ يديه خانتاه، فقد كسر إظفره فوضع المخطوط، مرفقاً إياه باللعنات، بين قطع الحطب في الموقد. غمر الضوء الغرفة لبضع دقائق، وبعد ذلك تفتت «كوريدون» إلى قطع سوداء سميكة.

Twitter: @ketab_n

أثناء انشغال الشخص ذو الرداء بإحراق «كوريدون» في الأعلى، في الغرف السفلية كان يجري حديث بين أرماند وبارون الذي جاء يزور موليير.

ـ لم يذهب إلى الكنيسة، يقول إنه متوعّك. ـ قالت أرماند.

ـ لماذا إلى الكنيسة؟ ـ سأل بارون.

ـ لأن اليوم هو السابع عشر من الشهر، الذكرى السنوية لوفاة مادلين، ـ أوضحت أرماند، ـ لقد سمعتُ القدّاس.

ـ آخ، أجل، أجل، ـ قال بارون بتهذيب. ـ هل يسعل؟

رنت أرماند إلى محادثها. كانت جديلتا باروكته الشقراء تنسدلان على كتفيه. كان بارون يرتدي قفطاناً حريرياً جديداً، وعلى ركبتي بنطاله دنتيلات غالية الثمن على شكل قلانيس، وسيفه يتدلى من حزام عريض، وعلى صدره «مُوفة»[1] موبّرة. وكان بارون قلّما يلمس «الموفة» لأنها كانت تعجبه كثيراً.

ـ يا لأناقتك اليوم! ـ قالت أرماند وأضافت: ـ إنه يسعل، وطوال الصباح كان يصرخ على الخدم. لاحظت أنّ الجمعة هو أسوأ الأيام. بالمناسبة، لقد عايشت الكثير جداً من أيام الجمعة خلال أحد عشر عاماً. لكن اصعد إليه في الأعلى، لا تجلس عندي، وإلا فالله أعلم ما الذي قد يشيعه الخدم في باريس ثانيةً.

وتوجّه أرماند وبارون إلى الدرج الداخلي. لكن لم يكادا يصعدان الدرج حتى قُرع الجرس بإلحاح من وراء الأبواب في الأعلى.

---

(١) موفة (بالفرنسية): فروة لتدفئة اليدين.

Twitter: @ketab_n

ـ ها هو ثانيةً: «ترلن»، «ترلن»، ـ قالت أرماند.

حينها انفتح الباب في الأعلى، وخرج الشخص ذو الرداء إلى ساحة الدرج العلوي.

ـ هيه، من هناك؟ ـ سأل بتذمّر. ـ لماذا يأخذ الشيطان دائماً. . . آخ، هذا أنت؟ مرحباً بارون.

ـ مرحباً يا معلّم، ـ أجاب بارون ناظراً إلى الأعلى.

ـ نعم، نعم، نعم، نهارك سعيد، ـ قال الشخص ذو الرداء، ـ لديّ رغبة في التحدّث. . .

حينها وضع مرفقه على الدرابزين، مسنداً خديه إلى كفّيه، فبات شبيهاً بقرد مضحك يعتمر قلنسوة، وينظر من خلال نافذة. أرماند وبارون فهما، مندهشين، أنه يريد التحدث هنا، على الدرج، فبقيا في الأسفل. صمت الشخص ثم قال ما يلي:

ـ هاكم ما أريد قوله: لو أنّ حياتي. . . لو تعاقب الشقاء والسعادة بتساوٍ في حياتي لاعتبرت نفسي شخصاً سعيداً حقاً، يا سادة!

أرماند، متجهّمةً بتوتر، نظرت إلى الأعلى، ولم تعد لديها رغبة في الصعود. «الجمعة، الجمعة. . . ـ فكّرت ـ مرة أخرى بدأت هذه السوداوية!».

ـ أنتما فكّرا! ـ تابع الشخص بحماس. ـ إذا لم تكن هناك لحظة سعادة أو بهجة واحدة، فماذا حينها؟ وإني أرى جيداً أنّ عليّ الخروج من اللعبة! أؤكد لكما يا عزيزيّ، ـ أضاف الشخص بصفاء نية، ـ لم أعد قادراً على مصارعة المكاره. ألا يحقّ لي أن أرتاح، ها؟ ـ سأل. ـ وعموماً أعتقد أني سأموت قريباً. ماذا تقول عن هذا يا بارون؟ ـ وعندها وضع الشخص رأسه على الدرابزين مباشرةً.

Twitter: @ketab_n

حلّ الصمت على الدرج. شعر بارون أنّ كلمات الشخص لا تعجبه إلى أقصى حد. عبس، وألقى نظرة سريعة على أرماند، ثم قال:

ـ أعتقد «ميتر» أنّ عليك عدم التمثيل اليوم.

ـ أجل، ـ أكّدت أرماند، ـ لا تُمثّل اليوم، فأنت لست على ما يرام.

سُمع تململٌ في الأعلى.

ـ ما هذا الذي تقولانه؟ كيف يمكن إلغاء العرض؟ لا أتمنى على الإطلاق أن يلعنني العمال لأني حرمتهم من راتبهم هذا المساء.

ـ لكنك لست على ما يرام. ـ قالت أرماند بصوتٍ مزعج.

ـ أشعر بأني في حالة رائعة، ـ قال الشخص معانداً، ـ لكن يعنيني شيء آخر: لماذا تتجول راهبات في شقتنا؟

ـ لا تعرهنّ بالاً، إنهنّ من دير «القديسة كلارا». جئن يطلبن الصدقات في باريس. فليمكثن إلى الغد، فهنّ لن يزعجنك على الإطلاق، سوف يمكثن في الأسفل.

ـ القديسة كلارا!؟ ـ لسبب ما تعجّب الشخص ذو الرداء، ما هي القديسة كلارا؟ مادامت القديسة كلارا فليجلسن في المطبخ! إذ يبدو أنّ هناك مائة راهبة في البيت... وأعطهنّ خمس ليرات.

ثم عاد الشخص بسرعة إلى غرفته فجأةً وأغلق الباب وراءه.

ـ أقول لك إنه يوم الجمعة، ـ قالت أرماند، ـ وليس بالإمكان فعل شيء بهذا الصدد.

ـ سأصعد إليه، ـ قال بارون بتردد.

ـ لا أنصحك، ـ قالت أرماند، ـ فلنتناول الغداء.

* * *

Twitter: @ketab_n

في المساء، على خشبة باليه رويال، راح أطباء مضحكون بطراطيرهم السود وصيادلة بحقناتهم يطوّبون طالب البكالوريوس أرغان طبيباً:

إذا كان المريض يتنفس بالكاد

ويعجز عن الكلام؟...

أجاب طالب البكالوريوس موليير صائحاً بمرح:

الطبيب الذكي يصف فوراً

فَصْدَ دم المسكين!

أقسم طالب البكالوريوس مرتين بالإخلاص لكلية الطب، وحين طلب إليه الرئيس أن يقسم مرة ثالثة لم يجب طالب البكالوريوس بشيء، وبدأ يئنّ فجأةً، وانهار على المقعد. الممثلون على الخشبة جفلوا وشعروا بالارتباك: لم يكونوا يتوقعون هذا الملعوب، وبدا الأنين حقيقياً. لكن عندها قام طالب البكالوريوس واقفاً، وانفجر ضاحكاً، وصاح باللاتينية:

ـ أقسم!

في الصالة لم يلاحظوا شيئاً، وفقط بعض الممثلين رأوا أن وجه 'لب البكالوريوس قد تغيّر لونه، وعلى جبينه تصبّب العرق. حينئذٍ دَ ن الجراحون والصيادلة يرقصون باليه المغادرة، وانتهى العرض.

ـ ماذا جرى لك، «ميتر»؟ ـ سأل لاغرانج، الذي أدّى دور كليانت، موليير بقلق.

ـ أمر تافه! ـ أجاب ذاك ـ شعرتُ بوخزة في صدري فحسب، وقد مرّت الآن.

Twitter: @ketab_n

عندها توجّه لاغرانج إلى الصندوق ليحسب الإيرادات، وليقوم ببعض الأعمال في المسرح، وبارون، الذي لم يكن مشاركاً في العرض، جاء إلى موليير بينما كان يبدّل ملابسه.

ـ هل شعرت بحالٍ سيئة؟ ـ سأل بارون.

ـ كيف استقبل الجمهور المسرحية؟ ـ أجاب موليير.

ـ بشكل عظيم. لكن مظهرك فظيع يا معلّم.

ـ مظهري رائع، ـ ردّ موليير، ـ لكنني، لسببٍ ما، أشعر بالبرد فجأةً. ـ وعندها بدأت أسنانه تصطك.

نظر بارون إلى موليير متفحّصاً، فشحب لونه وارتبك. فتح باب غرفة تبديل الملابس، وصرخ:

ـ هيه، مَنْ هناك؟ قولوا، اجلبوا لي كرسيَّ النقّال بسرعة!

خلع «موفته» وطلب إلى موليير أن يدسّ يديه فيها. ذاك، لسببٍ ما، هدأ وأذعن بصمت، واصطكت أسنانه من جديد. خلال دقيقة دثّروا موليير، وحمله الحمّالون، ووضعوه في الكرسي النقّال، وأخذوه إلى البيت.

كان البيت لا يزال معتماً لأنّ أرماند كانت قد عادت من العرض لتوّها، حيث لعبت دور أنجيليكا.

همس بارون لأرماند بأنّ موليير ليس على ما يرام. في البيت هرعوا مع الشموع وأصعدوا موليير على الدرج الخشبي إلى الأعلى. راحت أرماند تعطي أوامر ما في الأسفل، وأرسلت أحد الخدم للبحث عن طبيب.

Twitter: @ketab_n

في هذه الأثناء خلع بارون مع خادمة ملابس موليير عنه، وأرقداه في الفراش. مع كل لحظة كان جزع بارون يزداد.

ـ هل تريد شيئاً يا معلّم؟ ربما يجب إعطاؤك حساءً؟

عندها كشّر موليير، وقال مبتسماً، لسببٍ ما، بحقد:

ـ حساء؟ كلا، فأنا أعرف مِمَّ تصنع زوجتي الحساء، إنه أثقل من الحمض بالنسبة إليّ.

ـ هل أسكب لك دواءك؟

أجاب موليير:

ـ لا، لا. أنا أخشى الأدوية التي تدخل الجوف. افعل شيئاً بحيث أنام.

التفت بارون إلى الخادمة، وأمرها هامساً:

ـ وسادة مع حشيشة، بسرعة!

عادت الخادمة خلال لحظة بوسادة محشوة بحشيشة الدينار، ووضعتها تحت رأس موليير. عندها بدأ يسعل، وسال الدم على الرداء. فحصه بارون، مُقرِّباً الشمعة إلى وجهه، ورأى أنّ أنفه قد أصبح حاداً، وبدت ظلالٌ تحت عينيه، وتغطّى جبينه بعرقٍ ناعمٍ جداً.

ـ انتظري هنا، ـ همس بارون للخادمة، واندفع إلى الأسفل فاصطدم بجان أوبري، ابن ليونار أوبري الذي بنى رصيفاً حجرياً من أجل العربات المتألّقة. كان جان أوبري زوج جينوفييف بيجار.

ـ سيد أوبري، ـ همس بارون، ـ حالته سيئة جداً، اهرع لإحضار القسّ!

Twitter: @ketab_n

تأوّه أوبري، أمال قبعته حتى غطّت عينيه، وركض خارج البيت. عند الدرج ظهرت أرماند وفي يدها شمعة.

ـ سيدة موليير، ـ قال بارون، ـ أرسلي أحداً آخر أيضاً وراء القسّ، لكن بسرعة!

أسقطت أرماند الشمعة واختفت في العتمة، وركض بارون إلى الأعلى وهو يغمغم على الدرج بارتباك: «اللعنة، لماذا لم يصل أيّ من الأطباء؟».

ـ ماذا أعطيك يا معلّم؟ ـ سأل بارون ومسح جبين موليير بالمنشفة.

ـ ضوءاً! ـ أجاب موليير. ـ وجبن «بارميزان».

ـ جبن! ـ قال بارون للخادمة، وتلك، متعثرةً، وضعت الشمعة على المقعد وخرجت راكضة.

ـ قل لزوجتي أن تصعد إليّ. ـ أمر موليير.

هرع بارون على الدرج إلى الأسفل ونادى:

ـ هل من أحد هناك؟ المزيد من الضوء! يا سيدة موليير!

اشتعلت الشموع في الأسفل الواحدة تلو الأخرى في أيدٍ ترتعش. في هذه الأثناء، في الأعلى، كان موليير يرتجف، وهو يشدّ جسده كله، وتدفق الدم من حنجرته، وسال على البياضات. في اللحظة الأولى شعر بالخوف لكنه شعر فوراً براحةٍ غريبة، بل إنه فكّر حتى: «هذا جيد. . .» وبعد ذلك شعر بالذهول؛ فقد تحوّلت غرفة نومه إلى دغل، وفارسٌ أسود ما، ماسحاً الدماء عن رأسه، راح يقطع عنان فرس مصابة بجرح في ساقها محاولاً الخروج من تحتها. كانت الفرس تنتفض وتركل الفارس. وصلت أذنيه أصوات غير مفهومة على الإطلاق:

Twitter: @ketab_n

ـ أيها الفرسان! إليّ! لقد قُتل سواسّون! . .

«إنها المعركة قرب «مارفا»، ـ فكّر موليير، ـ والفارس الذي تركله الفرس هو سيور دي مودين، العشيق الأول لزوجتي الأولى. الدماء تتدفق من حنجرتي كنهر، هذا يعني أنّ وريداً ما قد انقطع لديّ. . .»، وبدأ يَشرق بدمه ويُحرّك فكه السفلي. اختفى دي مودين من أمام عينيه، وفي اللحظة ذاتها رأى موليير «الرون»، لكن في لحظة شروقها، أي الشمس، بدأت تغرق في الماء على شكل كرة أرجوانية اللون على صوت بزق الإمبراطور داسوسّي. «هذا غباء، ـ فكّر موليير، ـ فهذا ليس وقت الرون والبزق. . . أنا ببساطة أحتضر». وتسنّى له أن يفكّر بفضول: «وكيف يبدو الموت؟» ـ وقد رآه فوراً. إذ كان يتراكض في الغرفة وعلى رأسه وشاح الرهبان، وبتلويحة سريعة رسم علامة الصليب على موليير. بفضولٍ عظيم أراد أن يعاينه باهتمام، لكنه لم يرَ المزيد.

في هذه الأثناء صعد بارون إلى الأعلى وبيديه شمعدانان، غامراً الدرج بالنور، وخلفه كانت أرماند تهرول، وهي تلملم وترفع ذيل ثوبها. كانت تجرّ فتاةً صغيرة منتفخة الخدين من يدها، وتهمس لها:

ـ لا بأس، لا بأس، لا تخافي يا إسبري، فلنذهب إلى أبيك!

من الأسفل كان يُسمع إنشاد إحدى الراهبات الأخنّ الحزين. أرماند وبارون شاهدا، وهما يهرولان، هذه الراهبة ويداها في وضعية الصلاة.

«القديسة كلارا»، ـ فكّرت أرماند، ورأتّ أنّ الدماء قد غمرت السرير كله وموليير ذاته. خافت الفتاة الصغيرة وأجهشت بالبكاء.

Twitter: @ketab_n

ـ موليير! ـ نادت أرماند بصوتٍ راعش لم تنطق بمثله من قبل قط، لكنها لم تتلقَ جواباً.

أما بارون، فقد وضع الشمعدانين على الطاولة بعنف، ونزل الدرج قافزاً، فأمسك بالخادم من صدره، وصرخ:

ـ أين كنت تتسكّع؟ أين الطبيب أيها الأبله!!

أجاب الخادم بيأس:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل يا سيد بارون؟ لا أحد من الأطباء يريد المجيء إلى السيد موليير! لا أحد!

Twitter: @ketab_n

الفصل ٣٣

أنت تراب

كان البيت كله في حالة من الارتباك الشديد. وقد انتقل هذا الارتباك إلى الراهبات الفقيرات. فبعد أن صلّينَ بعض الوقت على موليير المغسول والمكفّن والراقد على فراش الموت، لم يعدنَ يعرفن قط ماذا يفعلنَ تالياً. فحوى الأمر أنّ الأرض لم تكن ترغب في استقبال جسد السيد موليير.

في اليوم السابق، عبثاً توسّل أوبري قساوسة أبرشية «سان أوستاش» ـ لانفان وليشا ـ المجيء إلى المتوفّى. فقد رفض كلاهما المجيء بصورة قاطعة. فأشفق قسّ ثالث، نسبته بيزان، على أوبري اليائس، وحضر إلى بيت الممثل الكوميدي، لكنه وصل متأخراً جداً، حيث كان قد توفي، فأسرع بالمغادرة. أما بخصوص دفن موليير وفق الطقوس الكنسية، فلم يكن هناك مجال للحديث. فالممثل الكوميدي الآثم مات دون اعتراف، ودون أن يتخلى عن مهنته المدانة من قِبل الكنيسة، ودون أن يقدّم وعداً خطياً بأنه، إذا ما الرب، بمنتهى اللامتناهية، أعاد إليه صحته، لن يعود إلى التمثيل في الكوميديات بعد ذلك أبداً في حياته.

لم تكن هناك صيغة لوثيقة كهذه، ولم يعزم أيّ قسّ في باريس على

Twitter: @ketab_n

مرافقة السيد دو مولبير إلى المقبرة، أجل، وبالمناسبة، لم تكن أيّ مقبرة لتقبله كذلك.

كانت أرماند قد بدأت تشعر باليأس حين وصل شخص من سكان «أوتايل»، كاهن اسمه فرانسوا لوازو، كان قد صادق موليير حين كان يعيش في «أوتايل». الكاهن لم يعلّم أرماند كيف تكتب التماساً إلى مطران باريس فحسب بل، مخاطراً دون شكّ باستجلاب أشدّ الويلات على نفسه شخصياً، وذهب مع أرماند إلى مطران باريس.

الأرملة والكاهن بعد انتظار قصير في غرفة الاستقبال الهادئة، أُدخلا إلى مكتب المطران، ورأت أرماند نفسها أمام أرليه دي شانفالّون، مطران باريس.

ـ لقد جئت، معالي قداستكم، ـ بدأت الأرملة بالكلام، ـ أسأل إذنكم بدفن زوجي المتوفّى وفق الطقوس الكنسية.

ـ هل كان زوجك ممثلاً كوميدياً يا سيدتي؟

ـ أجل، ـ أجابت أرماند بقلق، ـ لكنه مات كمسيحيٍّ طيب. يمكن أن تشهد على ذلك راهبتان من دير «القديسة كلارا دانيسي» كانتا في بيتنا. فضلاً عن أنه اعترف وقرّب في الفصح الماضي.

ـ للأسف الشديد، ـ أجاب المطران، ـ لكن لا يمكنني عمل شيء. لا يمكنني إعطاء الإذن بالدفن.

ـ فأين، إذاً، سأواري جسده الثرى؟ ـ سألت أرماند وبكت.

ـ أشعر بالشفقة لحالك، ـ كرّر المطران، ـ لكن افهمي، يا سيدتي، أنني لا أستطيع إهانة الشريعة.

ولوازو، مودّعاً بنظرات المطران من الخلف، أخرج أرماند النائحة.

Twitter: @ketab_n

ـ يعني، ـ قالت أرماند وهي تبكي، دافنةً وجهها في كتف الكاهن، ـ عليّ أن آخذه إلى خارج المدينة، وأدفنه قرب طريق واسعة. . .

لكن الكاهن الوفي لم يتخلَّ عنها، وذهبا إلى القصر الملكي في «سان جيرمان». هنا كان التوفيق بانتظار أرماند. فقد استقبلها الملك فوراً، وقادوها إلى قاعة كان ينتظرها فيها واقفاً قرب الطاولة. هي لم تقل شيئاً، وإنما ركعت مباشرةً على ركبتيها وأخذت تبكي. ساعدها الملك على الوقوف، وقال:

ـ أرجو أن تهدئي يا سيدتي. ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

ـ فخامتكم، ـ قالت أرماند، ـ إنهم لا يسمحون لي بدفن زوجي، دو موليير. اشفع لنا، فخامتكم!

أجاب الملك:

ـ سوف يُصنع كل شيء لزوجك المتوفى. أرجو أن تذهبي إلى بيتك وتعتني بجثمانه.

خرجت أرماند وهي تنطق بكلمات الشكر باكيةً، وخلال بضع دقائق راح رسول الملك يعدو وراء دي شانفالّون. حين حضر دي شانفالّون إلى الملك، سأله:

ـ ماذا يحدث هناك بخصوص موت موليير؟

ـ سيدي، ـ أجاب دي شانفالّون، ـ الشريعة تحرّم دفنه في أرض مقدّسة.

ـ وكم عمق الأرض المقدّسة؟ ـ سأل الملك.

ـ أربعة أقدام، فخامتكم. ـ أجاب المطران.

ـ صادِق، أيها المطران، على دفنه على عمق خمسة أقدام، ـ قال لويس ـ لكن ادفنوه حتماً، وتجنّبوا العزاء وكذلك الجلبة.

Twitter: @ketab_n

في ديوان المطران كُتبت الورقة التالية:

«بالأخذ بالحسبان الظروف التي كشفها التحقيق الذي أُجري بموجب أمرنا، نأذن لقسّ كنيسة «سان أوستاش» بدفن جثمان المتوفّى موليير شريطة أن يتم الدفن دون أي عزاء، وبحضور ليس أكثر من قِسّين، وليس نهاراً. وبحيث لا تُتلى على روحه أيّ صلوات، لا في كنيسة «سان أوستاش» المشار إليها أعلاه ولا في أيّ كنيسة أخرى».

ما إن انتشر في وُرَش منجّدي باريس خبر موت ابن المرحوم المبجّل جان باتيست بوكلن، الممثل الكوميدي دو موليير، الذي يحمل لقب المنجّد بالوراثة، حتى وصل ممثّلو الوُرَش إلى شارع ريشيليو، ووضعوا على جثمان الممثل الكوميدي علم الورشة، معيدين موليير إلى المهنة التي تركها طوعاً: كان منجّداً وعاد منجّداً.

وفي الوقت ذاته، شخص واسع الحيلة، إذ كان يعلم أن كونديه العظيم كان معجباً بموليير، جاء إلى كونديه مع الكلمات التالية:

ـ اسمحوا لي، معاليكم، أن أقدّم لكم القَبْريّة[1] التي كتبتها من أجل موليير.

تناول كونديه القبرية، ورنا إلى الكاتب، وقال:

ـ شكراً لك. لكني كنت أُفضّل لو أنه هو الذي كتب قبريتك.

في ٢١ شباط، في الساعة التاسعة مساءً، عندما كان يجب تشييع موليير، اجتمع حشد من مائة وخمسين شخصاً عند منزل الممثل الكوميدي الراحل، لكن لا أحد يعلم ممّن كان هذا الحشد مؤلّفاً، لكنه ـ لسببٍ ما ـ كان يتصرّف باضطراب؛ فقد سُمعت صرخات عالية بل

(١) القبرية هي ما يكتب على شاهدة القبر.

Twitter: @ketab_n

حتى صفير. شعرت أرملة سيور دو موليير بالقلق عند رؤية أناسٍ مجهولين. وتبعاً لنصيحة المقرّبين، فتحت النافذة وخاطبت المتجمّعين بالكلمات التالية:

أيها السادة! لماذا تريدون إقلاق زوجي الميت؟ أستطيع أن أؤكد لكم أنه كان شخصاً طيباً، وأنه مات مسيحياً. هل تتكرّمون بتوديعه إلى المقبرة؟

عندها وضع أحدهم محفظة جلدية في يدها، فراحت توزّع المال. بعد شيءٍ من اللغط انتظمت الأمور بفضل المال، وقرب المنزل ظهرت المشاعل. في الساعة التاسعة مساءً أُخرج التابوت الخشبي من البيت. في المقدمة سار قسّان صامتان. وبجوار التابوت سار صبيان يرتدون «جلابيات» الرهبان يحملون شموعاً هائلة الحجم. وخلف التابوت كانت تسير غابة من النيران، وبين حشد المودِّعين شوهد أناسٌ مشهورون هم: الفنان التشكيلي بيير مينيار، وكاتب الأمثولات لافونتين، والشاعران بوالو وشابيل. جميعهم كانوا يحملون المشاعل بأيديهم، وخلفهم سارت صفوف ممثلي فرقة «باليه رويال» وهم يحملون المشاعل، وأخيراً، حشدٌ مبعثر من مائتي شخص. عندما عبروا الشارع الأول فُتحت نافذة أحد المنازل، وأطلّت منها امرأة، وسألت:

ـ من الذي يدفنونه؟

ـ شخصاً اسمه موليير. ـ أجابت امرأة أخرى.

حُمل هذا الموليير إلى مقبرة القديس جوزيف، ودُفن حيث يُدفن المنتحرون والأطفال غير المعمَّدين. وفي كنيسة «سان أوستاش» أشار القسّ بإيجاز إلى أنه، في يوم الثلاثاء، في ٢١ شباط عام ١٦٧٣، دُفن في مقبرة القديس جوزيف المنجّد وفرّاش الملك جان باتيست بوكلن.

Twitter: @ketab_n

خاتمة
وداع الممثل البرونزي

وضعت زوجته على قبره شاهدة حجرية، وأمرت بإحضار مائة حزمة من الحطب إلى المقبرة ليكون بمقدور المشرّدين أن يتدفأوا. في الشتاء الأول القاسي تمّ إشعال نار هائلة عند هذه الشاهدة، وبسبب الحرارة تزعزت الشاهدة وانهارت، وكنّس الزمان قطعها. بعد مائة وتسعة عشر عاماً، في زمن الثورة العظمى، حين جاء القوميسارية لنبش جثمان جان باتيست موليير ونقله إلى الضريح، لم يتمكن أحد من تحديد مكان دفنه. ورغم أنهم نبشوا رفات أحدهم ونقلوه إلى الضريح، لكن أحداً لا يمكنه القول بدقة إنّ هذا الرفات هو رفات دو موليير. يبدو أنهم قد منحوا هذا الشرف لشخص مجهول.

وبالتالي، فقد دُفن بطلي في التراب وتوارى فيه. وفيما بعد، بمرور الزمن، اختفت مخطوطاته ورسائله كلها عن بكرة أبيها. وقد قيل إنّ المخطوطات أُبيدت أثناء الحريق، وإنّ متعصباً ما جمع الرسائل بعناية وأبادها. قصارى القول، ضاع كل شيء باستثناء ورقتين وقّع عليهما، يوماً ما، الممثّل الكوميدي الجوّال عند حصوله على المال لفرقته.

Twitter: @ketab_n

لكنه، حتى بعد أن فقد مخطوطاته ورسائله، غادر الأرض التي ظلّ راقداً فيها المنتحرون والأطفال الذين ولدوا موتى، واستقرّ فوق حوض نافورة جاف. ها هو! إنهِ هو ـ الممثل الكوميدي الملكي برباطي حذاءٍ برونزيين! وأنا، المقدَّر لي عدم رؤيته أبداً، أرسل إليه تحيتي الوداعية.

موسكو، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣

Twitter: @ketab_n

الفهرس

استهلال ٥
الفصل ١ في منزل القرود ١٣
الفصل ٢ حكاية هاويَي مسرح ١٨
الفصل ٣ هل نعطي الجدّ أورفيتان؟ ٢٨
الفصل ٤ لا يروق لكلّ الناس أن يكونوا مُنجِّدين ٣١
الفصل ٥ لأجل المجد الإلهيّ العظيم ٣٤
الفصل ٦ أحداث ضعيفة الاحتمال ٤٦
الفصل ٧ العُصبة المتألِّقة ٥١
الفصل ٨ الممثّل الجوّال ٦٥
الفصل ٩ الأمير كونتي يعتلي الخشبة ٧٩
الفصل ١٠ احترسوا أيها البورغونيون ـ موليير قادم! ٩٦
الفصل ١١ برو ـ ها ـ ها!!! ١٠٠
الفصل ١٢ البوربون الصغير ١١١
الفصل ١٣ المضافة الزرقاء المنتهَكة ١٢٢
الفصل ١٤ حصاد الريح ١٣٢

Twitter: @ketab_n

الفصل ١٥ السيّد الغامض راتابون ١٣٨
الفصل ١٦ القصة المُحزنة للأمير الغيور ١٤٨
الفصل ١٧ بموت الأمير الغيور ١٥٣
الفصل ١٨ مَنْ هي؟ ١٦٣
الفصل ١٩ مدرسة الدراماتورغ ١٧٣
الفصل ٢٠ العرّاب المصري ١٨٦
الفصل ٢١ فليقصف الرعد موليير! ٢٠١
الفصل ٢٢ العاشق الصفراوي ٢١٠
الفصل ٢٣ «الكلافيسين» السحري ٢١٤
الفصل ٢٤ بُعث ومات من جديد ٢١٨
الفصل ٢٥ أمفيتريون ٢٢٥
الفصل ٢٦ الانبعاث العظيم ٢٣٢
الفصل ٢٧ السيد دي بُوروسنياك ٢٣٥
الفصل ٢٨ المصري يتحول إلى نبتون، نبتون إلى أبوللو، أبوللو إلى لوي ٢٣٨
الفصل ٢٩ إبداع مشترك ٢٤٧
الفصل ٣٠ مشاهد من الحديقة ٢٥١
الفصل ٣١ مادلين ترحل ٢٥٦
الفصل ٣٢ الجمعة الرديئة ٢٦١
الفصل ٣٣ أنت تراب ٢٧٢
خاتمة: وداع الممثل البرونزي ٢٧٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

ـ لقد حملت على يديّ أطفالاً أكثر نبلاً.

ـ ما الذي تفهمينه أنت من معنى كلمة «نبيل» إنّ هذا الطفل سيصبح أشهر من ملككم لويس الثالث عشر، الملك الحاكم اليوم، بل سيغدو أكثر شهرةً حتى من الملك الذي سيليه، وذاك الملك، يا سيّدتي، سيُدعى لويس العظيم، أو ملك الشمس. يا سيّدتي الطيّبة! هناك بلد لا تعرفينه، يُدعى موسكوفيا، يقطنه أناسٌ يتكلمون لغةً غريبةً على مسامعك، وعمّا قريب سوف تنتشر أقوال هذا الذي ولّدتِه في ذاك البلد؛ إذ سيقوم أحد البولونيّين، هو مُهرّج القيصر بطرس الأكبر، بترجمتها عن اللغة الألمانيّة، وليس عن لغتكم، إلى لغة البرابرة.

ISBN 978-9933350123
9 789933 350123